شهداء الإسلام في عهد النبوة

الأستاذ الدكتور
علي سامي النشار

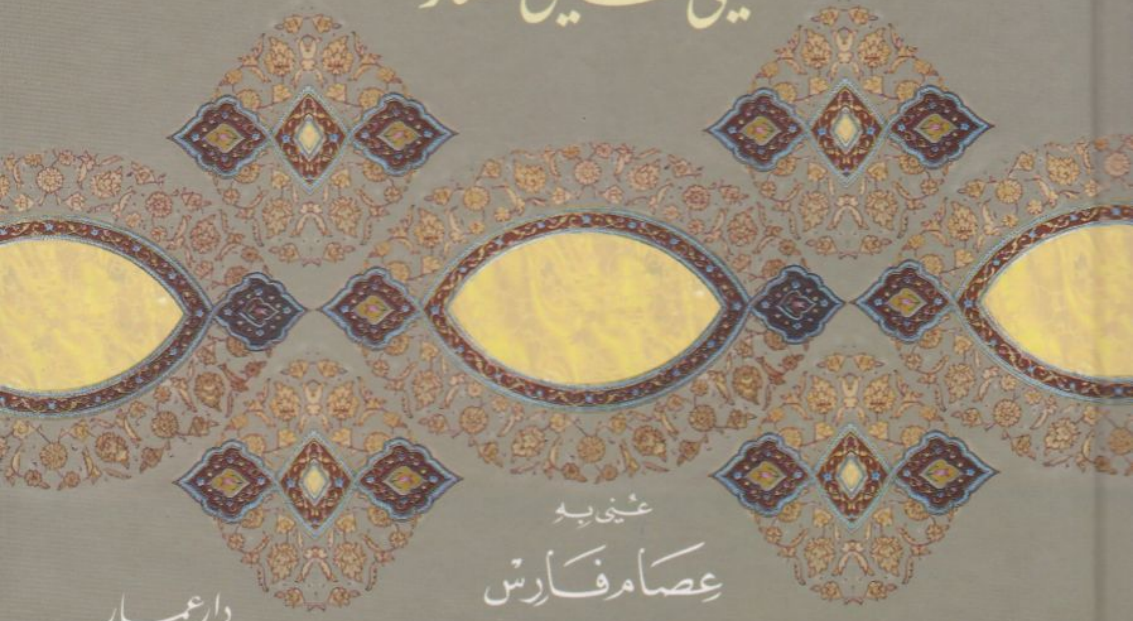

عني به
عصام فارس

دار عمار

مكتبة الرمحي أحمد ٨٢

شهداء الإسلام في عهد النبوة

الأستاذ الدكتور
علي سامي النشار

عُني به
عصام فارس

للمزيد والجديد من الكتب والروايات زوروا صفحتنا على فيسبوك
مكتبة الرمحي أحمد
https://t.me/ktabpdf

بسم الله الرحمن الرحيم

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقدمة

تلك صفحات من تاريخ شهداء الإسلام، دفعني إلى كتابتها أنها لم تَحظ بعناية الباحثين في التاريخ الإسلامي، فبقيت مجهولة، إلى أكبر حَدٍّ، لدى الكثير من المسلمين.

بل إن المسلمين ليعرفون عن شهداء المسيحية أكثر مما يعرفون عن شهدائهم العظماء، الذين شادوا بدمائهم الأمة الإسلامية، ورفعوا على أجسادهم قوائمها.

ولعل السبب في هذا راجع إلى قيام كثير من مؤرخي المسيحيين وشعرائهم بالكتابة عن ضحاياهم، والتغني بأمجادهم، والسُّموِّ بهم إلى مرتبة القديسين الأبرار.

فأُلِّفت الكتبُ الكثيرة وأُفردت المصنفات المتعددة عنهم، في اللغات الأجنبية على اختلافها، بينما أهمل المسلمون تاريخ شهداء الإسلام كما قلتُ إهمالاً تاماً.

وقد رأيت أن أقوم بمحاولة في كتابة تاريخ لهؤلاء الشهداء فقمت بجمع أخبارهم من شتاتِ كتب «السير» و«المغازي» و«طبقات الرجال» وكتب التاريخ، ولم آلُ جهداً في الاطلاع على تلك الكتب المختلفة مطبوعة كانت أو مخطوطة، ووجهت همي إلى العصر الأول، عهد صدر الإسلام، عهد الأمجاد العظيمة، والإيثار الإنساني المطلق، وأخذت أجمع مادتي من هنا وهناك، وكنت أجد المادة كثيرة لدى بعض الشهداء آناً، ولا أعثر إلا على شذرات مقتضبة لدى شهداء آخرين آناً آخر، حتى تَجمَّع لي أخبار عدد غير قليل من شهداء العصر الأول، فقدمتها للقارىء في صورة أدبية أخّاذة.

مكتبة الرمحي أحمد

غير أن هذا التصوير الأدبي لم يدعني في جانب، والحقيقة التاريخية في جانب آخر، بل كانت تلك الحقيقة نصب عيني دائمًا، فلم أَزِدْ أخباراً ولم أبتدع؛ بل قدمت صورة صادقة كاملة لهؤلاء الشهداء.

وقد حاولت مراراً أن ألتزم قاعدة زمنية في عرض تاريخ الشهداء، وإن كان هذا المنهج لم يسعفني في بعض الأحيان.

ومن الأمثلة على هذا. الصفحة الأولى. آل ياسر فقد كان «ياسر» و«سمية» أول شهداء الإسلام في حين كان «عمار» من شهداء صفين. ومع ذلك جمعتُ بينهم في العرض لأنهم أبناء أسرة واحدة. وآل نسيبة «بنت كعب» فقد استشهد أحدُ ولديها على يد مسيلمة واستشهد الآخر بعد ذلك في وقعة الحرة، ومع ذلك فقد جمعت بينهما، فلم يكن من التوفيق أن أفصل بين الرجل وأبويه، أو بين الرجل وأخيه، وحياتهم جميعاً وحدة كاملة متصلة كل الاتصال، وكنتُ أحياناً أخرى أجمع بين الأصدقاء الذين عاشوا متآخين وماتوا متآخين.

وفي اختصار، إن الكتاب وحدة تاريخية متصلة بقدر ما هو كتاب أدبي، يحلل تحليلاً أدبياً حياة هؤلاء الأقوام.

ولست أدعي إطلاقاً أنني حصرت شهداء العصر الأول كلهم، أو أنني حصرت معظمهم، بل إنني قدمت ما يمكن لِحَيِّزِ هذه الصفحات أن يحويه، وأَخَّرتُ الآخرين لكتاب أؤملُ في إصداره قريباً.

ثم إنني أهملت أسماء كثيرة من الشهداء لعدم تركهم أي آثار أستطيع أن أعرض حياتهم في ضوئها.

وإنني لأحيي تلك الأسماء الماجدة، وأحيي أيضاً آخرين ذهبوا ولم يستطع التاريخ أن يحويهم بين صفحاته، وأن يسجل أسماءهم للأخلاف الباقية، وهم في سجل الله خالدون.

وإني لأرجو أن أكون قد أديت فائدة جليلة للتاريخ الإسلامي الأدبي، وعرضت صحائف خالدة من مجد وعلو وإيثار.

د. علي سامي النشار

* * *

آل ياسر

«أبشروا آل ياسر فإن موعدكم الجنة»

وأرسلت الشمس أشعتها الأخيرة على الصحراء الممتدة، وهَبَّت الرياح نَديةً رقيقة، وحادي القافلة ينشد أناشيده الصحراوية في هذا الكون العميق ـ وسارت النُّوقُ في منعرجات دقيقة، وأودية يكسوها أحياناً نوع من الشوك والعوسج[1]، وأحياناً تبدو جرداء قاحلة ـ وسارت القافلة ردحاً من الليل، حتى إذا ما أحسّ كثير من رجالها بالتعب استقروا في وادٍ من الأودية المنتشرة، وأخذ السمَّار يسمرون، وأخذ أصحاب تجارة هذه القافلة يفكرون فيما سيبيعونه غداً في البيت العتيق، ومن أشراف قريش وتجارها، وما سيعودون به من ربح طائل من سَدَنة الكعبة المعظمة، وفوق ذلك ما سيتمتعون به من ترف ونعيم ولهو في حياةٍ كلها لَهْوٌ وفِسْقٌ.

وانتحى القومَ أفراد ثلاثة، لم يكن يشغلهم ما يشغل القوم من حديث، ولم يكونوا يُؤمِّلون ما يؤمل بقية رفقائهم في رحلتهم الطويلة.

إنما خرج ياسر بن عامر وأخواه الحرث ومالك من اليمن لا لمالٍ ولا لمتاع إنما للبحث عن أخ مفقود، خرج من قبيلته في اليمن ثم انقطعت عنهم أخباره، وكانوا يأملون أملاً قوياً أنهم سيجدونه في مكة وهي ملتقى العرب جميعاً.

وهدأت الحركة قليلاً، إذ غفا كثير من المسافرين؛ فلما أشرقت الشمس تَنادى القومُ، وهب النائمون من رقادهم، وسارت القافلة مرة أخرى في جد واهتمام طيلة اليوم، فإنه لم يعد بينها وبين مكة سوى ساعات قليلة.

* * *

وأشرفت القافلة على بيت إبراهيم، وتصايح الرجال، واختلطت أصواتهم وخرجت قريش لاستقبال القافلة، فقد كان فيها شيء كثير من تجارتهم وعدد كبير من رجالهم وأبنائهم، وانتشر اليمنيون بين القرشيين، يبيعونهم ويبتاعون منهم، ويشاركونهم في حياتهم

---

(١) العوسج: نوع من الشوك.

المنحلَّة الفاجرة.

أما ياسر وأخواه فقد شغلهم عن كل هذا ما أتوا لأجله، فبحثوا كثيراً وتنقلوا بين أحياء مكة ومساكنها، وبين أسواقها وبواديها، حتى إذا ما أعجزهم البحث، وآن للقافلة العودة إلى بلدها، أسرع الإخوة إليها، فقد هاجَهم الحنينُ إلى بلدهم الخصب، لكن ياسراً استهوته حياة مكة فعزم على الاستقرار بها ـ فلما حان للقافلة أن تَؤُوب[1] لم يكن ياسر بين رجالها، فلقد ودع أخويه مصراً على الحياة في مكة وفي جوار بيتها، لكن لم يكن لياسر قبيلة تدافع عنه وتُؤويه، وتمنع عنه مظالم الطغاة من رجال القبائل، وكانت الحياة في الجزيرة العربية يسيطر عليها القانون الوحشي «الحياة للأقوى» فلم يكن للضعيف سوى الاستعباد والذل، فلجأ إلى سراة بني مخزوم[2] محالفاً أبا حذيفة بن المغيرة، ليدفع عنه عادية البطون الأخرى من قريش ـ وقد زوجه أبو حذيفة أَمَةً له، هي سمية بنت خياط، فولدت له عماراً وعبدالله، وسارت بهم الحياة في كنف بني مخزوم رقيقة لا حَدَبَ[3] فيها ولا عُسْرَ، وتقدم ياسر في العمر، كما اكتملت رجولة عمار.

* * *

وأشرق الضوء الجديد على مكة، لقد بعث الله نبيه محمد بن عبدالله إلى العالمين، فما آمن به من قومه إلا بضعة وثلاثون رجلاً أذاقتهم قريش ألوان الألم والعذاب.

وفكَّرَ عمّار بن ياسر ـ فيمن فكّر من أهل مكة ـ فيما يدعو إليه محمد صلوات الله وسلامه عليه، وفيما ينذر به قومه. ما هذه الحياة الدنيا، وما غايتها؟ ما هذه الدعوة التي يراد بها خَلقُ مجتمعٍ جديد؟ إنه لن يستطيع أن يتحدث عن الرسالة سوى صاحب الرسالة.

وبدت دار الأرقم من بُعد أمام عمار بن ياسر؛ وهو مسرع الخطا إليها، ساكنةَ الجوانب، ويلتفت عمار بن ياسر يَمنةً ويَسْرة فإنه شعر بما لقريش من رقباء حول هذه الدار، ينقلون إليها كل ما يدور فيها، وليس لعمار بن ياسر من قوم ولا مَنَعة.

لكن ما لعمار بن ياسر وهذا الضعف؟ فتقدم نحو الدار، وهنا وجد نفسه أمام رجل آخر. هو صهيب بن سنان الرومي، أحد الغرباء في قريش.

---

(١) تؤوب: تَرجع.
(٢) أي سادات ورؤساء بني مخزوم.
(٣) أي لا مَشَقَّةَ فيها.

ـ ماذا تريد يا صهيب؟!

ـ ماذا تريد أنت يا عمّار؟!

ـ أريد أن أدخل على محمد فأسمع كلامه.

ـ وأنا أريد ذلك.

ودخل الإثنان، فعرض عليهما النبيّ ﷺ الإسلام فأسلما، ثم مكثا يومهما على ذلك حتى أمسيا، ثم خرجا يستخفيان.

وعرض عمّار الإسلام على أبيه وأمه فأسلما، وعلمت بنو مخزوم بذلك، فلم ينكر عمَّار ولا أهله، بل أعلنوا ذلك في قوّة لم ير الكافرون فيها إلا عناداً وتحدياً.

وانقضَّ بنو مخزوم على آل ياسر، يُذيقونهم أَشدَّ العذاب، ليفتنوهم عن دينهم.

وفي بطحاء مكة حيث ترسل الشمس شواظاً من لهب، قضى آل ياسر أياماً في عذاب مقيم.

ومرّ محمد ﷺ عليهم وهم يعذبون، وسمع ياسراً يئنّ في قيوده، وهو يقول: «الدهر هكذا» فنظر الرسول الأعظم إلى السماء ونادى: «أبشروا آل ياسر فإنَّ موعدَكم الجنة».

وسمعها آل ياسر فهدأت نفوسهم وسكنت، فلما أتاهم «أبو جهل» كان عُلُوُّهم على الحياة أعظم ما رأى الناس، وقضى ياسر في العذاب وانقض أبو جهل على سمية فقتلها.

لقد استشهد ياسر وسمية ولم يعد من آل ياسر إلا عمار، وقد قاسى عمار من العذاب أقساه، أخذوا يَغطُّونه في الماء، حتى بلغ به الجَهدُ مَبلغه، ولم يتركوه حتى نال من رسول الله ﷺ، وذكر آلهتهم بخير، فلما أتى النبي ﷺ قال له:

ـ ما وراءك؟

ـ شَرٌّ يا رسول الله، والله ما تُركتُ حتى نِلْتُ منك، وذكرتُ آلهتهم بخير.

ـ فكيف تجد قلبك؟

ـ مطمئنٌّ بالإيمان.

ـ فإنْ عادوا فَعُدْ.

وأَذِنَ النبي ﷺ لأصحابه بالهجرة، وهاجر عمار فيمن هاجر إلى يثرب حتى إذا ما هاجر

محمد صلوات الله وسلامه عليه، وبدأ يبني مسجده في مربد بني عمرو، ودعا المهاجرين والأنصار إلى العمل فيه، آزروا جميعاً فيه، وفي مقدمتهم عمار بن ياسر ونادى منادي المسلمين:

لئِـنْ قعـدنـا والنبـيُّ يعمـلُ لـذَاك منـا العمـلُ المُضَلّـلُ

فارتجز المسلمون وهم يبنون:

اللهـم لا خيـرَ إلا خيـر الآخـرة فـاغفـرْ لـلأنصـارِ والمهـاجـرة

وكان علي بن أبي طالب وعمار بن ياسر يرتجزان:

لا يستـوي مَـنْ يَعمـرُ المسـاجـدا يـدأبُ فيـه قـائمـاً وقـاعـدا

ومن يُرى عن الغبار حائدا

ودخل عمّار بن ياسر على النبي ﷺ وقد أثقلوه باللَّبِنِ فقال: «يا رسول الله ـ قتلوني ـ يحملون عليَّ ما لا يحملون»، فنفض النبي ﷺ لبنَته وقال: «ويح عمار تقتله الفئةُ الباغية يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار». وعاش عمار مع النبي ﷺ لا يفارقه قط، فشهد المشاهد كلها، وعرف النبي له قَدْرهُ فأحبه، وكثيراً ما قال لصحابته: «إني لا أدري ما بقائي فيكم فاقتدوا باللذين من بعدي وأشار إلى أبي بكر وعمر، وتمسكوا بعهد عمار، وما حدثكم ابن مسعود فَصدِّقوه». وفي رواية أخرى: «إني لست أدري ما قَدْرُ بقائي فيكم، فاقتدوا باللذين من بعدي، يشير إلى أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، واهتدوا بهَدْي عمار وعهد ابن أم عبد» رضي الله عنهما.

وقضى النبي ﷺ، فبكاه عمار أشد البكاء، وارتدت العرب واختلفت على المسلمين، غير أن أبا بكر لم يأخذه من الأمر ضَعفٌ ولا تردد، بل بعث إلى المرتدين جيوش المؤمنين وكان في مقدمتهم عمار بن ياسر.

وفي يوم اليمامة حيث أصاب المسلمين أول الأمر شِدَّةٌ، أشرف عمار على الصخرة وهو يصيح: «يا معشر المسلمين ـ من الجنة تَفِرُّون. أنا عمار بن ياسر هلمّوا إليّ». وكانت أذنه قد قُطعت وهي تذبذب وهو يقاتل أشد القتال، وانتصر المسلمون أخيراً.

وتنقل عمار بن ياسر من ميدان إلى ميدان، وشهد القادسية وغيرها حتى ولاه عمر الكوفة، وأرسل إلى أهلها يقول: «إني بعثت إليكم عمار بن ياسر أميراً وابن مسعود معلماً ووزيراً، وإنهما لمن النجباء أصحاب محمد من أهل بدر فاسمعوا، لهما وأطيعوا»، ثم عزله عن الكوفة وسأله:

ـ أَأساءكَ عزلنا إياك؟

ـ فقال: لئن قلت ذاك لقد ساءتني الولاية بقدر ما ساءني العزل.

وقامت الفتنة العمياء بين عليّ ومعاوية فانضوى عمار تحت لواء عليّ.

وفي صفين التحم الجيشان، وكان عمّار شيخاً آدمَ[1] في يده الحربة وإنها لَتُرعد، فنظر إلى عمرو بن العاص وقال: «الجنة تحت البارقة الظمأى[2] قد يرد الماء المأمور، وذا اليوم أَلقى الأحبةَ محمداً وحزبه، والله لو ضربونا حتى يبلغونا سعفات هَجَر لعلمتُ أنَّا على حق وأنهم على باطل، لقد قاتلتُ بهذه الراية ثلاث مرات مع رسول الله ﷺ، وما هذه المرة بأَبرَّهِنَّ ولا أنقاهن».

والتحم الجيشان ومضى عمار على رأس كتيبة لا يأخذ في ناحية أو واد إلا وأصحاب النبي ﷺ يتبعونه. ثم برز إليه رجل فقتله عمار، ثم رجل آخر فقتله، وحينذاك غافله أبو العارية المزني ورماه بسهم فقتله، ثم احتزّ رجل آخر رأسه، وأقبلا يختصمان فيه كلاهما يقول: إنه قتله، فقال عمرو بن العاص: «والله إنْ يختصمان إلا في النار، لَوددتُ أني متُّ قبل هذا بعشرين سنة».

ونادى المنادي: «ويحك ابن سمية! تقتلك الفئة الباغية». ووقف على جسده يقول: «إن امرءاً من المسلمين لمْ يَعظُمْ عليه قتلُ ابن ياسر وتدخل به عليه المصيبة الموجعة لغير رشيد، رحم الله عماراً يومَ أسلمَ ورحم الله عماراً يوم قُتل ورحم الله عماراً يوم يُبعث حياً.

لقد رأيت عماراً وما يُذكر من أصحاب رسول الله ﷺ أربعة إلا كان خامساً.

وما كان أحد من قدماء أصحاب رسول الله يشك أن عماراً قد وجبت له الجنة في غير موطن ولا في اثنين، فهنيئاً لعمار بالجنة ـ إنَّ عماراً مع الحق والحق معه يدور ـ عمار مع الحق أينما دار، وقاتلُ عمار في النار».

* * *

«مات عمار بن ياسر شهيداً كما مات أبواه من قبل شهيدين».

سمع هذا أهل مكة فتردد في آذانهم: «أبشروا آل ياسر فإن موعدكم الجنة».

* * *

---

(١) آدم: أسمر اللون.

(٢) البارقة: سحابة ذات برق. والظمأى: العطشى

شهداء بدر

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا
بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ. ﴾

ونفرت قريش إلى الحرب حين علمت أن رسول الله ﷺ خرج يعرض لِعِيرها، وسارت تلك القوة في خُيلاء نحو مياه بدر.

وعلم الرسول الأعظم عند وادي زفران أن قريشاً سارت لتمنع عِيرها؛ قريش خرجت كلها لملاقاته، فأخبر أصحابه واستشارهم أولاً، فقام أبو بكر وعاهد الله على الوفاء، كما قام عمر بن الخطاب، ثم قام المقداد بن عمرو، فقال: «يا رسول الله امضِ لما أَرَاكَ الله فنحن معك، والله لا نقولُ لك كما قال بنو إسرائيل لموسى: ﴿ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴾ [المائدة: ٢٤]، ولكن اذهبْ أنت وربك فقاتلا إنا معكم مقاتلون. فوالذي بعثك بالحق لو سِرتَ بنا إلى برك الغماد لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه. ».

ثم استشار الأنصار فأعطاه سعد بن معاذ سيد الأنصار العهود على السمع والطاعة والموت في سبيله؛ فآمن رسولُ الله ﷺ أن نصرَ الله قريب، وسار حتى وقف على ماء بدر.

وهناك علموا أن قافلة أبي سفيان قد فاتتهم وأنه ليس أمامهم إلا عَدوٌّ يبلغ ثلاثةَ أضعاف عددهم.

وبدأت المناوشات الأولى فخرج من قريش عتبة بن ربيعة بين أخيه شيبة وابنه الوليد بن عتبة حتى إذا فصل من الصف دعا إلى المبارزة فخرج إليه فتية من الأنصار ثلاثة وهم: عوفٌ ومُعوِّذ ابنا الحرث ـ وأمهما عفراء ـ وعبدالله بن رواحة.

فصاح عتبة: «مَنْ أنتم؟» فقالوا: رهط من الأنصار، قالوا: ما لنا بكم من حاجة، ثم نادوا: يا محمد أَخرِجْ لنا أكفاءنا من قومنا، فقال رسول الله ﷺ: «قُمْ يا عبيدة بن الحرث، قم يا حمزة، قم يا علي. » فقال عتبة: «من أنتم؟» فذكر كل منهم اسمه قالوا: أكفاء كرام. فبارز عبيدةُ ـ وكان أَسَنَّ القوم ـ ربيعةَ، وبارز حمزة شيبة بن ربيعة، وبارز علي الوليدَ بن ربيعة.

فأما حمزة فلم يُمهلْ شيبة أن قتله، وأما علي فلم يمهل الوليد أن قتله، وأصاب عتبة عبيدة

مكتبة الرمحي أحمد

في قدمه فكَرَّ عليه حمزة وعلي فقتلاه بسيوفهما واحتملا عبيدةَ إلى صفوف المسلمين.

ونام عبيدة تحت أقدام الرسول وقال: ألستُ شهيداً يا رسول الله؟

فقال الرسول: بلى.

مات عبيدة بن الحرث بن المطلب بن عبد مناف، وهو صاحب أول راية عقدها رسول الله ﷺ في الإسلام لأحدٍ من المسلمين، مات أحد السابقين الأولين من المهاجرين.

* * *

واقترب المشركون من المسلمين ورسول الله ﷺ يعدل أصحابه وفي يده قدح، فمر بسواد بن غزية وهو غير منتظم في الصف فطعنه في بطنه بالقدح وقال:

ـ اسْتَوِ يا سواد. فقال:

ـ يا رسول الله أوجعتني وقد بعثك اللهُ بالحق والعدل فأَقِدْني.

فكشف رسول الله ﷺ عن بطنه وقال: «استقد»[1] فاعتنقه سواد وقَبَّلَ بطنه، فقال الرسول الأعظم:

ـ ما حملكَ على هذا يا سواد؟

ـ يا رسول الله حضر ما ترى فأردتُ أن يكون آخر العهد بك أن يَمَسَّ جلدي جلدك.

وبدأت الحرب، ثم دخل الرسول الأعظم يناجي ربه، ثم خفق خفقة وهو في العريش، ثم انتبه فقال: أبشر يا أبا بكر أتاك نصرُ الله، هذا جبريل آخذ بعِنانِ فرس يقوده على ثنايا النقع.

وفي تلك اللحظة رُميَ مهجع مولى عمر بن الخطاب بسهم فَقُتِلَ، فكان أول من قتل من المسلمين. ثم رُمي حارثة بن سراقة وهو يشرب من الحوض بسهم فأصاب نحره فقتل.

ثم خرج رسول الله ﷺ إلى الناس وقال: «والذي نفسُ محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فَيُقتَل صابراً محتسباً مُقبلاً غير مُدبرٍ إلا أدخله الله الجنة». فقال عمير بن الحمام وفي يده تمرات يأكلها:

---

(١) استقد: اقتصَّ مني.

ـ بَخٍ بخ[1] أفما بيني وبين أن أدخل الجنةَ إلا أن يقتلني هؤلاء؟ ثم قذف التمرات من يده وأخذ سيفه فقاتل القوم حتى قُتل. وأقبل عوف بن الحرث بن عفراء وقال:

ـ يا رسول الله ما يُضحك العبدَ من ربه؟

ـ غَمْسهُ يده في العدو حاسراً.

فنزع درعاً كانت عليه فقذفها، ثم أخذ سيفه فقاتل القوم حتى قُتل.

* * *

وسأل معوذ أخاه ـ أحد المهاجرين: أين أبو جهل؟ لقد كان يؤذي رسول الله في مكة كثيراً، أريد أن أراه. فلما أشار إليه أحد المهاجرين هجم معوذ عليه وضربه حتى بَرَدَ، فتركه وبه رمق[2] ثم انقضَّ على القرشيين حتى قتل.

وقتل عمير بن أبي وقاص وهو في السادسة عشرة دفاعاً عن دينه، وقتل ذو الشمالين بن عبد عمرو، وعاقل بن البكير، وصفوان بن بيضاء، ومبشر بن عبد المنذر، ويزيد بن الحرث، ورافع بن المعلى.

* * *

وفي بدر. ناموا جميعاً أحياء غيرَ أموات.

@ktabpdf تيليجرام

* * *

(١) اسم فعل بمعنى: أستحسن.

(٢) رمق: بقية الروح.

سيد الشهداء
حمزة بن عبد المطلب

جاءني جبريل فأخبرني أن حمزة بن عبد المطلب مكتوب
من أهل السمٰوات السبع «أسد الله وأسد رسوله»

١ـ إيمان الأسد:

إن الشمس لَتشرقُ كل يوم على مكة، والأيام تدور فيها وتَنتابها الغِيَر[١] ويحدثُ فيها ما يحدث. وحمزة بن عبد المطلب في عالم بعيد كُلَّ البُعدِ عن عالَم مشاغلها وأزماتها، إنه ليحيا لنفسه ولنفسه فقط، لذائذُ الحياة يقبل إليها؛ مالٌ وجاه وقوة وسطوة، فالحياة إذن نعيم دنيوي يأخذ منه بأكبر نصيبه. ما شغله هذا الكون ومَنْ فيه، وما أَبِهَ[٢] يوماً لشيء من الأشياء يحدث بين قومه حتى هذا الحديث الهائل الذي تذكره قريش اليوم وقد شغلها عن كل شيء؛ حديث ابن أخيه محمد بن عبدالله، وهو يلقي إليهم شيئاً ما عرفوه من قَبلُ وما سمعوا به. إنه الصوت الإلهي الذي يدعوهم من عَلُ فيتدفق في قلوبهم نوراً وضياء. إنه ليسمعه ويسمعه قوياً، يشعل في نفسه شعلات غامضات لا يعرف لها كنهاً.

ولكن الحياة بلذائذها تطغى عليه، فيأخذ منها ولا ينظر بَعْدُ إلى هذا الصوت الداخلي. لقد دعاه أبو طالب سيد قريش إلى مَنعةِ ابن أخيه فاستجاب، ولكن لم يكن استجاب بعد لما دعا محمد قومه إليه.

وإن رسول الله ﷺ ليحتمل الإعنات والإرهاب ويصبر عليهما صبراً ينفذ نفاذاً هائلاً في قلب حمزة فيثير في نفسه الدهشة والإعجاب، ثم ينقلب هذا الإعجاب إلى حب هائل، غير أن هذا كله لم يُلْهِه عن دنياه التي يمرح فيها.

عاد يوماً حمزة بن عبد المطلب من قَنْصه مُتوشِّحاً قوسه وكان إذا رجع لم يصل إلى أهله

---

(١) أي تُصيبها الأحداث والمصائب.
(٢) أي لم يهتم.

حتى يطوف بالكعبة متحدثاً متندراً مع حلقاتها.

وهناك اقتربت منه مولاة لعبدالله بن جدعان، وقالت: واذُلاَّه يا بني عبد مناف، يا أبا عمارة لو رأيت ما لقيَ ابنُ أخيك محمد من أبي الحكم بن هشام. وجده ههنا جالساً فآذاه وسَبَّهُ وبلغ منه ما يكره، ثم انصرف عنه، ولم يكلمه محمد ﷺ.

وهنا ازداد الغضب بحمزة. ماذا فعل محمد حتى يلقى كل هذا؟

أَوَليس يدعوهم إلى خير ما في هذه الحياة وما بعدها! ما لهم ينالون منه أشد النيل؟ ألا إنَّ هذا الأمرَ لَحقٌّ! فخرج يسعى لم يقف على أحد مُعِدّاً لأبي جهل إذا لقيه أن يوقع به، فلما دخل المسجد نظر إليه جالساً في قومه فأقبل نحوه حتى إذا قام على رأسه رفع القوس فضربه بها فشجه شجة منكرة ثم صاح فيه: «أتشتمه؟! فأنا على دينه! أقول ما يقول، فَرُدَّ ذلك عليَّ إنْ استطعت».

فقام رجال من بني مخزوم إلى حمزة لينصروا أبا جهل. وهنا يقف حمزة وقفة الضرغام[1] الأبيّ مستعداً للقتال. ألا إنه أَعزُّ فتى في قريش قوة وشكيمة، وصاحوا فيه جميعاً:

ـ ما نراك يا حمزة إلا قد صَبَوْتَ.

ـ ومن يمنعني وقد استبان لي منه ما أشهد أنه رسول الله ﷺ، وأن الذي يقول حق؟ فوالله لا أنزع فامنعوني إن كنتم صادقين.

فوقف أبو جهل وقال:

ـ دعوا أبا عمارة فإني والله قد سَببتُ ابن أخيه سباً قبيحاً.

ثم رجع حمزة إلى بيته. ولكن ما له يفكر؟ ويفكر تفكيراً عميقاً يَشغلُ عليه نفسه، ويمر الليل عليه ولم يذق فيه للنوم طعماً، وها هو ذا الشيطان يحدثه: «أنت سيد قريش اتبعتَ هذا الصابىء وتركت دين آبائك، لَلموتُ خير لك مما صنعت».

أقبل حمزة على نفسه يقول: «ما صنعتُ اللهم إنْ كان رشداً فاجعل تصديقه في قلبي، وإلا فاجعل لي مما وقعت فيه مخرجاً». ثم حدثته نفسه مرة أخرى:

«إن عند صاحب الدين المؤنة الصادقة في أمره».

---

(١) الضرغام: الأسد.

فغدا على رسول الله ﷺ وأقبل عليه خاشعاً. ما لهذا النور من عيني هذا الرجل يقذفُ في قلبه، ويُقَيِّدهُ فلا يستطيع فكاكاً؟ ما هذه القوة الخالدة التي يلقيها إليه وإنه ليتقدم إليه حزيناً متحسراً.

ـ يا ابن أخي إني وقعتُ في أمر ولا أعرف المخرج منه، وإقامة مثلي على ما لا أدري ما هو؟ أَرشدٌ أم غيٌّ شديد؟ فحدِّثني حديثاً فقد اشتهيت يا ابن أخي أن تحدثني.

وأقبل عليه رسول الله ﷺ فذكَّره ووعظه وخَوَّفه وبَشَّره..

سمع حمزة وبكى. بكى الضيغمُ الهصور[1]

إن هذا القرآن لينزل على الكائنات فتخشع وتسجد، ولقد سجد حمزة وآمن، وصاح: «أشهد أنك صادق شهادة الصدق، فأظهرْ يا ابنَ أخي دينك، فوالله ما أُحبُّ أن لي ما أظلَّته السماء وأنا على ديني الأول». وشهدت السماء والأرض أن حمزة بن عبد المطلب أسلم وآمن.

٢ـ منعة الأسد:

أسلم حمزة وعرفت قريش أن رسول الله ﷺ قد عَزَّ وامتنع، وأن حمزة سيمنعه، فكفوا عن بعض ما كانوا ينالون منه ـ وفكروا في عُرُض يعرضونها عليه ـ فأرسلوا عتبة إلى النبي ﷺ، عرضوا عليه المال والملك. وعرضوا عليه السلطان والقوة ولكن ما فَتنَ هذا كله رسولَ الله، وقد أوتي مفاتيح كل شيء.

ولقد فني حمزة في دين الله، وقريش ترهبه وتخشاه، ويعلن هو دينه في كل مكان، ولكنه فوق هذا حمل جانباً من المقاومة السلبية التي قاومتها قريش لبعض أصحاب رسول الله ﷺ. أما المقاومة الإيجابية المستمرة فلم يصل إلى حمزة منها شيء. كان أعزَّ من أن تُصيبه قريش بشيء منها.

وفكر عمر بن الخطاب ـ قبل إسلامه ـ في قتل الرسول وذهب إلى أخته وأسلم على يديها، ثم ذهب إلى الرسول متوشحاً سيفه، وضرب على الباب، فلما سمعوا صوته قام رجل من أصحاب رسول الله فنظر من خَلَلِ الباب فرآه، فرجع إلى رسول الله ﷺ وهو فَزِعٌ فقال: يا رسول الله هذا عمر بن الخطاب متوشحاً بالسيف، وهنا قام حمزة بن عبد المطلب قائلاً:

---

(١) الضيغم: الأسد. الهصور: القوي.

ـ فَأْذَنْ له فإن كان جاء يريد خيراً بذلنا له وإن كان يريد شراً قتلناه بسيفه.

ما عاد حمزة يخشى شيئاً في دين الله. فليحاربه قومه أو فليحاربْ هو قومَهُ، فلن يأبه لشيء، إنَّ غايته الله، فله يحيا.

٣ـ الهجرة:

الدعوة لا بد أن تنتشر في الأرض. وقد هاجر قوم بدينهم إلى بلاد الحبشة، فليست هي لمكة ولا لبلاد العرب ـ إنها دعوة الوجود كله ـ تحاول أن تشمل الأمم جميعًا في وحدة كاملة وتسيطر على ضمائر الناس، فتلغي فوارقهم وعصبياتهم وتقيم أساسًا آخر للوجود الإنساني، وتاريخ هذا الدين عجيب نادر.

كلما حاربه قوم تَلَقَّفَهُ آخرون، وكلما حط به قوم رفعه غيرهم ـ فكان له على الدوام عوامل القوة والفيض، وها هي ذي مكة تقاومه فيسعى إلى يثرب، وقد هاجر المهاجرون أرسالاً ـ وهاجر حمزة بن عبد المطلب، وترك تلك المجالس التي قضى فيها مَيعةَ صِباه[١]، وتلك الأودية والآكام[٢] التي عاش فيها لاهياً متنعماً، وأولئك الخِلاَّن، لقد انتهت صحبتهم.

ونزل حمزة بن عبد المطلب بالمدينة فقيراً، لا يملك من الحياة شيئاً غير إيمانه ـ وإيمانه كان لديه الحياةَ كلها، وما بعد الحياة ـ، ترك في مكة أمواله وأملاكه، وأصبح عَيْلةً على الأنصار، وقد آثروا هؤلاء المهاجرين على أنفسهم.

ويسعى حمزة بن عبد المطلب إلى رسول الله يطلب منه أن يجد له ما يقتاتُ به. سيدُ قريش يأبى أن يكون عالةً على أحد. والمَسْغبةُ تؤلمه[٣]

وكان لا بد لرسول الله ﷺ أن يؤاخي بين المسلمين، فآخى بين حمزة وبين مولاه زيد بن حارثة، ولقد رضي الشريف القرشي مؤاخاة العبد الرقيق فلقد محا الإسلام تلك الفروق.

تلك المعيشة الجدباء من لذائذ الحياة، المليئة بالتقوى والإيمان، عاشها حمزة السيد القرشي في المدينة حتى أذن الله للمسلمين في القتال.

* * *

---

(١) ميعة صباه: أول طفولته.
(٢) الآكام، جمعُ أَكَمة وهي: التل.
(٣) ما يقتات به: ما يعيش عليه. المسغبة: الجوع الشديد.

٤ ـ أسد الله وأسد رسوله:

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج: ٣٩].

آن للمسلمين أن يردوا العدوان عنهم بالسيف، وقد غزا الرسول في الأبواء، وحين عاد منها بعث فارسَ قريش حمزة بن عبد المطلب إلى سِيفِ البحر من ناحية العِيص في ثلاثين راكباً من المهاجرين ليس فيهم من الأنصار أحد، فلقي أبا جهل بن هشام في ذلك الساحل في ثلاثمائة راكب من أهل مكة. هل يُرعِبُ حمزةَ هذا؟ أبداً، لقد أقدم على القتال، ولكن حجز بينهم مجدي ابن عمرو الجهني، وكان موادعاً للفريقين، فانصرف بعضُ القوم عن بعض.

هنا وقفة عظيمة من مواقف ابن عبد المطلب؛ إنه ليعلم أن عدوه عشرة أمثاله، ولكن لم يصرفه هذا عن غايته، وأنه أراد الحرب، وقد قال حمزة في ذلك شعراً، يذكر فيه أنَّ رايتَهُ أولُ راية عقدها رسول الله ﷺ منه:

بأمر رسول الله أولُ خافقٍ ... عليه لواء لم يكن لاح من قَبْلي

لواءٌ لديه النصر من ذي كرامة ... إله عزيز فِعله أفضلُ الفعل

فلما تراءينا أناخوا فعقَّلُوا ... مطايا وعقلنا مدى غرض النَّبْل

فقلنا لهم: حبلُ الإله نَصيرنا ... وما لكم إلا الضلالة من حبل

فثار أبو جهل هنالك باغياً ... فخاب ورَدَّ الله كيد أبي جهل

وما نحن إلا في ثلاثين راكباً ... وهم مائتان بعد واحدة فَضْل

فيالَ لُؤَيٍّ لا تطيعوا غُواتكم ... وفيئوا إلى الإسلام والمنهج السهل

فإني أخاف أن يُصَبَّ عليكم ... عذابٌ فتدعوا بالندامة والثُّكْل

وهذه قريش في بدر خرج منها الأسود بن عبد الأسد المخزومي، وكان رجلاً قرشياً سيىء الخلق، فقال ـ وقد بنى المسلمون حوضاً ـ: أعاهدُ الله لأَشربنَّ من حوضهم أو لأَهدِمنَّه أو لأموتن دونه. فلما خرج، خرج إليه حمزة بن عبد المطلب، فلما التقيا ضربه حمزة قاطعاً قدمه بنصف ساقه وهو دون الحوض فوقع على ظهره تَشخبُ رِجله دماً ثم حَبَا إلى الحوض[1] حتى اقتحم فيه يريد أن يَبرَّ بيمينه، وأتبعه حمزة فضربه حتى قتله في الحوض. ثم نادى منادي قريش:

---

(١) تشخب: تَقْطُر دماً. حبا: دنا، والحَبْو: الدُّنُوُّ.

«يا محمد أخرج إلينا أكفاءنا من قومنا»، فقال رسول الله ﷺ: «قم يا عبيدة بن الحرث، قم يا حمزة، قم يا علي..».

وصاح عتبة بن ربيعة: مَنْ أنتم؟

فأجابه حمزة: أنا حمزة أسد الله وأسد رسوله. وتبارزوا فقتل حمزة وصاحباه المشركين، ثم تزاحف الجمعان وثار النقع وحمزة كالسيل يهجم يميناً وشمالاً وينتقل من مكان إلى مكان، فيفتك بالمشركين فتكاً ذريعاً فتنهار الكتائب، ويَفزعُ صناديد قريش ويختلط حَابِلُهم بنابلهم[1]، ويُولُّون الأدبار، وقد ضُربت عليهم الذلة والمسكنة.

وأُسِرَ أميةُ بن خلف، أسره عبدالله بن مسعود، فبينما هما يسيران قال أمية:

ـ يا عبدالله مَن الرجل منكم المُعَلَّمُ بريشة نعامة في صدره؟

ـ ذاك حمزة بن عبد المطلب.

ـ ذاك الذي فعل بنا الأفاعيل.

عادت قريش بالخزي والعار ومناديهم ينادي: «لقد أَذلَّ حمزة بن عبد المطلب شرفكم ووضع من قَدْركم، وجعلكم الأذلةَ المُستعبدين في الأرض، مات بيديه صفوة رجالكم وأصحاب الصدارة في منتدياتكم، فيا لثاراتِ قريش ويا لأحقادها الكامنة».

وفي تلك الآونة كان حمزة بن عبد المطلب يعود إلى يثرب تحت لواء الرسول خاشعاً مُطرقاً.

* * *

٥ـ صرعة الأسد:

واستعد القرشيون للقتال في العام التالي. وقبل أن يسير المشركون إلى القتال دعا جبير بن مطعم غلاماً يقال له وحشي يقذف بحربة له قذفَ الحبشة، قلَّما يُخطىء، فقال له: «اخرج مع الناس فإن أنت قتلت حمزة عم محمد، بعمِّي مطعم بن عدي فأنت عتيق».

ثم خرجت قريش بحدِّها وحديدها وجَدِّها وأحابيشها[2] ومَنْ تابعها من بني كنانة وأهل

---

(١) أي اضطربت أمورهم.

(٢) أي خرجت بكل ما لديها من طاقات وإمكانات.

تهامة وخرجوا معهم بالنساء التماسَ الحفيظة[1]، وأن لا يفروا.

وخرج أبو سفيان ومعه امرأته هند بن عتبة، وكانت كلما مرت بوحشي أو مرّ بها تقول له: «وَيْهاً أبا دسمة اشْفِ واشتفِ»[2] يعني تُحرِّضُه على قتل حمزة ـ لأنهم عرفوا أنهم لن ينالوا منه منالاً إذا ما واجهوه في قتال ـ إذن فليقتلوه غِيلة.

ابتدأ القتال. وهجم حمزة بن عبد المطلب في مقدمة الصفوف حتى قتل أرطاة بن عبد شرحبيل بن هاشم، وكذلك قتل عثمان بن أبي طلحة حامل لواء قريش، ثم قتل سباع بن عبد العزى، ثم هجم على قريش يفرق صفوفها ويقتل رجالها.

يقول وحشي: والله إني لأنظرُ لحمزة يَهذُّ الناس سيفه هَذّاً، ثائرَ الرأس ما يلقى شيئاً يمر به، مثل الجمل الأورق إذ قد تقدمني إليه سباع وهو يقول: ألا من مبارز، فقال له حمزة: «هلم يا ابن مُقطِّعة البظور أتحادُّ الله ورسوله!!» ـ وكانت أم سباع خَتَّانة بمكة ـ، ثم ضربه ضربة هائلة قتلته، وكنت كامناً تحت صخرة لا يراني وهززتُ حربتي، حتى إذا رَضيتُ عنها دفعتها عليه فوقعت في ثِنْته، حتى خرجت من بين رجليه، فأقبل نحوي فغُلب فوقع وأمهلته حتى إذا مات، جئتُ فأخذت حربتي ثم تَنحَّيتُ إلى المعسكر، ولم يكن لي بشيء غيره حاجة، وكان ذلك آخر العهد به[3]

وأقبلت هند بنت عتبة على حمزة فبقرت كبده ولاكَتْها[4] فلم تستطع أن تستسيغها فلفظتها، ثم عَلَتْ على صخرة مشرفة فصرخت بأعلى صوتها وقالت:

نحن جزيناكم بيوم بدر ... والحرب بعد الحرب ذات سُعُرِ

ما كان عن عتبة لي من صبرِ ... ولا أخي وعَمِّه وبِكري

شفيتَ نفسي وقضيت نَذْري ... شفيتَ وحشيٌّ غليلَ صدري

فشكرُ وحشي عليَّ عُمري ... حتى تُرِمَّ أعظمي في قبري

---

(١) الحفيظة: الدفاع عن المحارم.

(٢) وَيْهاً: اسم فعل للتعجب، وأبا دسمة كنية وحشي.

(٣) يهذ: يقطع. الأورق: ما كان لونُه لونَ الرماد.

(٤) بقرت: شَقَّت. لاكَتْها: مضغتها.

ووقف أبو سفيان يضرب في شِدق حمزة بن عبد المطلب بزجِ الرمح[1] ويقول: «ذُقْ عَقق» فقال الحليس بن زبان سيد كنانة: «يا بني كنانة هذا سيد قريش يصنع بابن عمه ما ترون لحماً فقال أبو سفيان: «ويحك اكتمها عني فإنها كانت زلة».

مات حمزة بن عبد المطلب.

أَحمزةُ ذاكمُ الرجلُ القتيل. لقد حملت الملائكة إلى السماء أن حمزة سيد الشهداء.

* * *

ها هم أولاء المسلمون يرون هندَ بنت عتبة تأخذُ كبد حمزة وتلوكها، ويقول رسول الله ﷺ: أَأكلتْ شيئاً؟ قالوا: لا قال: ما كان الله لِيُدخلَ حمزةَ في النار.

* * *

ثم حُملَ إليه. ورأى رسول الله عمه ووزيره قد بُقر بطنه عن كبده ومُثِّلَ به، فَجُدعَ أنفهُ وأذناه. فقال: «لولا أن تحزن صفية وتكون سُنَّةً من بعدي لتركته حتى يكون في بطون السباع وحواصل الطير ـ ولئن أظهرني الله على قريش في موطن من المواطن لأُمثِّلنَّ بثلاثين رجلاً منهم، جاءني جبريل فأخبرني أن حمزة بن عبد المطلب مكتوب في أهل السماوات السبع، حمزة بن عبد المطلب أسد الله وأسد رسوله ـ ما وقفت موقفاً أغيظ إليَّ من هذا».

وفي تلك اللحظة أقبلت صفية بنت عبد المطلب لتنظر إليه، وكان أخاها لأبيها ولأمها؛ فقال رسول الله ﷺ لابنها الزبير بن العوام: «الْقَها فأَرجعها لا تَرى ما بأخيها». فقال لها: يا أمّه إن رسول الله ﷺ يأمرك أن ترجعي.

ـ ولِمَ؟! وقد بلغني أن قد مُثل بأخي، وذلك في الله، فما أرضانا بما كان من ذلك، لأَحتسبنَّ ولأصبرن إن شاء الله.

فلما جاء الزبير إلى رسول الله ﷺ فأخبره بذلك قال له: خَلِّ سبيلها.

صلى رسول الله ﷺ على حمزة، وجيء برجل من الأنصار فصلى عليه ثم رفع، وتُركَ حمزة حتى صُلِّي عليه يومئذ سبعين صلاة، ثم دفن مع ابن أخته عبدالله بن جحش.

ونزل الوحي على الرسول: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ

---

(١) ذات سعر: ذات اشتعال. زج الرمح: الحديدة التي في أسفله.

لِلصَّـٰبِرِينَ﴾ [النحل: ١٢٦]. فعفا رسول الله ﷺ وصبر ونهى عن المُثْلة[1]

* * *

هذا رسول الله ﷺ يدخل إلى بيته بالمدينة ونوائح الشهداء يَنُحْنَ ويَبكين على قتلاهن، أولئك الذين صبروا تحت اللواء، فقال:

ـ ما هذا؟

ـ هن نساء الأنصار يبكين قتلاهن.

ـ فقال: «لكن حمزةَ لا بواكيَ له».

واستغفر له. فسمع ذلك سعد بن معاذ، فمشى إلى دار بني عبد الأشهل وأتى بنسائهم فوقفوا على باب رسول الله ﷺ وقال: «والله لا تبكين قتلى الأنصار حتى تبكين عَمَّ النبي ﷺ، فإنه قد ذكر أنه لا بواكيَ له. وقفن يبكين:

بكت عيني وحُقَّ لها بُكاها ... وما يُغني البكاءُ ولا العويلُ

على أسد الإله غَداةَ قالوا ... أحمزةُ ذاكم الرجلُ القتيل

أُصيب المسلمون به جميعاً ... هناك وقد أصيب به الرسول

سمعهن رسول الله ﷺ فقال: ما هذا؟ فأُخبر بما فعلت الأنصار بنسائهم، فاستغفر لهم وقال: «رحم الله الأنصار إن المواساة منهم ما عَتمتْ لقديمةٌ»، ثم قال: «ما هذا أردتُ وما أُحبُّ البكاء» ونهى عنه.

هذا كعب بن مالك يبكي حمزة.

قِرمٌ تَمكَّن في ذؤابة هاشم ... حيث النبوة والندى والسُّؤْدد

والعاقر الكوم الجلاد إذا غدت ... ريحٌ يكاد الماء منها يَجمدُ

والتارك القرن الكمي مجدلاً ... يوم الكريهة والقنا يتقصد

وتراه يَرْفُل في الحديد كأنه ... ذو لبدة شثن البراثن أربد

---

(١) المُثْلة: التنكيل بالقتلى.

عَـــمُّ النبـــي محمـــد وصَفِيُّـــه وَردَ الحِمـــام فطـــاب ذاك المـــورد

وأتـــى المنيـــة معلمـــاً فـــي أســـرة نصـــروا النبـــي ومنهـــم المستشهـــد

وهذا حسان يبكي سيد الشهداء.

يـــا حمـــزة، لا واللـــه لا أنســـاك مـــا صُـــرّ اللقـــائـــح

لمنـــــاخ أيتـــــام وأضـ ـيـــاف وأرملـــة تـــلافـــح

ولمـــا ينـــوب الـــدهـــر فـــي حـــرب لحـــرب وهـــي لاقـــح

يـــا فـــارســـاً يـــا مِـــذرهـــاً يـا حمـزة قـد كنـتَ المصـافـح

***

مات حمزة، وانتهت صولة الأسد، تلك الأصوات التي كان يلقيها مملوءة بآيات التوحيد، فتفزع أمامه الجحاجح[1] وتنهار أمام عينيه حجب الزمان والمكان.

مات.. ووقف الرسول يبكيه أعظم البكاء..

***

مكتبة الرمحي أحمد

(١) الجحاجح: مفردها جحجح، وهو السيدُ المسارع إلى المكارم.

مصعب بن عمير

﴿ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ * سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴾ [الرعد: ٢٣ ـ ٢٤]

«لقد رأيتك بمكة وما بها أحد أرق حلة منك ولا أحسن لمَّةً منك ـ ثم أنت أشعث الرأس في بردة»

في بيت من بيوت سراة بني عبد الدار[1] ولد مصعب بن عمير لأبوين شريفين، أما أبوه فعمير بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار، كان في الذروة من قومه جاهًا ومالاً

أما أمه فخِناس بنت مالك، كانت مليئة كثيرة المال ترعى أولادها أحسن رعاية وتكسوهم أحسن ما يكون من الثياب وأرقه ـ وكان لمصعب عندها المكانة الممتازة فقد كان أعطرَ أهل مكة وأجملهم يفيض تِيهًا ودلالاً، يمر بين أحياء مكة فترمُقه عيون فتياتها، ويسترعى منظره ساكنيها، ويقبل مصعب على تلك الحياة الناعمة المترفة، فيأخذ منها بأكبر نصيب، ويرى في مفاتنها الغاية القصوى للحياة ـ ويُمَهِّدُ له شرفُ أبيه وثروة أمه ما يريد من متاع، فلا يُرَى إلا ضاحكًا مقبلاً على الدنيا كأشد ما يكون الإقبال عليها.

تمضي الليالي مسرعة فيما هي فيه من مفاتنَ على مصعب فلا يرى فيها ألماً ولا ضنكاً ولا نَصَباً ـ وتدور الأيام بمصعب فترى منه فتياتُ الحي إعراضًا وابتعادًا، وتلمح أمه على وجهه آثار تفكير عميق وجِدٍّ لم يُلمَّ به من قَبلُ، وعزمٍ صارم يبدو على مُحَيَّاهُ الجميل، وتحاول أمه بما وهبها اللّه من غريزة خاصة أن تصلَ إلى ما يدور في نفس فتاها فلا تتمكن ـ ومصعب يزيد في جد الحياة إمعانًا، وكأن أيامه السوالف حلم رهيب أو أشباح ماضية لم يعد بينه وبينها صلة من الصلات.

تَروعُ أمه هذه الحالة الجديدة فتتساءل وتتساءل وتُلحُّ في السؤال، ومصعب يزداد إمعاناً في السكون، لكن ما لبثت أمه زمناً طويلاً حتى جاءها عثمان بن طلحة النهدي يخبرها أن مصعباً أسلم؛ فلقد بَصُرَ به عثمان يصلي.

---

(١) سراة: أغنياء وأشراف.

أتى «دارَ الأرقم» البيتَ الخالد ساكنٌ جديد، هو مصعب بن عمير. دخل الفتى الفاتن العاطر إلى محمد رسول اللّه ليسمع كلامه، ويتأمل حقيقة الدعوة الجديدة تلك الحقيقة التي كانت كلها جدًا وقوة وصراحة. وكانت كلها دعوة إلى الانصراف عن حياة قريش الناعمة المترفة.

* * *

علم أهله إذاً بإسلامه فأخذوا يُذيقونه ألواناً من التضييق والعذاب ثم حبسوه. ولكن لم يُلْهِ هذا كُلُّه مصعباً عن دينه، آمنت النفس الكبيرة ـ وإيمانُ النفس تسامى على كل ما يقف في وجهها من عقبات فلا تَلقاها إلا صغائرَ وتوافه.

ولم يُثْنِ هذا كله مصعب بن عمير، لقد سمع وفكر وآمن وأسلم. لقد هاجر مصعب بن عمير هجرته الأولى عن متاع الحياة ومفاتنها إلى اللّه ورسوله، وكانت تلك الهجرة الأولى هي سر تفكيره العميق.

ودعا محمد ﷺ أصحابه إلى الهجرة إلى أرض النجاشي ـ وقد هاجر مصعب فيمن هاجر مفارقاً أهله وعشيرته غير واضع نصب عينيه إلا هذا المثل ـ مَثل المهاجرة في سبيل اللّه.

وكانت تلك هجرته الثانية.

وأصاب مصعباً هناك من جَدْب العيش ما أصابه، حتى رجع متغير الحال إلى مكة فيمن رجعوا إليها. وعاش مصعب في فقر مدقع حتى إنه لَيُقبِلُ ذات يوم والنبي ﷺ جالس في أصحابه وعليه ملابس ممزقة؟ فلما رآه أصحاب النبي ﷺ نكَّسوا رؤوسهم له، ليس عندهم ما يُغيِّرون عنه فسلم فَردَّ صلوات اللّه وسلامه عليه، وأحسن عليه الثناء، وقال: «الحمد للّه مُقَلِّبِ الدنيا بأهلها ـ لقد رأيت مصعباً وما بمكة فتى من قريش أنعم عند أبويه نعيماً منه ـ ثم أخرجه من ذلك الرغبة في الخير في حب اللّه ورسوله».

ولما انصرف أهل العقبة الأولى الإثنا عشر من أهل يثرب بعث رسول اللّه ﷺ معهم ـ المهاجر الدائم ـ مصعب بن عمير يُفقههم في القرآن الكريم؛ وكانت تلك هجرته الثالثة.

نزل «مصعب» على «أسعد بن زرارة» وكان يأتي الأنصار في دورهم وقبائلهم، فيدعوهم إلى الإسلام، ويقرأ عليهم القرآن، فَيُسْلِمُ الرجلُ والرجلان، حتى ظهر الإسلام وفشا في دور الأنصار كلها.

وعلى يديه أسلم سعد بن معاذ وأسيد بن حضير؛ ثم كتب إلى رسول اللّه صلوات اللّه وسلامه عليه يستأذنه أن يُجَمِّعَ بهم[1]، فأذن له فجمَّع بهم في دار سعد بن خيثمة، فهو أول من جمع في الإسلام جمعة.

واستدار العام وخرج حَاجُّ الأوس والخزرج إلى رسول اللّه، لكي يبايعوا بيعة العقبة الثانية وخرج معهم مصعب بن عمير ـ وقد رافق في رحلته أسعد بن زرارة فقدم مكة، فجاء منزلَ رسول اللّه ﷺ أولاً ولم يقرب منزله، فجعل يخبر رسول اللّه ﷺ عن الأنصار وسرعتهم إلى الإسلام، واستبقاه رسول اللّه صلوات اللّه وسلامه عليه وقد سُرَّ بكل ما أخبره ـ وبَلغ أُمَّهُ أنه قد قدم فأرسلت إليه: «يا عاق ـ أَتقدمُ بلداً أنا فيه ولا تبدأ بي» فأجاب: «ما كنتُ لأبدأ بأحدٍ قبل رسول اللّه ﷺ» فلما سلم على رسول اللّه صلوات اللّه وسلامه عليه ـ ذهب إلى أمه فقالت:

ـ إنك لعلى ما أنتَ عليه من الصَّبأةِ بَعدُ؟

ـ أنا على دين رسول اللّه ﷺ وهو الإسلام الذي رَضِيَهُ اللّه لنفسه ولرسوله.

ـ ما شكرتَ ما رثيتُكَ، مرة بأرض الحبشة ومرة بأرض يثرب.

ـ أَفرُّ بديني أن تفتنوني.

فأرادت أمه حبسه مرة أخرى فقال:

ـ لئن أنتِ حبستني لأَحْرِصَنَّ على قَتْلِ مَنْ يتعرضُ لي.

قالت ـ فاذهب لشأنك ـ وجعلت تبكي! فقال مصعب:

ـ يا أمه إني لكِ ناصح، عليك شفيقٌ، فاشهدي أنه لا إله إلا اللّه وأن محمداً عبده ورسوله.

ـ والثواقبِ لا أدخلُ في دينكَ فَيُزْرى برأيي، ويُضعَّفُ عقلي، ولكن أَدعكَ وما أنتَ عليه، وأقيمُ على ديني.

وأقام مصعب مع النبي ﷺ بمكة بقية ذي الحجة والمحرم وصفر، ثم هاجر إلى المدينة ثانية لهلال شهر ربيع الأول قبل مقدم رسول اللّه صلوات اللّه وسلامه عليه باثنتي عشرة ليلة.

وهاجر محمد ﷺ إلى المدينة، وأقام الدولة الأولى، وعاش مصعب بن عُمِير تلك السنين

---

(١) أي أن يصلي بهم جَماعة.

الأولى العجاف، التي مرت بالمسلمين راضياً، حتى دعا اللّهُ إلى الذَّبِّ عن الدين بالسيف ـ واشتعلت نار الحرب بين قريش والمسلمين في بدر، وكان مصعب من أبطالها الميامين.

وعادت قريش تحمل الخزي والعار إلى مكة، وفي القَلِيب أشرافها وأصحابُ الصدارة فيها مضرجين بالدماء، واشتعلت النار مرة أخرى في «أُحد» وانتصر المسلمون أوَّل النهار، لكن ما لبث أن نظر بعضهم إلى متاع الدنيا فَهُزموا، وكان مصعب يحمل لواء المسلمين فثبت به ثبوت الرواسي، فأقبل ابن قميئة (فارس من قريش) فضرب يده اليمنى فقطعها ومصعب يقول: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ [آل عمران: ١٤٤] وأخذ اللواء بيده اليسرى، وجَنَأ[1] عليه فضرب يده اليسرى فقطعها، فجنأ على اللواء وضمه بعضديه على صدره وهو يقول: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾، ثم حمل عليه الثالثةَ بالرمح فأنفذه واندق الرمح، ووقع مصعب وسقط اللواء، فابتدره رجلان من بني عبد الدار: سويبط بن سعد وأبو الروم بن عمير، فأخذه أبو الروم ووقف محمد رسول اللّه ﷺ على الشهداء يقرأ الآية: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣].

ثم حُملَ إليه مصعب بن عُمير، فنظر إليه وقد تذكر أيامه الماضيات في مكة فقال: «لقد رأيتك بمكة وما بها أحد أرقَّ حُلَّةً، ولا أحسن لِمَّةً منك، ثم أنت مشعث الرأس في بردة». ثم أمر به أن يُقبرَ فنزل إلى قبره أخوه أبو الروم بن عمير وعامر بن ربيعة وسويبط بن سعد بن حرملة.

وكانت تلك هجرته الأخيرة في الأربعين سنة، إلى اللّه ورسوله.

* * *

فُتحت البلدان على المسلمين وملكوا العالم بأجمعه، وفي حلقة من حلقات مسجد النبي صلوات اللّه عليه وقف خبَّاب بن الأرتِّ يقول: هاجرنا مع النبيّ ﷺ نلتمس وجه اللّه، فوجب أجرنا على اللّه، فمنا من مات لم يأكل من أجره شيئاً، منهم مصعب بن عمير، ومنهم من أينعت له ثمرته فهو يَعهدُ بها.

قتل يوم أحد فلم نجد ما نكفّنه فيه إلا بردة إذا غطّينا بها رأسه خرجت رجلاه، وإذا غطينا

---

(١) جنأ: أَكَبَّ عليه ليحميه.

رجليه خرج رأسه، فأمرنا النبي ﷺ أن نغطي رأسه وأن نجعل عليه من الإذخر.

* * *

وسكت القوم لقارىء يقرأ في جانبٍ من جدران المسجد.

﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ۞ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٣ ـ ٢٤].

* * *

الطلل الخابي[1]

«أيتها الدار الرفيعة المنار، كم علا في رحابكِ من أناشيد الوجود. وكم ذكر اسم الله. تلك الأصوات التي كانت ترتفع في جنباتك الواسعة أصبحت أثراً يتحدث به الناس. وأصحابك الغر طواهم الدهر الرهيب. إلا أنهم عاشوا وماتوا أكفاء لعباهلة الرجال»

الحياة تنساب في مكة انسياباً، ودورها مفتوحة عامرة، يخرج منها أهلها ويدخلون، واللهو فيها كما هو، بل زاد القرشيون إمعاناً في شهواتهم ولذائذهم. لقد خرجت منها الحفنة القليلة من أصحاب محمد ﷺ، فما أَحسَّ بهم إنسان. حقاً إن قريشاً لتفكر تفكيراً عميقاً في هؤلاء النفر من قريش الذين آمنوا برسالة محمد ﷺ فصغرت الدنيا جميعها في نفوسهم، فما أمرهم بالهجرة إلى الحبشة، البلد النائي البعيد، حتى هاجروا. فلما مَهَّدَ اللّه لهم السبيل إلى يثرب. أمرهم بالرحيل إليها فرحلوا. حقاً إن قريشاً لتفكر في هؤلاء الذين حاولت فِتنتهُم فما افتتنوا، وصبّت عليهم أنواع العذاب فما وهنوا. تفكير عميق ما يلبثُ أن يزول حين تُقبلُ الدنيا وشهواتها الغَرور. لكن ما زال يتردد في النفس قوياً.

سار مَشيخةُ قريش ـ عتبة بن ربيعة والعباس بن عبد المطلب وأبو جهل بن هشام ـ مُصعدين إلى أعلى مكة، فلمحوا دار بني جحش وقد أُغلقت ـ لقد أوعب أصحابها جميعاً إلى المدينة مع رسول اللّه ﷺ وهجرها رجالهم ونساؤهم. فلا ساكنَ فيها بَعْدُ ولا مقيم.

نظر إليها عتبة بن ربيعة وهي ساكنة وحيدة تسفعها الرياح وتصطدم بعَرَصاتها، وتخفق أبوابها يَباباً ـ فتنفس الصعداء ثم قال:

وكـلُّ دار وإنْ طـالـت سـلامتهـا يـومـاً ستـدركهـا النكبـاء والحـوب[2]

---

(١) الطلل: ما تبقى من آثار الديار. الخابي: الخامد الساكن. العباهلة: العظماء.

(٢) عَرَصاتها: ساحاتها. يباباً: خراباً. الحوب: التوجع.

ثم قال بعد هنيهة: أصبحت دار بني جحش خَلاءً من أهلها. فقال أبو جهل: وما تبكي عليه من فل[1] بن فل. هذا عملُ ابن أخي ـ فَرَّقَ جماعتنا وشَتَّتَ أمرنا وقطع بيننا.

* * *

يا رسالةَ الخُلدِ الأبدية. إنهم ما فهموا حقيقتكِ بَعدُ، ولو اطلعوا على جوهرها السامي لعلموا أنه بجانبكِ تتضاءلُ الدنيا جميعها، فلا أهل ولا ولدان، ولا مال، ولا متاع. وأنتِ أيتها الدار الرفيعةُ المنار كم علا في رحابك من أناشيد الوجود، وكم ذُكر اسم اللّه. تلك الأصوات التي كانت ترتفع في جنباتك الواسعة أصبحت أثراً يتحدث به الناس. وأصحابك الغُرّ طواهم الدهر الرهيب، إلا أنهم عاشوا وماتوا أكفاء لعباهلة الرجال[2]

* * *

وعَدَا أبو سفيان على دار بني جحش فباعها، فذكر عبد اللّه ذلك لرسول اللّه ﷺ فقال له: ألا ترضى يا عبد اللّه أن يعطيك اللّه بها داراً خيراً منها في الجنة قال: بلى. قال: فذلك لك.

* * *

إن المسلمين ليخرجون إلى يثرب أرسالاً وجماعات. ومن بينهم أحياءٌ ثلاثة هاجرت بأكملها: بنو مظعون وبنو البكير وبنو جحش.

وكان على رأس بني جحش. عبد اللّه بن جحش، سيد الحي، دعا رسول اللّه دعوته فآمن به قبل أن يدخل دار الأرقم، وأمرهم رسول اللّه بالهجرة إلى الحبشة، فهاجر هو وأخوه أبو أحمد وأخواتهما زينب بنت جحش وحمنة بنت جحش وأم حبيبة بنت جحش. ثم حين عادوا إلى مكة أمرهم الرسول ﷺ بالهجرة إلى يثرب فهاجر الحَيُّ بأكمله، من ذهب منهم إلى الحبشة ومن لم يذهب.

القافلة تسير مهاجرة إلى اللّه ورسوله، وأبو أحمد بن جحش ـ وكان شاعراً كفيف البصر ـ يردد هجرةَ بني جحش بن غنم بن دودان:

لمـــا رأتنـــي أم أحمـــد غـــاديـــاً بـــذمـــة مَـــنْ أخشـــى بغيـــبٍ وأرهـــبُ

---

(١) فل: واحد.

(٢) أكفاء: أشباه ونُظراء، جمع كفء.

تقــول فــإمــا كنــت لا بــد فــاعــلاً فَيمِّــمْ بنــا البلــدان وَلْتَنْــأَ يثــربُ[1]

فقلــتُ لهــا: بــل يثــرب اليــوم وجهنــا ومــا يَشَــأ الــرحمــنُ فــالعبــد يــركــب

إلــى اللّــه وجهــي والــرســول ومــن يُقِــمْ إلــى اللّــه يــومــاً وجهــه لا يُخيَّــبُ

* * *

ونزل عبد اللّه بن جحش وأخوه أبو أحمد، على عاصم بن ثابت أبي الأقلح، وتفرق بقية الحي بين بيوت الأنصار، يعيشون في رحابهم. حتى نادى منادي الجهاد. وأراد رسول اللّه أن يُخرج لقريش مَنْ يترصد لهم، فبعث رسول اللّه ﷺ إلى عبد اللّه بن جحش، وأمره أن يخرج مع ثمانية من أئمة المهاجرين ليس فيهم من الأنصار أحد. قال سعد بن أبي وقاص، قال النبي ﷺ: «لأبعثنَّ عليكم رجلاً أصبركم على الجوع والعطش» فبعث علينا عبد اللّه بن جحش، وكتب له كتابًا، وأمره أن لا ينظر فيه حتى يسير يومين، ثم ينظر فيه فيمضي لِمَا أمره به ولا يستكره من أصحابه أحداً. . .

سارت كتيبة المهاجرين وعلى رأسهم عبد اللّه بن جحش يومين ثم فتح الكتابُ وإذا فيه: «إذا نظرت في كتابي هذا فامضِ حتى تنزل نخلة بين مكة والطائف فترصَّدْ بها قريشاً، وتعلم لنا من أخبارهم».

فلما نظر عبد اللّه بن جحش في الكتاب قال: «سمعاً وطاعة. ثم التفت إلى أصحابه قائلاً: قد أمرني رسول اللّه ﷺ أن أمضي إلى نخلة أرصد بها قريشاً حتى آتيه منهم بخبرٍ، وقد نهاني أن أستكره أحداً منكم، فمن كان منكم يريد الشهادة ويرغب فيها فلينطلق، ومن كره ذلك فليرجع، فأما أنا فماضٍ لأمر رسول اللّه ﷺ».

فمضى ومضى معه أصحابه لم يختلف عنه منهم أحد ـ وسلك على الحجاز حتى إذا كان بمعدن فوق الفرع، أَضلَّ سعدُ بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان بعيراً لهما كانا يعتقبانه[2] فتخلفا عنه في طلبه، ومضى عبد اللّه وبقية أصحابه حتى نزل بنخلة، فمرت به عِيرُ لقريش تحمل تجارة لها، فيها عمرو بن الحضرمي وعثمان بن عبد اللّه بن المغيرة وأخوه نوفل.

---

(١) فيمِّم: تَوجَّه بنا، لِتنأَ: لِتَبْعُد، من النأي وهو البُعْدُ.

(٢) يعتقبانه: يتناوبان الركوب عليه.

رآهم القرشيون وقد نزلوا قريباً من القوم. فتشاور المسلمون ـ وذلك في آخر يوم من رجب ـ فقالوا: «واللّه لئن تركتم القوم هذه الليلة لَيدخُلُنَّ الحرمَ فليمتنعنَّ منكم به، ولئن قتلتموهم لَتقتلُنَّهم في الشهر الحرام». مكتبة الرمحي أحمد

تردد القوم قليلاً، ثم شجعوا أنفسهم عليهم، وأجمعوا على مهاجمتهم، وهجمت كتيبة اللّه على المشركين، فقتل عمرو بن الحضرمي بسهم وأسر عثمان بن عبد اللّه والحكم بن كيسان وهرب نوفل بن عبد اللّه.

* * *

فلما قَدِمَ عبد اللّه بن جحش بالأسيرين والعير على رسول اللّه ﷺ قال لهم:

«ما أمرتكم بقتالٍ في الشهر الحرام»[1]

وأبى أن يأخذ من الغنيمة شيئاً واتخذت قريش من هذه الغزوة دعاية قاسية ضد رسول اللّه قائلة: «قد استحلَّ محمد وأصحابه الشهر الحرام وسفكوا فيه الدماء وأخذوا فيه الأموال وأسروا فيه الرجال»، وزاد تعنيفُ المسلمين لعبد اللّه، وسُقِط في يده، ولكن ها هو الوحي ينزل من مالك الأرض والسماوات ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ﴾ [البقرة: ٢١٧].

اللّه أكبر. ذهب عن عبد اللّه وأصحابه ما كان بهم من خوفٍ ورَوْع، وقَسَّمَ رسولُ اللّه الغنائم بين المسلمين، وزاد في فرح المسلمين أن أحد الأسيرين ـ الحكم بن كيسان ـ أسلم للّه ورسوله.

وانطلق عبد اللّه يقول لقريش:

تعـدُّونَ قتـلاً فـي الحـرام عظيمـةً ... وأعظمُ منه لو يرى الرشدَ راشدُ

صـدودكُـم عمـا يقـول محمـد ... وكفـرٌ بـه واللّـه راءٍ وشـاهـدُ

وإخراجكم من مسجد اللّه أهلَهُ ... لئلا يُرى للّه في البيتِ ساجدُ

واشتبك المسلمون في بدر، وأبلى عبد اللّه مع بني غنم بن دودان أحسن بلاء.

* * *

---

(١) هي الأشهر التي يحرم فيها القتال وهي: ذو القعدة، ذو الحجة، المحرم، رجب.

المسلمون في ظاهر المدينة يستعدون لأُحُد. وهذا عبد اللّه بن جحش ينادي سعد بن أبي وقاص: «ألا تأتي ندعو اللّه».

وسار الصحابيان الجليلان إلى مكان خال، وهناك وقفا فدعا سعد: «اللهم إذا لَقيتُ العدو غداً فَلَقِّني رجلاً شديداً بأسُه، شديداً حَردهُ، فأقتله فيك وآخذ سلبه» فأمَّنَ عبد اللّه على ذلك. ثم وقف ودعا هو «اللّهم ارزقني غداً رجلاً شديداً بأسُه شديداً حرده، أقاتله فيك ويقاتلني، ويأخذني فيجدعُ أنفي وأذني، فإذا لقيتك وقلتَ: يا عبد اللّه فيم جُدعَ أنفك وأذنك! فأقول: «فيك وفي رسولك». فقال سعد: «صدقت».

واشتبك الفريقان في حرب طاحنة، وقد وفى عبد اللّه أحسن الوفاء، وفعل اللّه به ما دعا له. فقد اقتتل ـ بعد أن أبلى في القتل أحسن بلاء ـ مع أبي الحكم بن الأخنس بن شريق، فقتله هذا الأخير وكان عمره يومئذ نيفاً وأربعين سنة.

لقد مات المُجَدَّعُ في اللّه كما كانوا يدعونه، ومَرَّ به سعد بن أبي وقاص فتذكر الأمس القريب. فقال له: كانت دعوتك خيراً من دعوتي، لقد رأيتك آخر النهار وإنَّ أنفك وأذنك معلقتان في خيط.

ثم دفن هو وخاله حمزة بن عبد المطلب في قبر واحد.

* * *

انتصر المسلمون ودخلوا مكة، وتوجه أبو أحمد إلى رسول اللّه، يطالب بدراهم، فأبطأ عليه رسول اللّه ﷺ.

فقال المسلمون لأبي أحمد: يا أبا أحمد إن رسول اللّه ﷺ يكره أن ترجعوا في شيء من أموالكم أُصيب منكم. فأطاع أبو أحمد وأمسك عن كلام رسول اللّه، وقال لأبي سفيان:

أبلغ أبا سفيان عن ... أمر عواقبه ندامه

دار ابن عمك بعتها ... تقضي بها عنك الغرامة

وحليفكم باللّه رب ... الناس مجتهد القسامة

اذهب بها. اذهب بها ... طُوِّقْتَها طوقَ النعامة

* * *

وقف سعيد بن المسيب إمام التابعين في مسجد رسول اللّه، يَقُصُّ حياةَ عبد اللّه بن جحش. ثم قال: «فإني أرجو أن يَبرَّ اللّه آخر قسمه كما بَرَّ أوله».

لقد باع داره واستربح الثمن ـ داراً في الجنة ـ فنعم العقبى.

أصبحت الدار التي سُلبت منه ـ في اللّه ـ طللاً ماضياً، وهو الآن في دار البقاء. وتمتع الناس بلذائذ الحياة. لذائذ الأرض. أما هو ففي لذات السماء.

* * *

الأوفياء

«يا وقعة أُحد أنتِ مصدر الإنسانية الشامل، فيكِ سائر المعاني والمشاعر، فيك الوفاء وفيك الخيانة، فيك الصدق وفيك الكذب، فيك الثبات وفيك الفرار، فيك الإيمان وفيك النفاق، فيك الخير وفيك الشر، فيك كل شيء يا وقعة أحد، فأنت العبرة التي يستمد المسلمون منها كل شيء»

اقترب المشركون من المدينة بجيشهم الجرار، لسبعٍ خَلَونَ من شوال، وباتت وجوه الأوس والخزرج سعد بن معاذ وأسيد بن حضير وسعد بن عبادة في ليلة الجمعة، عليهم السلاح في المسجد خوفاً على رسول اللّه من المشركين، وحرست المدينة تلك الليلة من جميع وجوهها، وفي الصباح ظهر الرسول ﷺ على المنبر فحمد اللّه وأثنى عليه ثم قال: «أيها الناس إني رأيت في منامي رؤيا ـ رأيت كأني في درع حصينة ـ ورأيت كأن سيفي ذو الفقار انقصم من عند ظُبَتِه[1] ورأيتُ بقراً يُذبح، ورأيت كأني مُرْدِفٌ كبشاً».

فقال الناس: يا رسول اللّه فما أَوَّلتها؟

قال: «أما الدرع الحصينة فالمدينة فامكثوا فيها، وأما انقصام سيفي من عند ظبته فقتلُ رجلٍ من أهل بيتي، وأما البقر المذبح فقتلى من أصحابي، وأما مردف كبشاً، فكبشُ الكتيبةِ، نقتله إن شاء اللّه».

ورأى رسول اللّه ﷺ ألا يخرج من المدينة لهذه الرؤيا، ثم قال: «أشيروا عليّ أيها الناس» ورأى عبد اللّه بن أبيّ أن لا يخرج، ولكن قام حمزة وسعد بن عبادة والنعمان بن مالك بن ثعلبة وغيرهم من الأوس والخزرج قائلين: «إننا نخشى يا رسول اللّه أن يظن عدونا أنَّا كرهنا الخروج إليهم جُبْناً عن لقائهم، فيكون هذا جرأة منهم علينا، وقد كنتَ يوم بدر في ثلاث مائة رجل فظفرك اللّه عليهم، ونحن اليوم بشر كثير قد كنا نتمنى هذا اليوم وندعو اللّه به، فقد ساقه اللّه إلينا في ساحتنا». ورسول اللّه من إلحاحهم كارهٌ؛ وقد لبسوا السلاح يخطرون بسيوفهم ويتسامرون كأنهم

---

(١) ظُبة السيف: حَدُّه وسنانه.

الفحول، ووقف حمزة، وكان صائماً يوم الجمعة «والذي أنزل عليك الكتاب لا أطعمُ اليوم طعاماً حتى أجالدهم بسيفي»، وخرج حمزة يوم السبت صائماً ومات وهو صائم، ورفعته الملائكة إلى السماء صائماً عن الدنيا كلها.

ووقف النعمان بن مالك بن ثعلبة أخو بني سالم وقال: «يا رسول اللّه، أنا أشهدُ أن البقر المذبح قتلى من أصحابك وأني منهم، فَلِمَ تحرمنا الجنة؟ فوالذي لا إله إلا هو لأَدخُلَنَّها».

فقال رسول اللّه: بِمَ؟

ـ إني أحب اللّه ورسوله ولا أَفرُّ يوم الزحف.

ـ صدقتَ.

والتقى الجمعان، وارتفع اللواء، فلم يَهِن النعمانُ بن مالك ولم يَجزعْ بل كان أول الموفين بعهدهم فَرُزِقَ الشهادةَ التي أراد.

وقال إياس بن أوس بن عتيك: «يا رسول اللّه نحن بنو عبد الأشهل من البقر المذبح، نرجو يا رسول اللّه أن نُذْبحَ في القوم ويُذبحَ القومُ فينا، فنصير إلى الجنة ويصيرون إلى النار ـ مع أني يا رسول اللّه لا أحب أن ترجع قريش إلى قومها فيقولون: حصرنا محمداً في صياصي يثرب وآطامها، فتكون هذه أجرة لقريش، وقد وَطِئُوا سَعْفنا فإذا لم نَذُبَّ عن عِرضنا لم يزرع، وقد كنا يا رسول اللّه في جاهليتنا والعرب يأتوننا فلا يطمعون بهذا منا ـ حتى نخرج إليهم بأسيافنا فَنذبَّهم عنا ـ فنحن اليوم أحق ـ إذ أيدنا اللّه بك وعرفنا مصيرنا، لا نحصرُ أنفسنا في بيوتنا».

وارتفع اللواء. لواء رسول اللّه. وكان إياس بن أوس ـ المطمئنُّ إلى مصيرِ خالدٍ في جنات عدن ـ أول المذبوحين.

«مالك بن سنان» اجتمع عليه جَدْبُ الحياة وخلو المال، فلم ييأس ولم يهن ولم يمد يده إلى كائن من كان. وفرغ المال جميعه من يده، ولكنه لم يسأل ولم يلجأ إلى مخلوق ﴿يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾ [البقرة: ٢٧٣].

وتمر به أيام ثلاثة وهو لا يذوق طعاماً، يَعلمُ هذا رسولُ اللّه فيقول للمسلمين في المسجد «من أراد أن ينظر إلى العفيف فلينظر إلى مالك بن سنان».

وفي صباح يوم الجمعة الذي اجتمع فيه المسلمون لتقرير خروجهم أو عدم خروجهم وقف مالك فقال: «نحن واللّه بين إحدى الحُسنيين، إما أن يُظفرنا اللّه بهم فلا يبقى منهم إلا الشريد،

ـ والأخرى يا رسول اللّه يرزقنا الشهادة، واللّه يا رسول اللّه ما أبالي أيهما كان، إنَّ كُلاً لَفِيه الخيرُ».

وارتفع اللواء. لواء رسول اللّه. وفر كثير من المسلمين. ولكن مالكاً ثبت في وجه الكفار يقاتل قتال الأبطال، ثم أقبل نحو الرسول فرأى وجهه قد أُصيب، فاستقبله مالك ومسح الدم عن وجه الرسول الأعظم ثم ازدرده[1]، ووقف أمام المشركين يقاتل حتى مزقته الطعنات.

وقبل أن يُسَجَّى في قبره صاح الرسول في المسلمين: «من أحب أن ينظر إلى من خالط دمي دمه فلينظر إلى مالك بن سنان».

* * *

«السُّمَيْرا بنت قيس» إحدى نساء بني دينار، بايعت رسول اللّه ﷺ، فلما جاء يوم أحد أرسلت ابنيها النعمان بن عبد عمرو وسليم بن الحارث.

وخرجت السميرا، وذلك قبل أن ينزل الحجاب على نساء المسلمين إلى أُحُد، لتسأل عن نتيجة القتال، وكان ابناها قد استشهدا، فَنُعِيا لها فقالت: ما فعلَ رسولُ اللّه ﷺ قالوا: خيراً، هو بحمد اللّه صالحٌ على ما تُحبين.

ـ أروني أنظر إليه.

فأشاروا لها إليه، فقالت: كل مصيبة بعدك جَلل (أي بسيطة)، ثم حملت ابنيها على ناقتها ورجعت إلى المدينة فقابلت عائشة أم المؤمنين، فقالت: ما وراءك!؟

فقالت السميرا: «أما رسولُ اللّه بحمد اللّه فبخير لم يمت واتخذ اللّه من المؤمنين شهداء ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ﴾ [الأحزاب: ٢٥]، فقالت عائشة: «ومَنْ هؤلاء معك» قالت: ابناي.

وتلك صورة من صور نساء المسلمين الأوليات.

* * *

«الحارث بن أنس» من بني عبد الأشهل، وكم لبني عبد الأشهل، من أَيادٍ على الإسلام. خرج الحارث بن أنس ويكنى بأبي الحيسر إلى مكة التماس الحلف على الخزرج، ومعه فتية من

---

(١) ازدرده: بَلَعَهُ بسرعة. يسجى: يُغطَّى ويدفن.

بني عبد الأشهل خمسة عشر رجلاً فيهم إياس بن معاذ، وأظهروا أنهم يريدون العمرة فنزلوا على عتبة بن ربيعة فأكرمهم وطلبوا إليه وإلى قريش أن يُحالفوهم على قتال الخزرج، فقالت قريش: «بَعُدت داركم منا حتى يُجيبَ داعينا صريخكم، وحتى يجيب داعيكم صريخنا» وسمع بهم الرسول فأتاهم، فجلس إليهم فقال: «فهل لكم إلى خيرٍ مما جئتم له؟» قالوا: «وما ذاك»؟ قال: «أنا رسول اللّه بعثني اللّه إلى عباده أدعوهم إلى أن يعبدوا اللّه ولا يشركوا به شيئاً ـ وقد نزل عليَّ الكتاب» فقال إياس بن معاذ:

«يا قوم هذا واللّه خيرٌ مما جئتم له».

فأخذ أبو الحيسر وقد تَملَّكته حميةُ الجاهلية كفاً من البطحاء فرمى بها وجهه، ثم قال: ما أَشغلنا عن هذا يا قوم! ولم يقدم وفدٌ على قوم بِشَرٍّ مما قدمنا به على قومنا، إنا خرجنا نطلب حلفاً على عدونا فنرجع بعداوة قريش مع عداوة الخزرج.

ثم لم ينشب إياس حين رجع أن مات ـ فلقد سمعناه يهلل حتى مات ـ فكانوا يتحدثون أنه مات مسلماً، لما سمع من رسول اللّه.

وتستدير الأعوام ويؤمن أبو الحيسر باللّه ورسوله ـ ويخرج إلى بدر فيقاتل أحسن القتال، وفي أُحد لم يَفرَّ ولم يهرب. بل وقف كالطود الثابت حتى قتل ـ وكان موطنه السرمدي جنات لا تزول.

* * *

١ـ تحت اللواء

ال نسيبة بنت كعب

«نامت نسيبة بنت كعب في جنة البقيع مع الصديقين والشهداء،
وارتفع مقامها العلوي في الأرض إلى مقام أعلى في السماء. .»

مكتبة الرمحي أحمد

انتشرت دعوة اللّه في يثرب، وسارع هذا الحي منها «بنو النجار» إلى الإيمان بها، وكان في مقدمتهم زيد بن عاصم وزوجته نسيبة بنت كعب «أم عمارة» وولداها عبد اللّه وحبيب. أضاء الإسلام جوانب هذا البيت العظيم واختلط بدماء أهله؛ فكانوا أول المؤمنين به، وأول الداعين له، واستدار العام وخرج المسلمون إلى الكعبة للحج وخرجت معهم نسيبة وزوجها وولداها.

كانوا جميعًا يتحرقون شوقًا لرؤية مصدر النور الإلهي الذي نعموا به وسينعمون، وستنعم به الدنيا من بعدهم. والإبل ترتفع وتنخفض في دروب الطرق، حتى أقبلوا على مكة.

* * *

مضى ثلث الليل، ونامت مكة، ولكن أطيافًا تمر في هذا الظلام المُدلَهِّم مُسْرِعةَ الخُطى نحو العقبة مُستخفيةً ما استطاعت.

وهناك في الشِّعْب وقف الأنصار في مهابة وجلال ينتظرون مقدم النبي الأعظم. لِيُشْهدوا إله السماوات والأرض على عُهودِهم ومواثيقهم.

وأقبل رسول اللّه ﷺ ومعه عمه العباس.

شهدت الدنيا في هذه الليلة أعظم صفحات الطهر والوفاء، لقد عاهد الأنصار رسول اللّه أن يمنعوه مما يمنعون منه نساءهم وأبناءهم.

وبايعوا لم يتخلف منهم إنسان، وتحت ظلال سيوفهم المسلولة بايعت أم عمارة «نسيبة بنت كعب» رسولَ اللّه ﷺ.

ورجعت نسيبة مع قومها إلى يثرب تبعث في نفوس أبنائها روح التضحية والإقدام وتُحبّب إلى نفوسهم غاية المسلم الحقة: القتال والاستشهاد.

وهاجر رسول اللّه إلى يثرب، ثم دعا إلى الجهاد، فخرج عبد اللّه إلى بدر، يقاتل تحت اللواء. لواء التوحيد الحق، الذي أراد الكفرة والمشركون أن يُنزلوه من عليائه فما استطاعوا، لقد دافع عنه المسلمون وكانت الدائرة على الكفرة والمجرمين.

وعاد عبد اللّه إلى أمه قرير العين راضيًا ببلائه في سبيل اللّه.

أما حبيب فلم يكن قد بلغ الحُلُم بعد، ولكن هذه الروح الصادقة التي تنبعث من نسيبة أمه تبعث في نفسه أناشيد النصر، أناشيد القوة، الأناشيد التي تفجرت من ينبوع هذا الدين فكانت له السيادة على العالمين.

ومات زيد بن عاصم فخطبها غُزية بن عمرو وتزوجها، حتى إذا كان يوم أحد خرجت نسيبة لتسقي الجرحى؛ ولم تكن آيات الحجاب قد نزلت بعد، وخرج معها زوجها وابنها.

الريحُ والدولة للمسلمين؛ ولكن أقوامًا منهم ـ وبين يدي الرسول ـ ينظرون إلى متاع الدنيا الفاني، فيحاولون الاغتراف منه فيقبل عليهم عدوهم من كل جانب فينقلب النصر خذلانًا ويفر الأبطال الأشاوس منهزمين لا يُرْجعهم شيء، والمشركون يحيطون برسول اللّه من كل جانب وكلهم عدو مَوتورٌ منه، فلو اجتمعت عداوة الدنيا ما بلغت عداوة هؤلاء، وفي يد كل منهم سلاح ماحق وعتاد هائل، وهم فوق هذا وذاك عدو منتصر، وعدو لَجِبٌ من الخَلْق[1]

في تلك اللحظات. اللحظات التي لا تُنسى في تاريخ الخلائق «ارتفع اللواء» لواء رسول اللّه يطلب من أولئك الذين آمنوا حَقَّ ما سَعِدوا به من إيمان.

إنها حقيقة أبدية إن حفظوها اليوم كانوا بعد اليوم من عناصر تلك الحقيقة، فلا تُعرف إلا وهم من أجزائها، انطوت جوانحهم عليها، فرعايتها اليوم حق الرعاية هي أبسط ما يتطلب جوهرها السامي منهم، ولكن أين أين؟ أين كل هذا في هذه اللحظة العنيفة، لقد اندفعوا لا يَلْوون على شيء.

ارتفع اللواء، لواء رسول اللّه، يُذكِّرُ الذين عاهدوا عهودهم، الذين ارتبطوا بمواثيق اللّه مواثيقهم.

ولكن ما العهود وما المواثيق والموت يَقُطُّ الرقاب قطًا؟ لقد مات حمزة بن

---

(١) الأشاوس: جمع أشوس وهو الرافعُ رأسه تكبُّراً. والموتور مَنْ قُتل له قتيل فلم يدرك بدمه.

عبد المطلب. لقد مات مصعب بن عمير لقد مات عبد الله بن جحش، ماتت الصفوة المختارة من صحابة الرسول، فما للباقين إلا النجاة.

ارتفع اللواء، لواء رسول الله، ولكن هل للحقيقة الإلهية أن تنتهي وتفنى؟ هل لدعوة الله أن تتحطم وتتلاشى؟ أبدًا أبدًا.

لقد ثبت حول اللواء حفنة قليلة مؤمنة لا تزيد على عشرة، وسط هذا الجحفل المشرك الكافر.

آمنوا وكان إيمانهم يَزِنُ إيمانَ الأمة جميعها إذ ادْلَهَمَّ عليهم الخَطْبُ وأحاطهم المشركون من كل جانب.

ارتفعت صيحاتهم بكلمة التوحيد، والله يسمعها؛ والملائكة كانوا الأوفياء، الذين حفظوا دعوة الله يوم أن كادت تؤذن بالزوال، وتساقطوا واحدًا بعد واحد ولكنهم كانوا كلما سقط واحد منهم ازدادوا مثابرة وصبرًا ويقينًا.

ومن بين هؤلاء كانت نسيبة بنت كعب، وكان ابنها عبد الله، وكان زوجها غزية.

* * *

ألقت «أم عمارة» نسيبة بنت كعب سقاءها، حين هزم المسلمون، واستلَّتْ سيفًا تقاتل دون رسول الله وأخذت تتلقى النَّبلَ دونه.

يقول رسول الله ﷺ: «ما التفتُ يمينًا ولا شمالاً إلا وأنا أراها تقاتل دوني».

ثبت معها ابنها عبد الله وزوجها غزية في نفر ما يُتِمُّون عشرة، والناس يمرون منهزمين ـ ورآها رسول الله لا تُرْسَ لها فلمح رجلاً موليًا معه ترس فقال له: «ألق ترسك إلى من يقاتل» فألقى ترسه فأخذته أم عمارة تُتَرِّسُ به رسولَ الله.

وأقبل فارس من فرسان قريش فضربها فتترست له فلم يصنع سيفه شيئًا وولى، فهجمت عليه أم عمارة وضربت عرقوب فرسه، فوقع على ظهره فجعل النبي ﷺ يصيح: «يا ابن أم عمارة أمك أمك» فعاونها ابنها حتى قتلته.

يقول عبد الله بن زيد: جُرحت يومئذ جرحًا في عضدي اليسرى، ضربني رجل كأنه الرَّقْل ولم يُعرِّجْ عليَّ، ومضى عني وجعل الدم لا يرقأ ـ فقال رسول الله: اعصب جرحك، فتقبل أمي إليَّ ومعها عصائب في حِقْويها قد أعدتها للجراح فربطت جرحي، والنبي واقف ينظر إليَّ، ثم

قالت: «انهض بنا نُضارب القوم» فجعل النبي ﷺ يقول: «ومَنْ يطيق ما تطيقين يا أم عمارة»[1]

لكِ اللّهُ أيتها السيدة الطاهرة! لم تكن الحياة لديك نعيمًا يقبل عليه الإنسان أو راحة يستعذبها المترفون، وإنما كانت دفاعًا عن دين خالد وعقيدة علوية، فحين كان الموت يتمشى خلال الصفوف، وكانت الدماء تسيل أنهارًا، وأنتِ وابنكِ وزوجك وسط مَعْمعان الموت لم يأخذك الوهن أو الضعف أو الخوف على نفسك وولدك وزوجك، بل كان كل هذا ضئيلاً حقيرًا، بجانب الدفاع عن دين اللّه ورسوله، لك العقبى وخير الأخرى!

* * *

وأقبل الرجلُ الذي ضرب عبد اللّه، فقال رسول اللّه: «هذا ضاربُ ابنكِ» فاعترضت له وضربت ساقه فبرك، فتبسم الرسول حتى رأت نواجذه وقال: استقدتِ يا أم عمارة؛ ثم أقبلت تَعلُوهُ بالسلاح حتى أتت على نفسه، فقال النبي: الحمد للّه الذي أظفرك وأقرَّ عينكِ من عدوك وأراكِ ثأرك بعينك.

وأقبل عبد اللّه مرة أخرى إلى جانب الرسول فقال: أين ابنُ أم عمارة! فقال: نعم!؟ قال: ارم ـ قال: «فرميتُ بين يديه رجلاً من المشركين بحجر، وهو على فرس فأصبتُ عينَ الفرس حتى هوى هو وصاحبه، وجعلتُ أعلوه بالحجارة حتى نضدت عليه منها وقرًا»[2]

* * *

هجم المشركون الهجوم الأخير على رسول اللّه، لكي يستأصلوا شأفة المسلمين ويقتلوه عليه الصلاة والسلام، فصبر الثابتون تحت اللواء، وأقبل ابن قميئة يقول: دلوني على محمد لا نجوتُ إن نجا، فاعترضت له نسيبة مع مصعب بن عمير، فقتل المشرك مصعبًا، فوقفت في وجهه نسيبة فضربها ضربة هائلة أصابها في عنقها إصابة شديدة، لكنها ما وَهَنتْ بل ضربته ضربات ولكن عدو اللّه كانت له درعان.

يقول ضمرة بن سعيد المازني يُحدِّثُ عن جدته: إن النبي ﷺ كان يرى نسيبة بنت كعب يومئذ تقاتل أشد القتال وإنها لحاجزةٌ ثوبها على وسطها حتى جرحت ثلاثة عشر جرحًا، ثم يقول:

---

(١) الرَّقْل: النخل الطوال، الواحدة رقلة. لا يرقأ: لا ينقطع ولا يجف. حقويها: مفرد الحقو وهو موضع شد الإزار، وهو الخاصرة.

(٢) نضدت عليه وقراً: تراكمت الحجارة فأصبحت ثقيلة.

وإني لأنظر إلى ابن قميئة وهو يضربها على عاتقها، وهو أعظم جراحها. ونظر رسول اللّه ﷺ إلى جرح نسيبة على عاتقها، فنادى ابنها عبد اللّه «أمك أمك ـ اَعْصُبْ جرحها. بارك اللّه عليكم من أهلِ بيتٍ، مقامُ أمك خير من مقام فلان وفلان، رحمكم اللّه أهلَ البيت».

وسمعت نسيبة صوت الرسول ينادي بهذا، والدم ينفجر منها انفجارًا، فصاحت:

ـ أدعُ اللّه أن نرافقك في الجنة.

فأجابها الرسول صلوات اللّه وسلامه عليه: «اللهم اجعلهم رفقائي في الجنة» فهتفت حينئذ:

ـ ما أُبالي ما أصابني من الدنيا.

وانهارت حُجُبُ الزمان والمكان أمام عينيها، ولم يعد أمامها إلا رسول اللّه ﷺ، حقيقة سامية نزلت من إله السماوات تمثلت فيه، فيجب حفظها ما استطاع الإنسانُ إلى ذلك سبيلاً، ولقد وَفَّت نسيبة بنت كعب تحت اللواء، كما وفى ابنها وزوجها ما وفى غيرهم من الثابتين، حتى كانت المعجزة الكبرى. إنقاذ الرسول.

* * *

في المدينة أقيمت الأحزان في كل مكان، لقد قتل الصفوة الأخيار من أصحاب رسول اللّه، ولكن نسيبة لم تجزع ولم تهن بل كانت صابرة على جرحها، ولقد نادى منادي رسول اللّه إلى حمراء الأسد لتتبُّع المشركين فنفر المسلمون جميعًا إليه، وأرادت أم عمارة نسيبة أن تخرج أيضًا فشدت عليها ثيابها، فما استطاعت من نزف الدم، فمكث بعض نساء المسلمين حولها يكمدن الجراح حتى الصباح، فلما رجع رسول اللّه من الحمراء، لم يصل إلى بيته حتى أرسل إليها عبد اللّه بن كعب المازني يسأل عنها، فرجع إليه يخبره بسلامتها ففرح بذلك.

* * *

آيات الحجاب تنزل على رسول اللّه، فتتقبلها المسلمات راضيات قانعات، ويصبح جهادهن ضم الذيول وقرار البيوت.

وهذه أم عمارة نسيبة بنت كعب تشعل في نفس ولديها آيات الجهاد، فيشهدان المشاهدَ كلها مع رسول اللّه ﷺ، وحبيب ابنها الصغير ينشأ في طاعة هذا الدين الأقدس، ونسيبة ـ كما قلنا ـ راضية بجهادها في بيتها، وجهاد ولديها في ميادين القتال.

ودعا رسول اللّه إلى الحج فخرجت نسيبة، غير أن قريشًا منعت المسلمين من دخول الكعبة، وكادت الحرب يشتعل أُوارها.

وتحت الشجرة بايع المسلمون رسول اللّه ﷺ على الموت «بيعة الرضوان» وشهدتها نسيبة بنت كعب، فما وهنت وما جزعت.

ولقد صاحب أبناؤها رسول اللّه في كل غزواته، حتى قضى.

* * *

اكتمل حبيب ابنها حياة وقوة وجمالاً وجهادًا، وبعثه المسلمون إلى مسيلمة الكذاب الحنفي صاحب اليمامة برسالة منهم، فلم يَرْعَ مسيلمةُ حُرمة الرسل؛ بل قبض عليه وأوثقه وجعل يقول له: «أفتشهد أني رسول اللّه» فيقول «لا أسمع» وجعل يقطعه عضوًا عضوًا حتى مات في يده. لا يزيده على ذلك.

إذا ذكر له رسول اللّه ﷺ آمن به وصلى، وإذ ذكر له مسيلمة قال: لا أسمع.

وعلمت أم عمارة نسيبة بنت كعب باستشهاد ولدها على يدي مسيلمة.

قتل حبيب عضوًا عضوًا وهو صابر على قضاء اللّه، لا يذكر سوى الصلاة على رسول اللّه، ألم يتعلم في مدرستها ومن حياتها أن الجهاد غاية المسلمين ونهايته، وأن الشهادة أمنيته ومطلبه، لقد بعثت الإيمان في نفسه، فَمَلَكَ عليه كل شيء، فما أحسَّ بألم أو عذاب، كانت روحه فوق الدنيا هائمة محلقة فوق عالم الآلام والأوصاب.

علمت أم عمارة بكل هذا، ولكنْ ألم تكن رضيت حياة المجاهدين ورضيت لأولادها هذه الحياة؟ وصحابةُ رسول اللّه يمرون ببيت أم عمارة فيحسون أن في جوفه قلبًا يحترق وأنها ـ صابرة كما كانت، وقد نذرت للّه أن تشهد مقتل مسيلمة وتشارك فيه.

وسار جيش خليفة رسول اللّه إلى بني حنيفة، ليقضي على دعوة مسيلمة الكذاب، وخرج فيه عبد اللّه بن زيد، ومعه أمه أم عمارة مُحجَّبة في هَوْدجها.

لقد نذرت للّه أن ترى مقتل مسيلمة، وتركها المسلمون لتخرج مع الجيش لتفي بنذرها. وكانت تبلغ من العمر أكثر من ستين عامًا، فكانت سنها الكبيرة وسابق جهادها، وقتل ابنها على يد مسيلمة الكذاب، كل هذا كان شفيعًا لها في الخروج مع الجيش وعدم منع الصحابة لها من اصطحاب المجاهدين.

وقامت الحرب بين المسلمين والمشركين وانهزم المسلمون وفروا لا يلوون من كل جانب، ولكن قائدهم العظيم خالد بن الوليد ما لبث أن صاح فيهم «وامحمداه».

وارتفع اللواء. لواء رسول اللّه مرة أخرى، فأقبل الصحابة الخُلَّصُ المهاجرون والأنصار.

وهنا استلت «أم عمارة» المجاهدة القديمة التي بلغت هذا العمر الطويل، استلت سيفًا وهجمت مع كوكبة من الأنصار فيها ابنها، لقد ارتفع اللواء أمامها فذكَّرها بجهادها القديم، وانقضَّت هذه الكوكبة من الأنصار على أعداء اللّه، وأصاب أم عمارة اثنا عشر جرحًا، فلم تبال.

أيها اللواء لقد ارتفعتَ أمامي مرة أخرى، فلا حياة إلا تحت ظلك، ولا سعادة إلا في النضال تحت مبادئك، وقُطعت ذراعها، فلم تأبه بشيء حتى وصلت الكوكبة إلى مسيلمة الكذاب فانقض المسلمون عليه، وفي مقدمتهم عبد اللّه ابنها يقتله بسيفه يثأر لدينه ولأخيه.

وعادت أم عمارة بذراع واحدة وآلام هائلة لا يتصورها بشر، غير أنها وفت نذرها، وثأرت لابنها، وحُملت إلى بيتها، وعلم خليفة رسول اللّه بإصابتها فذهب إليها وعادها.

* * *

ومرت الأعوام، وأم عمارة في خِدْرها، تتذكر تلك الأعوام الماضيات، والصحابة يعرفون لها مقامها، هذا المقام الذي رفعها إليه رسول اللّه.

وأخيرًا عادت النفس الراضية المطمئنة إلى ربها، فنامت أم عمارة في جنة البقيع، مع الصديقين والشهداء، وارتفع مقامها العلوي في الأرض إلى مقام أعلى في دار البقاء، ولقد حاربت في الأرض، وثابرت تحت لواء الحق لتفوز بالبعث تحت اللواء.

* * *

وبقي عبد اللّه بن زيد يجاهد في جميع المواقع، ويطلب الشهادة.

ثم مرت على المسلمين السُّنون العِجاف واغتصب الخلافة بنو أمية، ثم ولي يزيد بن معاوية الخلافة ظلمًا واقتدارًا، فلم يقبل صحابة رسول اللّه بيعة فاجر، ورفضوا طاعته، فبعث إليهم يزيد بمنافق فاجر «مسلم بن عقبة» وأمره أن يقضي على صحابة رسول اللّه يقتل رجالهم ويستبيح ديارهم.

واجتمع صحابة رسول اللّه على رأس جيش من أهل المدينة وفي مقدمتهم عبد اللّه بن زيد،

والتحم الجيشان، وشاء اللّه أن ينتصر مسلم، وجالت خيول بني أمية تقتل وتنهب وتعتدي على حرمات النساء، وهنا طلب قوم من أهل المدينة من عبد اللّه أن يُعلِنهم بمكانتهِ من رسول اللّه فقال:

ـ واللّه لا أقبل لهم أمانًا، ولا أبرح حتى أقتل، لا أفلح من ندم.

وأقبل عليه رجل من أهل الشام وهو يقول:

ـ واللّه لا أبرح حتى أقتلك.

فقال له عبد اللّه ـ شَرٌّ لكَ خيرٌ لي ـ وضربه بفأس في يده. ورأى المسلمون، وهو يسقط ميتًا، نورًا ساطعًا في السماء وكان عبد اللّه صائمًا ذلك اليوم.

ومر مسلم بن عقبة بين الجرحى فأجهز عليهم. وبين القتلى فقال ساخرًا «ما أرى هؤلاء إلا من أهل الجنة» حتى إذا ما وصل إلى عبد اللّه، أمر به فَحُزَّ رأسه.

في جوار اللّه اجتمع آل نسيبة بنت كعب بعد فراق طويل، وغدًا في جنة اللّه سيجتمعون مع رسول اللّه. فطاب المقام وطاب الصاحب.

* * *

٢ ـ تحت اللواء

أشراف بني سلمة

«لقد بنوا دين اللّه على أكتافهم ومضوا قبل أن تقبل الدنيا على الإسلام. فأَجْرُهم وقع عليك وحدك. يا من خلقتَ الأرض والسماء. لقد وعدتهم فأسرعوا إلى عهدك. ومن أوفى بالعهد منك»

مرّت الأيام على عمرو بن الجموح بطيئة ثقيلة. لقد كان شريف بني سَلَمة ينتظر عودة حجيج يثرب، وقد قصدوا مكة لزيارة بيت قريش وحضور موسمها، وكان من بين هؤلاء الحجيج ولده معاذ وصديقه وصَفِيُّه عبد اللّه بن عمرو بن حرام. وعاد الركب أخيرًا إلى يثرب. ولكم سُرّ عمرو بن الجموح بعودة ولده وصديقه، وأسرع إليهما ليقابلهما؛ ولكن ما لِابنهِ وصديقه يَنْأَيانِ عنه ويبتعدان. وما هذا الازورارُ في وجهيهما كلما أقبل نحوهما. وما لشبابِ الحي. شبابِ بني سلمة جميعًا يمرون به فلا يحادثونه ولا يحيونه. إنه في الذورة بين رجالهم، وفي الأوج بين ساداتهم. طالما فكَّر هو وعبد اللّه بن عمرو بن حرام صديقه فيما آمن به قومه من دين جديد، نزل على شريفِ بني عبد مناف وسيدها محمد بن عبد اللّه ـ طالما فكَّرا فيما فيه من حقّ وقدسية، ولكن عبادة آبائهما وأجدادهما كانت تبعدهما عن الضياء الذي أتى.

غير أن هذا الدين لم يمنع من قبلُ ولدَه معاذًا من زيارته والحدب عليه[1]، ولم يمنع فتيان بني سلمة من تحيته والإقبال عليه. وما لعبد اللّه بن عمرو بن حرام لا يقبلُ عليه، وهو فيما يظن على دين الأوثان.

لم يكن عمرو بن الجموح علم بعدُ أن المسلِمين من بني سلمة ـ وعلى رأسهم كعب بن مالك قد دعوا عبد اللّه بن عمرو بن حرام إلى دين اللّه، وأن يلتمس من نور النبوة ما يضيء جوانب نفسه.

---

(١) الحدب عليه: العطف عليه.

قالوا له: يا أبا جابر إنك سيد من ساداتنا وشريف من أشرافنا وإنا نرغب عما أنت فيه أن تكون حطبًا للنار. إنا ندعوك إلى الإسلام فأسلم.

كانت النفس متفتحة للحقيقة الإلهية السامية فأسلمت.

لم يكن عمرو بن الجموح يعلم كل هذا، ولم يكن يعلم أن اليثربيين جميعًا قد بايعوا البيعة الكبرى، وأن البراء بن معرور سيد بني سلمة كلها، كان أول من ضرب يده على يد الرسول مبايعًا، وأنه أول من أجاب الرسول حين قال لهم:

ـ أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم.

فأجاب البراء: نعم، والذي بعثك بالحق لَنمنعنَّكَ مما نمنعُ منه أُزرنا[1]، فبايِعْنا يا رسولَ اللّه فنحنُ أهل الحلقة وأهل الحروب ورثناها كابرًا عن كابر.

بايع عبد اللّه بن عمرو بن حرام، وكان نقيب قومه، وبايع معاذ بن عمرو بن الجموح، وبايع غيره من المسلِمين.

وأتوا جميعًا وفي قلوبهم من الإيمان ما يزلزل الدنيا وما فيها، ومن كراهية لعبَّاد الأوثان ما جعل الواحد منهم يعادي أباه وأهله وينكر عشيرته وخلانه.

عرف عمرو بن الجموح كل هذا آخر الأمر. فعاد إلى بيته يلتمس الهدوء في عبادة مناة الصنم الذي أقامه في بناء البيت ـ على عادة أشراف العرب ـ ويستمد منه القُربى والزلفى، ودار حواليه في بطء يُحَدِّقُ فيه بقسوة شديدة.

وأقبل الليل فمضى عمرو إلى فراشه. وأدلج فتيان بني سلمة ـ معاذ بن جبل، ومعاذ بن عمرو بن الجموح وآخرون معهما، وحملوا الصنم مناة ثم طرحوه في بعض الحفر التي يقضي فيها أهل الحي حاجاتهم، ثم مضوا.

وفي الصباح مضى عمرو إلى «منَاة» فلم يجده فصاح: «ويلكم مَنْ عَدَا على آلهتنا هذه الليلة»؟ ثم قام يتلَمسه فوجده في حفرة قذرة مُنكَّسًا على رأسه، فحمله وغسله وطهره وطيبه، ثم وقف في الحي يقول مخاطبًا الصنم: «أما واللّه لو أعلم من فعل هذا بك لأُخْزِينَّه».

وفي اليوم التالي عدوا عليه إذ أمسى فيفعلون به مثل ذلك، فيغدو فيجده في مثل ما كان فيه

---

(١) أزرنا: جمع إزار، وهو كل ما سترك، والمراد ما نمنع منه عفافنا.

فيغسله ويطهره ويطيبه.

وتكرر الأمر، ويترصد عمرو بن الجموح لهم. ولكن النوم يغلبه كل ليلة فيعاود الفتيان عملهم. فلما أكثروا عليه استخرجه من حيث ألقوه يومًا، فغسله وطيبه وطهره، ثم جاء بسيفه فعلقه عليه، ثم قال له:

ـ إني واللّه ما أعلم مَنْ يصنع بك ما ترى، فإن كان فيك خير فامتنع، فهذا السيف معك!

استيقظ ضمير الرجل أخيرًا. وأدرك أن هذا الصنم لا يستطيع لنفسه نفعًا ولا ضرًا ولا يمكنه أن يرد عن نفسه عادية الناس.

ـ أُفٍّ له. إنْ لم يمنع نفسه الليلة!

نام عمرو، فغدا فتيان بني سلمة على الصنم، فأخذوا السيف من عنقه ثم أتوا بكلب ميت، فقرنوه به بحبل، ثم ألقوه في بئر من آبار بني سلمة، فيها عِذرٌ من عذر الناس، وغدا عمرو فلم يجده في مكانه الذي كان به، فخرج يتبعه حتى وجده في تلك البئر، منكسًا مقرونًا بكلب ميت، فوقف أمامه محتقرًا. وفي تلك اللحظة أقبل عليه من أسلم من قومه ودعوه إلى دين اللّه، فأجاب متوجهًا نحو الصنم:

واللّـــه لـــو كنـــت إلهًـــا لـــم تكـــن ... أنـــت وكلـــب وســـط بئـــر فـــي قَـــرَن

أُفٍّ لملقـــــاك إلهًـــــا مستـــــدن ... الآن فتشنـــاك عـــن ســـوء الغبـــن

الحمـــد للّـــهِ العلـــيّ ذي المِنَـــنْ ... الـــواهـــبِ الـــرزَّاق دَيَّـــان الـــدِّيَـــنْ

هـــو الـــذي أنقـــذنـــي مـــن قبـــل أن ... أكـــون فـــي ظلمـــةِ قبـــرٍ مُـــرْتَهـــن

بـــأحمـــد الهـــادي النبـــيّ المـــرتهـــن

وأسلم أولاد عمرو بن الجموح جميعًا، وعاد عبد اللّه بن عمرو بن حرام إلى صديقه يتآخيان في اللّه وفي ظل دينه، حتى دعا اللّه المسلمين إلى القتال، وخرج عبد اللّه بن عمرو بن حرام كما خرج أولاد عمرو بن الجموح خلاد ومعاذ وأبو أيمن ومعوذ. وأراد عمرو أن يخرج فمنعه أولاده بأمر رسول اللّه. لقد كان في قدمه عَرَجٌ شديد يمنعه من القتال، وكم كان يؤلم هذه النفسَ الكبيرة أن يحول بينها وبين الجهاد ـ لأجل دين اللّه ـ حائلٌ جسماني، كم تعطشت إلى جنة عرضها السماوات والأرض، كم أرادت أن تفوز بنعيمها السرمدي!. ولكن أراد الرسول ألا أذهب، إذن فَلأَبقَ.

ومرت بدر وعاد المسلمون وأكاليل الغار فوق رؤوسهم، ولكن هناك منهم من ذهب، تحمله الملائكة في رياض الجِنان، هؤلاء هم الشهداء، أولئك الخالدون الذين يرثون الفردوس ونعيمه. أفكار كان يحيا فيها عمرو ويُسِرُّ بها إلى صديقه عبد اللّه بن عمرو بن حرام. إيهِ[1] يا أبناء الدنيا، أنتم تطلبون المال والجاه، وهذان كان لهما الغاية منهما، فما طلبوهما، وإنما أرادا العيش المقيم في ديار الخالدين.

* * *

أقبلت أُحد ففاضت النفس الكبيرة، نفس عمرو بن الجموح ضياءً ونورًا. ومضى لبنيه قائلاً:

ـ منعتموني الخروج إلى بدر فلا تمنعوني الخروج إلى اللّه.

ـ إن اللّه قد عَذَرَكَ.

فمضى إلى رسول اللّه ﷺ وقال له: يا رسول اللّه إن بَنِيَّ يريدون أن يحبسوني عن هذا الوجه والخروج معك فيه، واللّه إني لأرجو أن أطأ بِعَرجَتي هذه في الجنة.

فقال له الرسول: أما أنت فقد عذرك اللّه ولا جهاد عليك.

ثم قال لبنيه: لا عليكم ألاَّ تمنعوه، لعل اللّه أن يرزقه الشهادة.

فأخذ عمرو سلاحه ومضى قائلاً: اللّهم ارزقني الشهادة، ولا تردني إلى أهلي خائبًا. ومضى هو وصديقه عبد اللّه بن عمرو وأولاده، مع كتيبة اللّه.

ونادى عبد اللّه بن عمرو ابنه جابراً قبل أن يخرج إلى القتال وقال: «إني أرجو أن أكون أول من يُصاب غدًا ـ فأوصيك ببنات عبد اللّه خيرًا».

سار المسلمون حتى وصلوا إلى الشوط، وهناك نافق عبد اللّه بن أبي بن سلول زعيم المنافقين في المدينة ورجع بثلث الناس من الضالين وأهل الريب، وآلم عبد اللّه بن عمرو بن حرام هذا الموقف في تلك الساعة الحرجة، من تاريخ الدعوة الإسلامية، فأتبعهم يقول لهم:

ـ يا قوم أُذكِّركم اللّه أن لا تخذلوا قومكم ونبيكم عندما حضر من عدوكم.

---

(١) إيه: اسمُ فِعلٍ للاستزادة من حديثٍ أو عملٍ معهود.

فرد المنافقون: «لو نعلم أنكم تقاتلون ما أسلمناكم ولكن نرى أنه لا يكون قتال». فناشدهم اللّه وذكرهم بالبعث واليوم الآخر، فاستعصوا عليه وأبوا إلا الانصراف فقال: «أبعدكُم اللّه، فسيغني اللّه عز وجل عنكم نبيه ﷺ» وعاد إلى جيش المسلمين.

* * *

بدأ الصراع المخيف بين الجيشين، وتخطى عبد اللّه بن عمرو بن حرام الصفوف حتى وصل إلى قلب جيش المشركين وهو يطعن ويصول حتى تناولته الرماح فسقط قتيلاً وانتصر المسلمون ثم انهزموا وولوا الأدبار ولم يثبت إلا من عصم اللّه.

وارتفع اللواء. لواء رسول اللّه. والملائكة تنادي من سماواتها «يا من عِفْتُم الدنيا ومن فيها. مقامكم اليوم فأقبلوا» وسمع عمرو بن الجموح النداء. فأقبل. إنه يرجو الخلود. وهذا طريقه، فحمل هو وابنه خلاد على المشركين، وسقط هو وابنه بجانب صديقه عبد اللّه بن عمرو ابن حرام واختلطت دماؤهما. لقد تحابا في الحياة، واجتمعا في الممات.

ومر بهما الرسول بعد الموقعة فرآهما يتوسدان الثرى متجاورين وبجانبهما خلاد فقال: ادفنوا هذين المتحابين في الدنيا. في قبر واحد.

ثم يُحَدِّقُ في وجه عمرو بن الجموح. وتَصمتُ الكائنات وتهدأ، إن رسول اللّه يكلم الوحي. ثم حين يذهب عنه يقول: «والذي نفسي بيده لقد رأيت عمرو بن الجموح يطأ في الجنة بعرجته».

ثم وقف أمام عبد اللّه بن عمرو بن حرام، وأقبل جابر بن عبد اللّه على أبيه وهو مُسَجًّى فكشف عن وجهه وجعل يقبله والصحابة تنهاه، والنبي صلوات اللّه عليه صامت هادىء، وأقبلت فاطمة بنت عمرو تبكي أخاها عبد اللّه، فقال النبي صلوات اللّه عليه «فبكِّيني أو لا فبكيني. ما زالت الملائكة تُظِلُّه بأجنحتها حتى رفعتموه».

لقد ناما في أرض أُحد في قبر واحد ووقف النبي ﷺ يقول مخاطبًا شهداء أحد جميعًا: «زَمِّلوهم بجراحهم[1] فإني أنا الشهيد عليكم؛ ما من مسلم يَكْلَمُ في سبيل اللّه إلا جاء يوم القيامة يسيل دمًا ـ اللون لون الزعفران، والريح ريح المسك».

---

(١) زملوهم بجراحهم: أي لُفُّوهم بأثوابهم كما هم دون غسل.

إيهِ يا يومَ البعث! . يا يوم العرض العظيم، يوم تزدان بكمال البشر. يوم تطلع عليك تلك الوجوه التي أخضعتِ الدنيا وشهواتها، ثم لم تأخذ منها شيئًا.

لقد بنوا دين اللّه على أكتافهم، ومضوا قبل أن تقبل الدنيا على الإسلام فأجرهم وقع عليك وحدك، يا مَنْ خلقت الدنيا والسماء. لقد وعدتهم فأسرعوا إلى عهدك ومن أوفى بالعهد منك؟..

* * *

@ktabpdf تيليجرام

٣ـ تحت اللواء

١ـ سعد بن الربيع

هنا عبرة الدنيا التي لا تنقضي، وحكمة الدهر التي لا تزول. هذا رجل آمن وأسلم فكان قلبه وقودًا للحب والإيثار يقدمهما لسيد الأنبياء.

ثارت الحرب بين الأوس والخزرج في الجاهلية، والتحم أشراف المدينة في حرب طاحنة ضروس. وكان سعد بن الربيع سيد بني الحارث (حي من أحياء الخزرج) يصلى نيران تلك الحروب التي تذهب بقومه العرب، بينما اليهود ثعالب الجزيرة يزدادون قوة ومنعة. ويسيطرون على مصير يثرب في دهاء وخبث، ووضعت الحرب أوزارها أخيرًا، ولكن بعد أن أهلكت الحرث والنسل، وتركت الحيَّين جميعًا محطمي القوى، وعادت الحياة إلى يثرب مرة ثانية هادئة لا يعكر صفوها إلا هؤلاء اليهود يحاولون في كل آن إثارة البغضاء مرة أخرى بين الحيين. وهؤلاء العرب سرعان ما تثور بينهم الأحقاد والضغن. ما أخف تلك الأحلام الجاهلية التي لا ضابط لها ولا رادع، ويسعى سعد بن الربيع إلى تسكين الفتن والأحقاد، ولَكَمْ أَبغضَ اليهودَ هذا الهدوء وهذا السكون الذي يسود يثرب ولكم غاظهم اجتماع الحيَّين.

ويمرون على الأوس والخزرج وفي قلوبهم مراجل من الغيظ تغلي، ويمر أحبارهم فيقولون لأهل يثرب: «لقد أظل زمان نبي يُبعث، نجد وصفه في كتابنا نقتلكم به» ويصبر الأوس والخزرج صبراً جميلاً، ويصبر سعد بن الربيع. ولكن ما هذا القلق الذي يتردد في أعماق نفسه نحو هذه الحياة، نحو جوهر هذا الوجود وحقيقته، قلق يأخذ على هذا العقل المتزن الكبير كل مأخذ، ويجعل أيامه جحيماً نفسياً لا يطاق.

كان له من المال الغاية ومن شرف أسرته ومقامها الكبير النفوذ والسطوة، ومن العلم نهايته بين العرب ـ فقد كان يكتب ويقرأ والكتابة كانت نادرة في العرب.

لقد أطعم الجائع، لقد كسا الغادي والرائح، لقد ملأ يثرب ذكراً عاطراً، لم يكذب مرة ولم ينافق، آثر الناسَ على نفسه في كل ما فعل، وعرف أهل يثرب إيثاره فكان له في أنفسهم مقام وأي

مقام. ولكن كل هذا لم يهدىء من هذا القلق الذي يهزه هزاً. هذا القلق الذي كان يُشعره أن هناك شيئاً في هذا الوجود لم يعرفه بعد.

أيها الليل الطويل. ليل ظلمات النفس ألا تنجلي، أيها الصبح. صبح اليقين ألا تقبل.

* * *

وأقبل صبح اليقين أخيراً.

هبت نسماته من الجنوب. هادئة تحمل فلسفة الوجود، لقد ظهر المبعوث بجوار البيت العتيق، وهؤلاء اليثربيون يسبقون إليه قبل أن يسبق إليه اليهود فَوا صباحَ هؤلاء. لقد ظهر المبعوث من رب السماء يحدثهم عن وجودنا وعن خلقنا وعن المصير.

فيا رواد الحقيقة هذا منبع الحقيقة. ويا طلاب اليقين، بدأ اليقين أروع وأثبت ما يكون. وآمن سعد بن الربيع وكان إسلامه وإيمانه للإسلام نصراً عظيماً. لقد بدأ سعد بن الربيع الشريف الإيثاري في الجاهلية يضرب في الإسلام أسمى معاني الإيثار.

* * *

هدأت النفس الكبيرة، ورأت في كتاب اللّه ما تصبو إليه من هدوء نفسي ملأ جوانحها، ودُعيَ الأنصار إلى بيعة الرسول وخرج سعد مع قومه، وفي ليلة العقبة الكبرى كان نقيب قومه.

وهاجر المسلمون من قريش إلى المدينة وهاجر الرسول الكريم، وكان لا بد من إقامة الدولة الجديدة على أساس دعوة اللّه.

وأهم أساس لهذه الدعوة الأخوة والإيثار، فآخى سيد الأنبياء بين المهاجرين والأنصار، هذا الإخاء الرائع الذي امتاز به هؤلاء الذين أخضعوا الدنيا وسجد لهم قياصرتها وأقيالها[1]

وآثر الأنصار المهاجرين على أنفسهم ففسحوا لهم دورهم ومالهم ثم رفعوا السيوف والموتُ فوق رؤوسهم يوم طلب منهم التضحية والفداء، ثم ألقوا بأنفسهم في مقدمة الصفوف طالبين الموت، مؤثرين إخوانهم المهاجرين بالحياة. ولكم اختلطت دماؤهم مع دماء المهاجرين وارتبطت بينهم العهود حتى كانوا قلباً واحداً.

هذا رسول اللّه صلوات اللّه عليه، يؤاخي بين سعد بن الربيع وعبد الرحمن بن عوف ولقد

---

(١) الأقيال: جمع قيل وهو السيد المطاع.

أسرع الشريف الإيثاري إلى عبد الرحمن بن عوف يقول له:

ـ لي امرأتان وأنت أخي في اللّه لا امرأةَ لكَ فأنزلُ عن إحداهما فتزوجها.

فرفض عبد الرحمن بن عوف قائلاً: لا واللّه.. فعاد سعد يقول له:

ـ هلم إلى حديقتي أُشاطِرْكَها.

ـ لا، بارك اللّه لك في أهلك ومالك.

فألح سعد بن الربيع. وعبد الرحمن بن عوف يصر على الرفض طالباً منهم أن يدلوه على سوق المدينة فقد كان تاجراً من أغنى تجار قريش، ولكن قريشاً عَدَتْ على ماله حين خرج مهاجراً إلى اللّه ورسوله، غير أنه يستطيع أن يزاول التجارة في يثرب؛ وأثرى حقاً عبد الرحمن بن عوف من تجارته بعد أن وجد في جوار سعد مقاماً كريماً وإيثاراً مطلقاً.

* * *

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج: ٣٩].

قاتل سعد بن الربيع في بدر وأبلى أحسن البلاء.

وفي أُحُد. حدث ما حدث من عصيان الرماة لأمر رسول اللّه وتركهم لمواقعهم فانقلب النصر هزيمة وخذلاناً وأخذ القرشيون يستأصلون شأفة المسلمين، والمسلمون يُولُّون الأدبار، ويلقون أسلحتهم وعتادهم.

وارتفع اللواء. لواء رسول اللّه خفاقاً فوق الأعناق يذكر النفوس التي عاهدت. ينادي أهل العقبة الكبرى ونقباءها. يردد لهم أناشيد الفداء.

وسمع سعد بن الربيع فلم يهن ولم يتردد ـ بل صال صولة الضرغام ينازل أبطال قريش، تخشمه السيوف فلا يسقط ـ تتناوله الرماح وتكثر عليه الجراح فلا يوهنه شيء أبدًا، حتى سقط وفيه بقية من حياة ـ أخيراً بعد أن وفى فأحسن الوفاء.

* * *

عادت قريش إلى مكة ظافرة منتصرة ورسول اللّه يسأل الصحابة أول ما يسأل: «مَنْ رجلٌ ينظر إلى فعل سعد بن الربيع أفي الأحياء أم في الأموات» فقال رجل من الأنصار: «أنا أنظر لك يا رسول اللّه ما فعل سعد».

فخرج الصحابي فوجده جريحاً في القتلى وبه رمق، فقال له سعد:

ـ ما شأنك؟

ـ إن رسول اللّه ﷺ سأل أن أنظر أفي الأحياء أنت أم في الأموات.

ـ أنا في الأموات فأبلغ رسول اللّه ﷺ عني السلام، وقل له إن سعد بن الربيع يقول لك: جزاك اللّه عنا خير ما جزى نبياً عن أمته. وأبلغ قومك عني السلام. وقل لهم إن سعد بن الربيع يقول لكم إنه لا عذر لكم عند اللّه إنْ خلص إلى نبيكم ﷺ وفيكم عينٌ تَطرف».

ثم مضى.. مضى السيد الإيثاري إلى أرض البقاء. لقد آثر السيد الإيثاري الرسول في الحياة وآثره في الممات. وأنشدت له كائنات السماء أناشيد الخلود ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ * ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠ ـ ١١].

هنا عبرة الدنيا التي لا تنقضي، وحكمة الدهر التي لا تزول، هذا رجل آمن وأسلم. فكان قلبه وقوداً للحب والإيثار يقدمهما لسيد الأنبياء.

هذا ذكره في السماء فما هو ذكره في الأرض، دخل رجل على أبي بكر الصديق فرأى طفلة صغيرة يحملها أبو بكر يدللها ويقبلها فقال له رجل:

ـ من هذه؟

ـ هذه بنت رجل خير مني ـ سعد بن الربيع كان من النقباء يوم العقبة وشهد بدراً واستشهد يوم أحد.

* * *

٢ ـ أنس بن النضر

مات أنس بن النضر، ولكن رسول اللّه قد عاش، ويا لها من سعادة سرمدية لهذه النفس الكبيرة، حين تطلع من عالمها الأخروي على الأرض. فترى رسالة اللّه، ما أضاعها اللّه. بل حفظها ورعاها، وسارت حتى انتظمت فيها الدنيا، وسادت العالمين.

لقد ارتفع اللواء. لواء رسول اللّه. إن الحقيقة تكاد تنهار وتخبو إن تركتم هذا اللواء يا صحابة الرسول ينكس اليوم في الأرض. وأنس بن النضر قد استل سيفه ووقف يحدق في الفضاء. تذكر أنه غاب عن بدر وأنه ذهب بعدها إلى رسول اللّه فقال له: ـ يا رسول اللّه غبتُ عن أول قتال قاتلتَ المشركين، لئن اللّه أشهدني قتالَ المشركين لَيَرَيَنَّ اللّه ما أصنع.

تذكر أنس كل هذا والمسلمون ينكشفون ويهربون فصاح بأعلى صوته: اللّهم إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء (يعني أصحابه) وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء يعني المشركين.

ثم تقدم فاستقبله سعد بن معاذ فقال له: يا سعدَ بن معاذ الجنة وربِّ النضر إني أجد ريحها من دون أحد.

قال سعد: فما استطعت يا رسول اللّه ما صنع. قال أنس بن مالك: فوجدنا به بضعاً وثمانين ضربة بالسيف أو طعنة برمح أو رمية بسهم ووجدناه قد قتل وقد مثل به المشركون فما عرفه أحد إلا أخته ببنانه.

وفي تلك اللحظة هجم على صفوف المشركين واسْتَعرت الحربُ وصارت هولاً مقيماً وأنس في وسط الصفوف كالعلم الأشم[1]

وصاح صائح من قريش: قتل محمد. فلم يهن أنس ولم يصمت عن قتال، حتى مر بعمر ابن الخطاب وطلحة بن عبيد اللّه في رجال من المهاجرين والأنصار وقد ألقوا بأيديهم فقال: ما

---

(١) استعرت الحرب: اشتدت والتهبت. الأشم: المرتفع.

يجلسكم؟ قالوا: قتل رسول اللّه. فصاح فيهم: فماذا تصنعون بالحياة بعده فموتوا على ما مات عليه رسول اللّه ﷺ. ثم استقبل الكفار. مات رسول اللّه فما الحياة بعد رسول اللّه إلا غرور ووهم!

يا لها من حياة مليئة بالقاذورات والأرجاس تلك الحياة التي يتغلب فيها عباد الشهوات والشيطان على كتيبة الإيمان والطهر.

مات رسول اللّه فلأكن أول الساعين إليه وأول العاملين تحت لوائه في الآخرة. وسقط. أخيراً أنس بن النضر وفي جسمه ثمانون ضربة فما عرفته أخته إلا من بنانه.

مات أنس بن النضر ولكن رسول اللّه قد عاش.

ويا لها من سعادة سرمدية لهذه النفس الكبيرة حين تطلع من عالمها الأخروي على الأرض. فترى رسالة اللّه ما أضاعها بل حفظها ورعاها وسارت حتى انتظمت فيها الدنيا وسادت العالمين.

وهذه هي الغاية التي مات لأجلها تحت لواء رسول اللّه أنس بن النضر.

* * *

٤ ـ تحت اللواء

١ ـ صور من أهل أحد

«يا أهل الكون العلوي: أطلوا من عليائكم على الأرض لقد ارتفع اللواء. لواء رسول الله. وما بقي حوله إلا قليل»

ـ ١ ـ

وعلت في الكون أنغام حزينة ـ لم يسمعها الغافلون ـ تردد: يا أهل الكون العلوي. سلام على الدنيا ومن فيها. لقد شُغل رجالها وذَادةُ الحق[1] فيها بشهوات أنفسهم عن حَقٍّ ما كان أعلاه في أعينهم، وأيقنه في صدورهم. سيطرت عليهم روح أرضية ليس فيها إلا خداع وغرور.

يا أهل الكون العلوي. لقد فر أصحاب سيد الأكوان من جبل أحد، بعد أن ضربوا له المواثيق والعهود.

إنه يتحمل الآن بقوة نفسه، وهي فوق قوة العالم كله نتيجة ما وقع منهم، ثم لا يغضب ولا يثور بل يطلب لهم من رب الأكوان جميعاً الأَيدَ في الدنيا والمغفرة في الأخرى.

يا أهل الكون العلوي. أَطِلُّوا من عليائكم على الأرض، لقد ارتفع اللواء.. لواء رسول الله وما بقي حوله إلا قليل.

* * *

وسمع «خيثمة» سيد بني عمرو بن عوف تلك الأنغام العلوية تبعث في نفسه ألوان الألم المحض، وتثير صوراً من الماضي القريب.

أين عهود هؤلاء الذين أشهدوا الله أنهم مانعوه ما منعوا منه نساءهم وأبناءهم.

لقد فرّ الكثير منهم اليوم بين مهاجر وأنصاري ولكن ما زال حول الرسول بقية تَذبُّ عنه.

---

(١) ذادة الحق: المدافعون عن الحق.

واقترب خيثمة يفرق الصفوف ويدفع دفاع الكماة الأشاوس، وهو يفكر. ألم يسبقني ابني «سعد بن خيثمة» في هذا الموقف من بدر.

لقد كان سعد سيد قومه ونقيبهم في يوم العقبة وقد وفى ما كان على قيد الحياة.

إنه ليذكر كل هذا، ويذكر أنه قال لابنه يوم بدر: «لا بد لأحدنا أن يقيم فآثرني بالخروج وأقم أنت مع نسائنا» فأبى سعد وقال له: «لو كان غير الجنة لآثرتك به إني أرجو الشهادة في وجهي هذا» فاستهما فخرج سعد وأبلى يوم بدر أحسن البلاء ثم قتل. قد حقق اللّه له ما أمَّل وارتجى.

إن خيثمة ليذكر كل هذا ويذكر أنه لم يحزن على سعد، إلا أنه في جوار ربه وفي رضوانٍ من اللّه أكبر.

وأحب خيثمة أن يلحق بابنه وأن يفوز بما فاز به، فلما طلب الرسول من الناس المشورة ـ وقف خيثمة فقال: «يا رسول اللّه إن قريشاً مكثت حولاً تجمع الجموع وتستجلب العرب في بواديها ومن تبعها من أحابيشها ثم جاؤونا قد قادوا الخيل وامتطوا الإبل حتى نزلوا بساحتنا فيحصروننا في بيوتنا وصياصينا، ثم يرجعون وافرين لم يَكْلَمُوا فيجرئهم ذلك علينا حتى يشنوا الغارات ويصيبوا أطرافنا ويضعوا العيون والأرصاد علينا مع ما قد صنعوا بحروثنا وتجترىء علينا العرب حولنا حتى يطمعوا فينا إذا رأونا لم نخرج إليهم فَنذبَّهُمْ عن قرانا وعسى اللّه أن يظفرنا بهم ـ فتلك عادة اللّه عندنا أو يكون الأخرى فهي الشهادة.

لقد أخطأتني وقعة بدر وقد كنت عليها حريصاً. لقد بلغ من حرصي أن ساهمت ابني في الخروج فخرج سهمه فرزق الشهادة، وقد كنت على الشهادة حريصاً ـ وقد رأيت ابني البارحة في النوم في أحسن صورة يسرح في ثمار الجنة وأنهارها وهو يقول: الْحَقْ بنا ترافقنا في الجنة فقد وجدتُ ما وعدني ربي حقاً ـ وقد واللّه يا رسول اللّه أصبحتُ مشتاقاً إلى مرافقته في الجنة، وقد كبرَت سني ورق عظمي، وأحب لقاء ربي ـ فادع اللّه يا رَسول اللّه أن يرزقني الشهادة ومرافقة سعد في الجنة» فدعا له الرسول بذلك.

تذكر خيثمة كل هذا. وترددت دعوة الرسول في أذنه كأنها ما زالت ترن بعد، وفي تلك اللحظة تناولته الرماح فسقط شهيداً.

وفي وسط المعمعان وأطياف الهزيمة تملأ قلوب المسلمين. والمشركون حول الرسول. ارتفع اللواء. لواء رسول اللّه خفاقاً فوق الأعناق، ونظر إليه زياد بن السكن بن رافع فخال أنه يملأ الدنيا جميعها، فاقترب منه، ومرت أمامه في تلك اللحظة صورة ابنه عمارة بن زياد بن السكن ـ وقد مات في بدر شهيداً ورفعته الملائكة إلى العلا، يدعوه إلى الوفاء وكانت البيعة الكبرى بايعها الخالصون من صحابة الرسول ومنجل الموت يَقطُّ رقابهم! بايعوا بيعة الموت. وكانوا ثلاثين من أئمة الأنصار والمهاجرين وفيهم عمار، وأقبل المشركون من كل شعب من شعاب الجبل فصاح المبايعون بصوت واحد وقد توجهوا إلى الرسول جميعاً. وجهي دون وجهك ونفسي دون نفسك والسلام عليكم غير مودع». وانقضوا على المشركين انقضاضاً ولكنهم كانوا قطرة في بحر عجاج. فصاح الرسول: «أيها الناس مَنْ رجل يَشْري نفسه»؟ فقام سبعة من الأنصار وعلى رأسهم زياد بن السكن فأحاطوا بسيد الأنبياء إحاطة السوار بالمعصم وقاتلوا تحت لواء رسول اللّه وتساقطوا واحداً بعد واحد. وترس زياد بنفسه دون الرسول يتلقى الرماح والنبل بجسده حتى خلصت إليه الجراح ومزقته السيوف والنبال، فلم يبق في جسده موضع إلا وقد أصيب. ونام. نام تحت قدمي الرسول والرسول يوسده ويودعه إلى حيث المقام الآمن. إلى حيث يلحق بالشهداء والصديقين من قومه.

لقد اجتمع خيثمة بأبيه سعد واجتمع زياد بابنه عمارة. واللّه والملائكة يشهدون بأنهم كانوا الأوفياء، أزالوا أطماع الدنيا في قرارة نفوسهم فتساوى عندهم الحياة والموت! فلم يردعهم الموت يوم طلب منهم الفداء، بل أقبلوا بلا تردد ولا إحجام، فتركوا الإسلام بعدهم صرحاً مشيداً، وعلم أعداء الإسلام حقيقة دينهم، فأرادوا القضاء عليه، فزينوا للناس الشهوات وحبها فملأت نفوسهم ولم يعد فيها إلا هي، وأي مجد يقام على شهوات النفس.

-٣-

وامتدت صفحة الصحراء صفراء لا نهاية لها تحاول العين الإحاطة بها فلا تستطيع وسمع صوت رجلين يرجزان من بعيد يسوقان أمامهما قطيعاً من الغنم، وكان هذان الرجلان هما وهب ابن قابوس المزني وابن أخيه الحارث بن عقبة يسيران بغنم لهما من جبل مزينة حتى وصلا إلى المدينة فوجدا بها بعض من تخلف عن رسول اللّه فسألا: أين الناس. فأجابوهما بأحد خرج رسول اللّه ﷺ يقاتل المشركين فقالا: نسأل أثراً بعد عين، ثم خرجا حتى أتيا النبي ﷺ بأحد.

فيجدان القوم يقتتلون، والدولة لرسول اللّه وأصحابه فأغاروا مع المسلمين، ولكن ما لبث الكفار أن هجموا من الجبل واختلط المسلمون بعضهم ببعض وثبت وهب وابن أخيه وقاتلا قتالاً شديداً.

وهجمت فرقة من أشداء أعداء المسلمين على رسول اللّه فقال الرسول: «من لهذه الفرقة»؟ فقال وهب: «أنا يا رسول اللّه» وقام ووماهم بالنبل حتى انصرفوا ثم رجع، فهجمت فرقة من المشركين فقال الرسول «من لهذه الكتيبة» فقال المزني «أنا يا رسول اللّه» فقام فَذبَّها بالسيف حتى ولوا، ثم رجع المزني ـ فطلعت كتيبة أخرى فقال «من يقوم لهؤلاء» فقال المزني «أنا يا رسول اللّه» فقال «قم وأبشر بالجنة» فقام المزني مسروراً يقول «واللّه لا أَقيلُ ولا أستقيل» ثم انقض على المشركين يضربهم بالسيف ورسول اللّه ينظر إليه قائلاً: «اللهم ارحمه. اللهم ارحمه» وهو يدور حملهم ويضربهم بالسيف ـ ولكنهم أحدقوا به أخيراً حتى اشتملت عليهم أسيافهم ورماحهم فقتلوه فوجدوا به يومئذ عشرين طعنة برمح، كلها قد خَلصت إلى مَقْتلٍ، ومثل به أقبح تمثيل يومئذ، ثم قام ابن أخيه فقاتل كما قاتل وهب حتى قتل.

ووقف رسول اللّه على قدميه وكان مجروحاً والقيام يَشقُّ عليه، ونظر إلى جثة وهب: «رضي اللّه عنك فإني عنكَ راضٍ» وهذا عمر بن الخطاب يقول: «إن أحب ميتة أموت عليها ما ماتَ عليها المزني».

ـ٤ـ

كان فتى قريش جمالاً ووضاءة، لم يعرف من الحياة إلا نعيمها وترفها حتى أسماه القرشيون شماساً لوِضَاءتهِ حتى غلب على اسمه فإذا ما نادى الوحي من أعلى السماء محمداً، استجاب الشريف القرشي «شماس بن عثمان» لرسول اللّه وتحمل معه ما تحمل حتى أذن له الرسول بالهجرة إلى الحبشة فهاجر في الهجرة الثانية غير آبه بأهله ولا بوطنه إنما حاملوا لواء العقيدة هم الوقود الذي يشتعل لأجلها، ثم عاد من الحبشة وهاجر مع من هاجر إلى يثرب، ونزل في يثرب على مبشر بن المنذر ثم آخى الرسول بينه وبين حنظلة بن أبي عامر.

واشتعلت الحرب بين المسلمين والمشركين وفي المشركين أهل شماس وعشيرته وخلانه ولكن ما كان للمسلم الحق أن يهادن في اللّه قوماً أخرجوا النبي وآذوه في نفسه وفي دينه حتى ولو كانوا أهله وعشيرته.

خرج شَمَّاس في بدر فأذاق المشركين الويل وقتل منهم مَنْ كانوا أخلصَ خلانه وصحبه.

وفي أُحُد. ارتفع اللواء، لواء رسول اللّه وفَرَّ مَنْ فر. والرسول يدعوهم في أخراهم،

ولكن شماساً ثبت ثبوت الأطواد يقاتل يميناً وشمالاً والرسول لا يرمي ببصره إلا رآه يقاتل في كل مكان فقال صلوات اللّه عليه: «ما وجدت لشماس بن عثمان شبيهاً في الجنة» ثم غُشِّي على رسول اللّه وسقط من سقط من الصحابة قتيلاً ـ فأقبل شماس وترَّسَ بنفسه دون رسول اللّه والسيوف تأكله أكلاً والنبل يمزق جسده تمزيقاً وهو لا يصيح ولا يئن ولا يتحرك، بل يتقبل كل هذا بقوة لا تلين حتى سقط، وحمل إلى المدينة وبه رمق ومات بعد يوم وليلة في سن الرابعة والثلاثين.

إيهِ. يا مَنْ ضربتم للناس أرفع المثل، انظروا بعدكم إلى الناس كم أقبلوا بعدكم على الدنيا ففتنتهم منها شهوتان: شهوة البطن وشهوة الفرج، تَنكَّبوا طريقكم فعاشوا كالبهائم والأنعام.

* * *

وصاح النغم الحزين يردد: «يا أهل الكون العلوي أطلوا من عليائكم على الأرض. لقد ارتفع اللواء.. لواء رسول اللّه. وما بقي حوله إلا قليل».

* * *

٥ ـ تحت اللواء

٢ ـ صور من أهل أحد

«إن الفداء الحق ـ فِداء مَنْ أقبلت عليه الحياة ومَلَكها، لا فداء من أدبرت عنه وخرجت من يده فضحى وفدى ـ أما الأولون فهم الأموات الخالدون، وأما الآخرون فهم الأموات أبداً ـ ومن ذلك الصنف الأول كان أهل أحد»

١ ـ بعد التولية

ستة من أهل يثرب يسيرون في بطحاء مكة لا يفكرون إلا في تجارتهم وفي إقامة علائق وُدٍّ مع سدنة البيت العتيق ـ بيت العرب جميعاً ـ لا يفكرون أنه بعد لحظات سيكونون الرعيل الأول للأنصار. خير أمة في الوجود. وأن يثرب بلدهم ستصبح خالدة ما بقيت الدنيا، وأنه سينام في أرضها سيد الأنبياء ـ فتصبح أذكى الرياض. يقبل الناس عليها من كل فَجٍّ فيقفون أمام القبر المُطَهَّر مُناجينَ الروح التي طالما أشرقت على الدنيا ذراتها وستشرق أبد الآبدين فتنفك نفوسهم. التي مُلئت بأدران الدنيا وقذارتها عن جسومهم لكي تتصل قليلاً بموطن النور الأعظم فتخلص من شرور البشر وآثامهم. يا له من نور يُغني كل شيء ولا يَفنى ـ فتنقصُ الكائناتُ جميعاً من شمس وكواكب ونجوم، غير هذا النور. ثبت أبداً وسيثبت.

مكتبة الرمحي أحمد

* * *

التقى رسول اللّه باليَثْربيين الستة. ودعاهم إلى عبادة الواحد الأحد فآمنوا جميعاً ـ وكان من بين هؤلاء الستة العباس بن عبادة بن فضلة الخزرجي. آمن اليثربيون وبايعوا الرسول البيعة الأولى. وعاد العباس كما عاد أصحابه إلى يثرب ينشرون دين اللّه حتى انتشر الإسلام في المدينة.

وخرج العباس في العام الذي يليه ـ ولما توافى الأنصار ليلاً لبيعة الرسول بيعة العقبة الكبرى كان العباس في مقدمتهم. فإذا ما هَمُّوا بالبيعة صاح العباس فيهم: «يا معشر الخزرج ـ هل تدرون علامَ تبايعون رسول اللّه؟ إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود فإن كنتم ترون أنها إذا نَهكت أموالكم مصيبة وأشرافكم قتلاً، أسلمتموه، فمن الآن ـ فهو واللّه إن فعلتم خِزْيُ الدنيا والآخرة ـ

وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه على نهكة الأموال وقتل الأشراف فخذوه فهو واللّه خير الدنيا والآخرة».

قالوا: فإنا نأخذه على مصيبة الأموال وقتل الأشراف فما لنا بذلك يا رسول اللّه إنْ نحن وَفَيْنا؟ قال: الجنة.

قالوا: ابسط يدك؛ فبسط يده، فبايعوه.

هذا صوت في الظلام يصيح في قريش ينبئهم بالأمر. فيقف العباس ويقول: ـ يا رسول اللّه إن شئت لَنميلَنَّ على أهل منى غداً بأسيافنا. فيقول النبي: لم نُؤمر بذلك. ولكن ارجعوا إلى رحالكم.

* * *

صورة من صور عظماء الرجال. لم تر الدنيا لها مثيلاً تَفتُّح نفسٍ نحو الحق، فلا يناديها الحق إلا وأقبلت. ورسوخُ إيمان تتحرك الجبال المحيطة بالبيت الحرام ولا تتحرك، وسُمُوٌّ على الناس لا يدانيه سمو، وفناء في دين اللّه يجعله لا يرهب قريشاً بأكملها وهم قلة مستضعفة، وصرامة في الحق عرفها له الناس فسَوَّدوه في الجاهلية والإسلام، تلك صورة العباس بن عبادة وهو يصيح: «يا رسول اللّه إن شئت لَنميلنَّ عليهم غداً بأسيافنا».

* * *

كيف يصبر على بُعْدِ المزار من عرف النور؟ كيف يرضى الابتعاد عن موطن الحق من عرف الحق؟ لم يصبر ولم يرض العباس بن عبادة. فرحل بعد قليل من عودته من مكة إلى الرسول ثانية في مكة. هاجر العباس من المدينة إلى مكة وأقام بها مع رسول اللّه يغترف من الضياء ما يغترف، ويتحمل من عَنَتِ المشركين ما يتحمل ـ حتى أذن اللّه لأصحابه بالهجرة ـ فهاجر العباس ثانية من مكة إلى المدينة. فكان مهاجراً أنصارياً. وآخى الرسول بينه وبين عثمان بن مظعون.

ودعا داعي الجهاد، ولم يخرج العباس مع الرسول في بدر، لم يحسب أنه يلقى قتالاً واشتبك المسلمون في العام الثاني مع الكفار في أُحد، وتولى عن الرسول صَحْبُه. وارتفع اللواء. لواء رسول اللّه.

وبلغ المنهزمون بني حارثة بالقرب من المدينة. وهناك تذكروا عُهودهم ومواثيقهم. تذكروا هذا اللواء الذي يرتفع فوق هام الرّجال، فلا يذود عنه إلا الأقلون فرجعوا سراعاً، وكان

أول من أتى بعد التولية «قيس بن بَلْحَرث» مع طائفة من الأنصار. فصادفوا المشركين في كَرَّتهم فدخل قيس في حومتهم فما أفلت منه هو وأصحابه رجل. وقد قاتل قيس بن بَلْحرث وامتنع منهم بسيف حتى قتل منهم نفراً ـ ولكن رماحهم تكاثرت عليه فقتلوه ـ ووجد به أربعة عشرة طعنة قد جافته وعشر ضربات في يده.

واأسفاه على الأوفياء الذين ولوا. أنتم يا بني الموت تخشون الموت ولكلٍّ منا ضجعة. ولوا يوم التقى الجمعان، ولكنهم عادوا ولم يرتد الطرف. وعباس بن عبادة بن فضلة في مقدمتهم وخاضوا المعمعان. وصاح عباس: «يا معشر المسلمين، اللّه ونبيكم، هذا الذي أصابكم بمعصيةِ نبيكم فوعدكم النصر ما صبرتم» ثم نزع مغفره عن رأسه وخلع درعه وقال لخارجة بن زيد: هل لك في درعي ومغفري؟

فقال خارجة: لا، أنا أريد الذي تريد.

إنهما يريدان الموت ويتسابقان فيه. فكان لهما في تلك اللحظة غاية. وهو الذي يفر اليوم منه الجبناء. ويتناسون أنه الكأس المحتوم، ولو تذكروا هذا لاعتدل ميزان الدنيا ولما اضطرب، ولكنهم غفلوا عنه نهاية أمرهم ولم يتبينوا إلا يوم أن تأتي. وحينئذ يرجون العيش لحظة ليعملوا غير ما كانوا يعملون. أبداً إنهم لا يرجعون.

وصاح عباس: ما عذرنا عند ربنا إن أصيب رسول اللّه ومعنا عين تطرف؟

فقال خارجة: لا عذر لنا عند ربنا ولا حجة.

ثم قَتَلَ سفيان بن عبد شمس السلمي عباساً بعد أن تكاثرت عليه الجراح، وقد ضربه عباس ضربتين قبل أن يموت فجرحه جرحين عظيمين ـ وأخذت خارجةَ الرماحُ فجُرحَ بضعة عشر جرحاً فمر به صفوان بن أمية فعرفه فقال: هذا من أكابر أصحاب محمد وبه رمق فأَجْهِزْ عليه ـ ومَثَّلْ به ـ وقال: هذا ممن أغرى بأبي يوم بدر، الآن شفيتُ نفسي حين قتلت الأماثل من أصحاب محمد ـ قتلت ابن قوقل (أي إياس بن عبادة) وقتلت أبا زهير (أي خارجة) وابن إياس (أي إياس بن أوس، استشهد يومئذ أيضاً). وقاتل ذكوان بن عبد قيس حتى قتل بعد أن أصاب من المشركين كثيراً، وغسلوا هزيمة أصحاب الرسول بدمائهم. وأدخلهم اللّه جنات يمرحون فيها جزاء بما فعلوا وصبروا.

٢ ـ غسيل الملائكة

زعيمان من أكبر زعماء يثرب، وثريّان من أكبر ثراتها هما عبد اللّه بن أبي بن سلول زعيم الخزرج وأبو عامر بن صيفي زعيم الأوس سلبهما الإسلام جاههما الجاهلي الوثني. أما أولهما فقد أقام في المدينة منافقاً يُبطن الكفر ويظهر الإيمان، وأما ثانيهما فقد لَجَّتْ به العداوةُ والبغضاء، فخرج إلى قريش مستنفراً على رسول اللّه، وكان يلقب في الجاهلية بأبي عامر الراهب فأسماهُ المؤمنون أبا عامر الفاسق.

أما ابن عبد اللّه بن أبي بن سلول، وهو عبد اللّه بن عبد اللّه، فقد آمن باللّه ورسوله وجاءت أُحد وخرج الرسول وخرج معه عبد اللّه ابن أبي بن سلول حتى إذا كانا قبل الموقعة بقليل انخذل عنه عبد اللّه بن أبي بن سلول مع كتيبة من قومه المنافقين.

أما أبو عامر فخرج في خمسة عشر رجلاً من الأوسِ وكان يذكر لقريش أنه إذا نادى قومه من الأوس المسلمين استجابوا له وانضموا إلى قريش فخرج فنادى: «يا معشر الأوس ـ أنا أبو عامر» فأجاب الأوسُ المسلمون: «لا أَنعمَ اللّه بك يا فاسق» ثم هجموا عليه مقاتلين فهرب. وكان منهم ابنه حنظلة بن أبي عامر.

صفحة من صفحات الفناء الذاتي في رسالة اللّه لا تتصور: حنظلة بن أبي عامر ابن سيد قومه ـ وفي شرخ الصبا. نعم كان صحابة رسول اللّه كلهم شباباً زاهراً لم يكونوا شيوخاً قد لَجَّ بهم العمر فزهدوا في الدنيا بعد أن أخذوا منها الكفاية، أبداً، لقد رشفوا من دين اللّه ـ وهم في زهرة الحياة. ثم ضحوا بكل شيء في أيام التضحية.

وفي ليلة الجمعة كان عرس حنظلة بن أبي عامر. فقد تزوج جميلة بنت عبد اللّه بن أبي بن سلول، وفي صباح ذلك اليوم نادى المنادي إلى الحرب، فما سمعها حنظلة حتى تقلد سيفه ودرعه سراعاً، ثم سار إلى القتال. فلما بدأت الحرب قاتل قتال الأبطال. ثم انكشف المسلمون فأخذ حنظلة يقاتل وهو يمر بعينه بين صفوف المشركين، حتى يجد أبا سفيان. فلما وجده هجم عليه، فوقع أبو سفيان، وحنظلة يريد ذبحه بالسيف، فصاح أبو سفيان مستنجداً بقريش ـ يا معشر قريش أنا أبو سفيان بن حرب ـ فسمع الصوت رجال من قريش فهجموا على حنظلة وضربوه ضربة قاتلة من راء ظهره فاستدار إليهم، ولكنهم تناولوه بالرماح. فمات.

* * *

ومر أبو سفيان بعد الموقعة بأبي عامر الفاسق، يطوفان بين القتلى، هل يَرَيانِ محمداً، فمرا

بخارجة بن أبي زهير، فقال أبو عامر: يا أبا سفيان هل تدري من هذا القتيل.

ـ لا

ـ إنه خارجة بن زيد بن أبي زهير الخزرجي، هذا سيد بَلْحرث بن الخزرج. ثم مر بعباس بن عبادة بن نضلة وهو نائم على جنبه فقال:

ـ يا أبا سفيان هذا قوقل، هذا الشريف في بيت الشرف، ثم مَرَّا بذكوان بن عبد قيس فقال أبو عامر: هذا ذكوان بن عبد قيس الشريف اليثربي.

ثم رأى أبو عامر ابنه وقد تناولته الرماح ومزقته فوقف أمامه صائحاً:

ـ يا أبا سفيان أتدري من هذا؟ قال: لا قال: هذا أعز مَنْ ههنا عليّ، هذا حنظلة بن أبي عامر.

ـ ولدي إنْ كنتُ لأُحذركَ من قَبْلُ هذا المَصرع ـ واللّه إنْ كنتَ لَبرّاً بالوالد، شريف الخلق في حياتك. وإن حِمامكَ لمع سَراةِ أصحابك وأشرافهم، وإنْ جزى اللّه هذا القتيل ـ حمزة ـ خيراً أو أحداً من أصحاب محمد فجزاك اللّه خيراً.

ثم نادى بأعلى صوته: «يا معشر قريش حنظلة لا يُمَثَّلُ به وإن كان خالفني وخالفكم فلم يَأْلُ لنفسه فيما يرى خيراً».

فَمُثِّلَ بالناس ولم يمثل به.

* * *

ولكن حنظلة كان في عالم آخر غير عالمنا. وها هو ذا الرسول يطلع على هذا العالم ثم يقول لأصحابه: «إني رأيت الملائكة تغسل حنظلة بن أبي عامر بين السماء والأرض بماء المزن في صحاف الفضة» ويسرع الصحابة إلى حنظلة ينظرون إليه فإذا رأسه يقطر ماء. فعادوا إلى الرسول فأخبروه فبعث إلى امرأته يسألها ـ فأخبرتهم أنه ما سمع هيعة الحرب حتى خرج وهو جنب لم يغتسل فغسلته الملائكة. فطوبى لك يا غسيل الملائكة مقامك العلوي.

٣ـ حبر اليهود

﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾ [الأحقاف: ١٠].

كان حبر اليهود وعالمها وسيدها أدرك الحق في رسالة رسول اللّه فعرفه، ودلائل نبوته في كتابهم فَعلامُ لا يتبعونه ولا يسيرون وراءه، ولكنها فِتنُ النفس تقلب الحق باطلاً والباطل حقاً.

﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ * وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة: ٨٨، ٨٩].

كم كانت تلك الآيات تبعث في نفس «مُخيريق» حبر اليهود من الآلام ووخز الضمير ما يسهره الليالي الطوال فعاش في قلق مستمر. قد آمن عبد اللّه بن سلام حبر اليهود من قبل، فأذاع عنه اليهود، ووقعوا فيه، وخشي مخيريق أن يحدث له ما حدث لعبد اللّه، ولكن أيبيع مجد الآخرة بمجد الأرض، مجد الخلد بمجد الفناء. ما هذه الأرض الواسعة التي لك؟ وما هذا المال الوفير الذي تمرح فيه إذا ما أعقبه تَأبيدٌ في نار تلظى؟ إيهِ أيتها النفس! يتنازعك أبداً سلطانان، سلطان من الباطل يثير فيها النعيم الإنساني، وسلطان من الحق يثير فيها الجزاء الخالد الإلهي.

المال والبنون والحياة.

جنة عرضها السماوات والأرض.

وأنصت مخيريق. لصوت الضمير. واستمع إليه يثير فيه أقدس الدواعي فخرج من بيته إلى أكابر قومه ورسول اللّه بأُحد ووقف عليهم قائلاً:

يا معشر اليهود ـ واللّه إنكم لتعلمون أن محمداً لَنبيٌّ وإن نصره عليكم لحق.

ففزعوا فزعاً شديداً وقالوا: إن اليوم يوم السبت قال:

لا سَبْتَ لكم عندي ـ أيها الناس إنْ أُصبتُ فأموالي لمحمد يضعها حيث أراه اللّه.

ثم حمل سيفه وحضر أُحداً ـ والدائرة على المسلمين، فلم يجزع ولم يَهِنْ بل دخل في القتال فَذَبَّ بسيفه حتى قُتل.

وعلم رسول اللّه بأمره فقال: مخيريق خير يهود. وفرقت ثروته على فقراء المسلمين. والملائكة تطل على أحد تردد. ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ ﴾.

٤ ـ السيد القرشي

«أبو سلمة بن عبد الأسد» سيد من سادات قريش، وعظيم من عظمائهم ـ أمه برة بنت عبد المطلب عمة النبي.

دعا داعي اللّه، فأسلم أبو سلمة قبل أن يدخل النبي دار الأرقم وقبل أن يدعو فيها وأسلمت

امرأته أم سلمة هند بنت أمية ـ ونشأ أولادهم سلمة وعمرو وزينب ودرة في رحاب الإسلام وطُهرهِ ـ وتحمل أبو سلمة من قريش أقسى الاضطهاد فلم يهن ـ حتى أمر رسول اللّه صحابته بالهجرة إلى الحبشة. فهاجر أبو سلمة الهجرتين، الأولى والثانية، وقد صحب زوجه العظيم معه في الهجرتين.

وعاد أبو سلمة إلى مكة حين فكر النبي في التوجه ـ هجرة ـ إلى المدينة.

وبدأت الهجرة إلى المدينة ـ فكان أبو سلمة أول مهاجر إليها، ونزل بقباء على مبشر بن المنذر وحين تكوَّنَ المجتمع الإسلامي الأول العظيم ـ مجتمع المؤاخاة والحب ـ آخى الرسول بين أبي سلمة وبين سعد بن خيثمة.

واستعرت نار الحرب بين المسلمين والمشركين فشهد أبو سلمة بدراً.

وفي أُحد دافع تحت اللواء العظيم، وجرح جرحاً شديداً، إذ قذفه أبو أسامة الجشمي بمعبلة في عضده ـ فمكث شهراً يداوي جرحه حتى اندمل الجرح على آثار مُسَمَّمةٍ وهو لا يعلم.

وأراد النبي أن يبعث سرية إلى بني أسد ـ فبعثه على رأسها ـ فغاب بضع عشرة ليلة ثم قدم المدينة فانتفض به الجرح وزاد النزيف، وعلم النبي بالأمر ـ فأسرع إلى صديقه الوفي وسمع النبي بكاء أهله، وفاضت نفسُ أبي سلمة فأغمض النبي عينيه ونام الرجل نومته الأخيرة بين يدي رسول اللّه ـ والرسول يردد: «اللّهم افْسَحْ له في قبره، وأَضِىءْ له فيه، وعَظِّمْ نوره واغفر ذنبه، اللّهم ارفع درجته في المهديين، واخلفه في تركته في الغابرين».

ولقد أُضيء القبر العظيم، وعظم النور الذي مات لأجله أبو سلمة، فانتشر الإسلام عظيماً في العالمين.

* * *

إن الفداء الحق، فداء من أقبلت عليه الحياة وملكها، لا فداء من أدبرت عنه وخرجت من يده، ـ فضحى وفدى ـ أما الأولون فهم الأموات الخالدون وأما الآخرون فهم الأموات أبداً ـ ومن ذلك الصنف الأول ـ كان أهل أحد.

* * *

سعد بن معاذ

«من رجل من أمتك مات الليلة اهتز لموته عرش اللّه؟»

«مَنْ رجلٌ من أمتك مات الليلة استبشر بموته أهل السماء؟»

تسامع أهل يثرب بخبر النبوة من النفر الذين عادوا من بطحاء مكة، وصَبَتْ نفوسهم الفِطرية نحو هذا النبع الجديد، فأخذوا يرتشفون منه، ويقبلون نحو مصعب بن عمير رسولَ رسولِ اللّه، فيسلمون بين يديه في منزل الصحابي الجليل أسعد بن زرارة ـ وقد خرج به أسعد يوماً يريد دار بني عبد الأشهل ودار بني ظفر، وجلسا على حائط واجتمع إليهما نفر ممن أسلم ـ وسمع سعد بن معاذ وأسيد بن حضير سيدا عبد الأشهل بهما ـ وكانا مشركين على دين قومهما فقال سعد لأسيد: «لا أبا لكَ انطلقْ إلى هذين الرجلين اللذين قد أتيا دارنا لِيُسفِّها ضعفاءنا فازجرهما، وانْهَهُما عن أن يأتيا دارنا، فإنه لولا أن أسعد بن زرارة من حيث قد علمت كفيتك ذلك هو ابن خالتي ولا أجد عليه مُقدَّماً». وهنا أخذ أسيد حربته ثم أقبل إليهما، فلما رآه أسعد بن زرارة، قال لمصعب بن عمير ـ هذا سيد قومه قد جاءك فأصدق اللّه فيه ـ قال مصعب: إنْ يجلس أُكلِّمه.

وهنا أقبل أسيد شاتماً صائحاً: ما جاء بكما إلينا تسفهان ضعفاءنا، اعتزلانا إن كانت لكما بأنفسكما حاجة. فقال له مصعب: «أَوَ تجلس فتسمع فإنْ رضيتَ أمراً قبلته، وإن كرهته كفَّ عنك ما تكره».

ـ أنصفت.

ثم ركز حربته، وجلس إليه، وبدأ الداعية العظيم يعرض عليه الإسلام، ويقرأ عليه القرآن. وقد أَحسَّ الاثنان أن الرجل أخذته روعة الحق وقداسته في إشراق وجهه وتَسَهُّلِه، ثم قال أخيراً: «ما أحسن هذا الكلام وأجمله، كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا في هذا الدين». قالا له:

ـ تغتسل فَتَطهَّر وتُطهر ثيابك ثم تشهد شهادة الحق ثم تصلي، فقام فاغتسل، وطهر ثوبيه وشهد شهادة الحق، ثم قام فركع ركعتين، ثم قال لهما: «إن ورائي رجلاً إن اتبعكما لم يتخلف عنه أحدٌ من قومه، وسأرسله إليكما الآن سعد بن معاذ».

ثم أخذ حربته ورجع إلى سعد وقومه، وهم جلوس في ناديهم، فلما نظر إليه سعد بن معاذ

مقبلاً قال:

ـ أحلف باللّه لقد جاءكم أسيد بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم، فلما وقف على النادي قال له سعد:

ـ ما فعلت؟

ـ كلمت الرجلين فواللّه ما رأيت بهما بأساً، وقد نهيتهما، فقالا: نفعل ما أحببت وقد حدث أن بني حارثة قد خرجوا إلى أسعد بن زرارة ليقتلوه ـ وذلك أنهم عرفوا أنه ابن خالتك ليحقروك.

فقام سعد كالأسد الكاسر مُغْضَباً مبادراً متخوفاً، فأخذ الحربة من يده ثم قال:

ـ واللّه ما أراك أغنيت شيئاً. ثم خرج إليهما فلما رآهما سعدٌ مطمئنين، عرف سعد أن أسيداً إنما أراد منه أن يسمع منهما، فوقف عليهما متشتماً، ثم قال لأسعد:

ـ يا أبا أمامة لولا ما بيني وبينك من القرابة ما رُمْتَ هذا مني، أتغشانا في دارنا بما نكره؟

وأسعد بن زرارة يُسِرُّ إلى مصعب بن عمير: «أي مصعب جاءك واللّه سيد من وراءه من قومه إن يتبعك لا يتخلف عنك منهم اثنان» وقد طلب منه مصعب أن يجلس، فجلس ليسمع كما جلس أسيد، وقد أشرق هذا الوجه العبوس وتَسهَّلَ وحملت الرياح إلى آطام المدينة وأرجاء مكة، أن سعد بن معاذ سيد المدينة قد أسلم وآمن، وأسلم معه أهله وآمنوا، فلقد ذهب إليهم قائلاً: يا بني عبد الأشهل كيف تعلمون أمري فيكم؟ قالوا: سَيِّدنا وأفضلنا رأياً وأَيمنُنا نَقيبةً.

قال: كلام رجالكم ونسائكم عليَّ حرام حتى تؤمنوا باللّه ورسوله، فما أمسى في دار بني عبد الأشهل رجل ولا امرأة إلا مسلماً أو مسلمة.

وحوَّل سعد بن معاذ مصعب بن عمير وأسعد بن زرارة إلى داره، فكانا يدعوان الناس إلى الإسلام فيها ـ وكان سعد وأسيد يكسران أصنام بني عبد الأشهل.

وهاجر النبي صلوات اللّه عليه إلى المدينة، وآخى بين سعد بن معاذ وسعد بن أبي وقاص. وهنا تبدو صفحة البذل والفداء التي كتبها آل معاذ في سفر الوجود.

وخرج المسلمون لعير قريش في بدر، وحمل لواء الأنصار سعد بن معاذ، فلما وصلوا علموا أن قريشاً خرجت لتحمي عِيرها. وهنا كانت مشكلة من أدق المشاهد.

لقد عاهد الأنصار على الدفاع عن الرسول في بلادهم ولكنهم لم يعاهدوه على أن يسيروا

معه لقتال عدوّ غير مُغير على بلادهم، فاستشار المهاجرين فوعدوه على بذل أنفسهم رخيصة في سبيل اللّه، وهنا نظر إلى الأنصار وقال:

ـ أشيروا عليَّ أيها الناس. فقال سعد بن معاذ:

ـ واللّه لكأنك تريدنا يا رسول اللّه. قال: أجل. قال سعد:

ـ فقد آمنا بك وصدقناك، وشهدنا أنَّ ما جئتَ به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، فامض يا رسول اللّه إن أردت فنحن معك، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضتَ بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلّفَ منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدوَّنا غداً، إنا لَصُبُرٌ في الحرب، صُدُقٌ في اللقاء، لعلَّ اللّه يُريكَ منا ما تَقرُّ به عينك، فَسِرْ بنا على بركة اللّه.

فَسُرَّ رسولُ اللّه ﷺ بقوله ذلك، ثم قال:

ـ سيروا وأبشروا فإن اللّه تعالى قد وعدني إحدى الطائفتين، واللّه لكأني الآن أنظر إلى مصارع القوم.

وسار المسلمون حتى وقفوا أمام ماء بدر، وهنا قال سعد بن معاذ: «يا نبيَّ اللّه ألا نبني لك عريشاً تكون فيه، ونُعِدُّ ركائبك، ثم نلقى عدونا، فإن أعزَّنا اللّه وأظهرنا على عدوِّنا كان ذلك ما أحببنا، وإن كانت الأخرى جلست على ركائبك فلحقت بمن وراءنا من قومنا، فقد تخلف عنك أقوام. يا نبيّ اللّه! ما نحن بأشدَّ لك حباً منهم، ولو ظنوا أنك تلقى حرباً ما تخلّفوا عنك، يمنعك اللّه بهم يُناصحونك ويجاهدون معك.

فأثنى عليه الرسول الأعظم، ودعا له بخير، وبني العريش واستعرت الحرب. وقام سعد على بابه متوشحاً السيف في نفر من الأنصار، يخافون عليه كرة العدو، وانتصر المسلمون، وبدأوا يأسرون الكافرين. وهنا رأى الرسول الأعظم في وجه سعد بن معاذ الكراهية لما يصنع الرجال. فقال له النبيّ صلوات اللّه عليه: واللّه لكأنك يا سعد تكره ما يصنع القوم؟ قال: أجل، واللّه يا رسول اللّه كانت أول وقعة أوقعها بأهل الشرك، فكان الإثخان في القتل بأهل الشرك أَحبَّ إليَّ من استبقاء الرجال.

واستدار العام وخرج المسلمون إلى أُحُد، وحدث الهرج في صفوف المسلمين. وهنا ثبت آل معاذ مع مَنْ ثبتَ حول الرسول صلوات اللّه عليه، فأما عمر بن معاذ فقتل. وأما سعد فقد كان

يجول ويصول كالأسد الكاسر.

وجاء الرسول صلوات اللّه وسلامه عليه إلى المدينة، ولم يأخذ أم أسعد هنداً بنت سماك ضَعْفٌ أو حزن، لقد بايعت رسول اللّه وقدمت له كل شيء، فما عادت ترى إلا محمداً صلوات اللّه وسلامه عليه.

وحل عام الخندق، إذ أقبلت قريش بخيلها ورَجِلِها تحاصرُ الرسولَ في عُقْرِ داره، غير أن الخندق وقف في وجوههم، فلم يجدوا مكاناً يدخلون منه المدينة إلا إذا حاصر اليهود الرسول عليه الصلاة والسلام من ناحية دورهم، وهنا لم يحفظ يهود بني قريظة عهدهم مع رسول اللّه ﷺ. فأرسل إليهم سعد بن معاذ سيد الأوس، وسعد بن عبادة سيد الخزرج ومعهما بعض الصحابة يُذكِّرونهم بعهودهم قائلاً: انطلقوا حتى تنظروا أَحَقٌّ ما بلغنا عن هؤلاء القوم أم لا؟ فإن كان حقاً فالحنوا لي لحناً أعرفه، ولا تَفُتُّوا في أعضاد الناس، وإن كانوا على الوفاء فيما بيننا وبينهم فاجهروا به للناس، فخرجوا حتى أتوهم فوجدوهم على أخبثِ ما بلغهم، وقالوا: مَنْ رسول اللّه، لا عهدَ بيننا وبين محمد ولا عقد. فشاتمهم سعد بن معاذ وشاتموه، وكان رجلاً فيه حِدَّةٌ وقوة. فقال له سعد بن عبادة: دع عنك مشاتمتهم. فما بيننا وبينهم أربى[1] من المشاتمة. ثم أقبلوا على الرسول صلوات اللّه وسلامه عليه وأخبروه.

عَمَّ البلاء على المسلمين، فرأى رسول اللّه ﷺ أن يرسل إلى سيدي غطفان يعطيهما ثلث ثمار المدينة، على أن يرجعا بمن معهما عنه وعن أصحابه، وجرى بينه وبينهما الصلح، وأرسل إلى سيدي الأوس والخزرج في ذلك فجاءاه، قال سعد بن معاذ: «يا رسول اللّه قد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك باللّه وعبادة الأوثان لا نعبد اللّه ولا نعرفه، وهم لا يطمعون منا ثمرة إلا قِرًى أو بيعاً، أَفحِينَ أكرمنا اللّه بالإسلام وهدانا ـ وأعزنا بك وبه، نعطيهم أموالنا ـ واللّه ما لنا بهذا من حاجة ـ واللّه لا نعطيهم إلا السيف، حتى يحكم اللّه بيننا وبينهم» قال رسول اللّه ﷺ: فأنت وذاك ـ فتناول سعد الصحيفة فمحا ما فيها من الكتاب ثم قال: لِيَجهدوا علينا.

حان هجوم المشركين الأكبر على المسلمين. تقول عائشة أم المؤمنين وكانت في حصن ابن حارثة يوم الخندق، وكان من أحرز حصون المدينة، وكانت أم سعد بن معاذ معها في الحصن: «وذلك قبل أن يُضربَ علينا الحجاب فسمعت وئيد الأرض، فالتفتُّ فإذا سعد بن معاذ ومعه ابن

---

(١) أربى: أكثر.

أخيه الحارث بن أوس يحمل مِجَنَّهُ وهو يرتجز:

لَبِّثْ قليلاً يُدركِ الهيجا حَمَل لا بأس بالموت إذا حان الأجل

فقالت له أمه: الحق يا بني فقد والله أخرت. فقالت لها عائشة: والله لَوددتُ أن درعَ سعد كانت أسبغَ[1] مما هي عليه. وأخذ سعد يناوش المشركين حتى رماه جهان بن قيس بن العرقة بسهم فقطع منه الأكحل وهو يقول: خذها وأنا ابن العرقة. فقال سعد: عَرَّقَ الله وجهك في النار. اللهم لا تُمتني حتى تشفيني من قريظة ـ فرقأ جرحه ـ وبعث الله الريح على المشركين ففروا ـ ورجعت بنو قريظة إلى صياصيهم وتحصنوا فيها.

أما سعد، فقد جُعلَ في خيمة في المسجد، تقوم على مداواته فيها رُفَيدة، سيدة من أسلم، وهبت نفسها لخدمة المرضى.

سار الرسول الأعظم إلى يهود بني قريظة ـ وقد كانت خيانتهم ستؤدي ـ لولا نصر الله ـ إلى القضاء على المسلمين والإسلام ـ وحاصرهم حتى خضعوا ونزلوا على حكمه ـ فحكم فيهم سعد بن معاذ قائلاً حين خاطبوه في ذلك:

ـ ألا ترضون يا معشر الأوس أن يحكم فيهم رجل منكم؟

ـ بلى.

ـ فذاك الأمر إلى سعد بن معاذ.

فأتاه قومه فحملوه على حمار، قد وطَّؤُوا له بوسادة من أدم، وكان رجلاً طويلاً جسيماً جميلاً. ثم أقبلوا معه إلى رسول الله ﷺ وهم يقولون: يا أبا عمرو أَحْسِنْ في مواليك، فإن رسول الله ﷺ إنما ولاك ذلك لتحسن فيهم. فلما أكثروا عليه قال: لقد آن لسعد أن لا تأخذه في الله لومة لائم.

فرجع بعض من كان معه من قومه إلى دار بني عبد الأشهل، فنعى لهم رجالَ بني قريظة قبل أن يصل إليهم سعد ويفصح عن حكمه فيهم. فلما وصل سعد إلى الرسول ﷺ، قال الرسول للمهاجرين وللأنصار: «قوموا إلى سيدكم» فقاموا إليه وقالوا: يا أبا عمرو إن رسول الله ﷺ قد ولاك أمرَ مواليك لتحكم فيهم.

---

(١) مِجَنَّهُ: ترسه الذي يحتمي به. لَبِّثْ: انتظر. الهيجا: الحرب. أسبغَ: أطولَ.

قال سعد: عليكم بذلك عهد اللّه وميثاقه أن الحكم فيها لما حكمته ـ نعم ـ وعلى مَنْ ههنا.

يشيرون بذلك إلى الناحية التي فيها رسول اللّه ﷺ، وهو معرض عنه إجلالاً له ـ فقال الرسول الأعظم: نعم. قال سعد: إني أحكم فيهم أن تُقتل الرجال وتقسم الأموال وتسبى الذراري والنساء. فقال الرسول: لقد حكمتَ فيهم بحكم اللّه من فوق سبع سماوات.

وكان هذا أعدل حكمٍ جزاءَ خيانتهم ونكالهم برسول اللّه.

ثم دعا اللّه سعدٌ: «اللهم إنك تعلم أنه ليس أحد أحب إليَّ أن أجاهد فيك من قوم كذبوا رسولك وأخرجوه. اللّهم فإني أظن أنك قد وضعت الحرب بيننا وبينهم ـ فإن كان بقي من حرب قريش شيء فأبقني لهم حتى أجاهدهم فيك، وإن كنت قد وضعت الحرب فيما بينا وبينهم فافجرها واجعل موتتي فيها».

وعاد إلى خيمة رفيدة ـ فانفجر جرحه ودخل عليه الرسول واعتنقه والدم ينقع في وجه الرسول ﷺ وما نقع الدم إلا ازداد منه قرباً. قائلاً: «اللّهم إن سعداً قد جاهد في سبيلك وصدق رسولك فتقبل روحه بخير ما تقبلت به روحاً». فلما سمع سعد كلام رسول اللّه ﷺ فتح عينيه ثم قال: «السلام عليكم يا رسول اللّه، أما أنا فإني أشهد أنك رسول اللّه». ثم حمله أهله إلى ديار بني عبد الأشهل، ليمرَّضَ فيهم.

وخرج رسول اللّه ﷺ، وأسدل الليل أسجافه[1] ونامت الكائنات. واستيقظ محمد صلوات اللّه وسلامه عليه، لقد أتاه جبريل منادياً:

«مَنْ رجلٌ من أمتك مات الليلة استبشر بموته أهل السماء».

وردد المنادي. ألا إن سعداً قد مات.

فقام الرسول إلى ديار بني عبد الأشهل وخرج معه الناس، وسار عليه الصلاة والسلام في سرعة حتى إن شسوعهم[2] لتنقطع من أرجلهم وأن أرديتهم لتقع عن عواتقهم فقال رجل: «يا رسول اللّه قد أجهدت الناس».

فقال عليه السلام: إني أخشى أن تسبقنا إليه الملائكة كما سبقتنا إلى حنظلة.

---

(١) أسجافه: ظُلماته.

(٢) شسوعهم: جمعُ شسع، وهو النَّعْل.

وكان الميت مُسَجّى على سريره ـ ودخل الرسول وحده، وسمعه الناس يقول: «هنيئاً لك أبا عمرو هنيئاً لك أبا عمرو ـ جزاك اللّه خيراً من سيد قوم، فقد أنجزت اللّه ما وعدته، وَلْيُنجزكَ اللّه ما وعدك». وأمه تبكي.

ويـــــل أمـــــك سعـــــدا صـــــرامـــــة وحبّـــــا

فقيل لها: «أتقولين الشعر على سعد»! فقال النبي ﷺ: دعوها فغيرها من الشعراء أكذب».

وحملوه إلى قبره فلما وضع فيه تغير وجه الرسول الأعظم وسبح ثلاثاً فسبَّح المسلمون ثلاثاً، حتى ارتج البقيع. ثم كبر الرسول ثلاثاً وكبر المسلمون حتى ارتج البقيع، فسئل عن ذلك فقيل: يا رسول اللّه رأينا بوجهك تغيراً، وسبحت ثلاثاً. فقال: «تضايق على صاحبكم قبره، وضمه ضمة لو نجا منها أحد لنجا سعد».

وجاءت أمه تنظر إليه في اللحد فردوها، فقال النبي صلوات اللّه عليه: دعوها، فأقبلت حتى نظرت إليه وهو في اللحد قبل أن يبنى عليه باللبن والتراب، فقالت: احتسبتك عند اللّه. ثم سوي القبر ورش عليه الماء.

مات سيد الأوس في السابعة والثلاثين من عمره وكانت حياته المثل الأعلى في التضحية والوفاء.

تقول عائشة: «وما كان أحد أشد فقداً على المسلمين بعد رسول اللّه ﷺ وصاحبيه أو أحدهما من سعد بن معاذ».

* * *

الأمراء...

صلـــى الإلـــه عليهـــم مـــن فتيـــة ... وسقـــى عظـــامَهُـــم الغمـــامُ المُسبـــل
صبـــروا بمـــؤتـــة لـــلإلـــه نفـــوسهـــم ... حـــذر الـــردى ومخـــافـــة أن ينكلـــوا

١ ـ زيد بن حارثة

«أنت مولاي ومني وأحبُّ القومِ إلي»

صحا الكلبيون على نغمات صوت حزين، يردد أغاني باكية حلوة.

بكيـتُ علـى زيـد ولـم أَدْرِ مـا فعـل ... أحـيٌّ فَيُـرجـى أم أتـى دونـه الأجـل
فـواللّـه مـا أدري وإنـي لسـائـل ... أَغـالـكَ بعـدي السهـلُ أم غـالـك الجبـل
ويـا ليـت شعـري هـل لـك الـدهـر أوبـة ... فحسبي مـن الـدنيـا رجـوعـك لـي بَجَلْ[1]

وسألت امرأة زوجها: مَنْ هذا المنشد؟

ـ إنه حارثة بن شراحيل يبكي ابنه زيداً. خرجت أمه سعدى بنت ثعلبة معه تزور قومها بني معن، فأغارت خيل لبني القيس بن جسر فمروا على أبيات بني معن فاحتملوا زيداً ـ وقد كان يومئذ غلاماً يافعاً ـ ولم يعرف أبوه بعد شيئاً عنه.

ألا تسمعين؟ لقد عاد الرجل إلى إنشاده:

تُـذكِّـرنيـه الشمـس عنـد طلـوعهـا ... وتعـرض ذكـراه إذا غَـربُهـا أفَـلْ
وإن هبـت الأرواح هَيَّجْـنَ ذِكـره ... فيـا طـول مـا حـزنـي عليـه ومـا وَجَـلْ
سـأعمـل نـص العيـس فـي الأرض جـاهـداً ... ولا أسـأم التطـواف أو تسـأمْ الإبـل
حيـاتـي أو تـأتـي عَلَـيَّ منيتـي ... فكـل امـرىء فـانٍ وإن غَـرَّهُ الأمـل

وقام شيخ عجوز نحوه:

---

(١) الأجل: الموت. أغالك: اغتالك. أوبة: رجوعاً.

ـ حنانيك أيها الرجل بعض ما أنتَ فيه.

ـ لقد فرى كَبدي.

وكان موسم الحج قد أقبل، فحج قوم من كلب، وأمام أعينهم دائماً صورة هذا الرجل الباكي حارثة بن شراحيل، ومضوا يطوفون بالبيت.

وهناك رأوا زيداً فعرفهم وعرفوه، وأقبل عليهم فقال: بَلِّغوا أهلي هذه الأبيات فإني أعلم أنهم قد جزعوا عليَّ:

ألا أبلغوا قومي وإن كنتُ نائياً ... بأني قطين البيت عند المشاعر

فكفُّوا عن الوجد الذي قد شَجَاكُم ... ولا تعملوا في الأرض نص الأباعر

فإني بحمد اللّه في خير أسرة ... كرام معد كابراً بعد كابر

وعلموا منه أن خاطفيه وافوا به سوق عكاظ، فعرضوه للبيع، فاشتراه منهم حكيم بن حزام بن خويلد لعمته خديجة بنت خويلد بأربعمائة درهم، فلما تزوجها شريف قريش محمد بن عبد اللّه، وهبته له.

مكتبة الرمحي أحمد

* * *

وانطلق الكلبيون وأعلموا أباه، فخرج حارثة وأخوه كعب بفدائه، وقدما مكة، فسألا عن النبي صلوات اللّه وسلامه عليه، فدخلا عليه وقالا:

ـ يا ابن عبد اللّه، يا ابن عبد المطلب، يا ابن هاشم، يا ابن سيد قومه؛ أنتم أهل الحرم وجيرانه، وعند بيته تَفكُّون العاني وتطعمون الأسير؛ جئنا في ابننا، فامْنُنْ علينا وأحسن إلينا في فدائه، فإنا سندفع لك الفداء.

ـ من هو؟

ـ زيد بن حارثة.

ـ فهل لكم غير ذلك؟

ـ ما هو؟

ـ دعوه فَخيِّروه، فإن اختاركم فهو لكم بغير فداء، وإن اختارني فواللّه ما أنا بالذي أختار على من اختارني.

ـ قد زدتنا على النَّصَفِ وأحسنتَ. فدعاه النبي ﷺ وقال: هل تعرف هؤلاء؟

ـ نعم.

ـ من هما؟

هذا أبي، وهذا عمي.

ـ فأنا مَنْ علمتَ ورأيت صحبتي لك، فاخترني أو اخترهما.

ـ ما أنا بالذي أختار عليك أحداً، أنت مني بمكانة الأب والأم.

فقالا: ويحك يا زيد أتختار العبودية على الحرية، وعلى أبيك وعمك وأهل بيتك.

ـ نعم إني قد رأيت من الرجل شيئاً ما أنا بالذي أختار عليه أحداً أبداً.

فلما رأى رسول ﷺ ذلك أخرجه إلى الحِجْر فقال:

ـ يا مَنْ حضر، اشهدوا أن زيداً ابني أرثه ويرثني.

فلما رأى ذلك أبوه وعمه طابت أنفسهما وانصرفا.

ونزلت الرسالة على محمد صلوات اللّه وسلامه عليه، فكان زيد أول من آمن به ـ ولم يترك النبي صلوات اللّه وسلامه عليه لحظة، فأحبه حباً شديداً.

وأَذِنَ النبيُّ ﷺ في الهجرة لأصحابه. وهاجر زيد، ونزل في المدينة على سعد بن خيثمة؛ ولما هاجر الرسول الأعظم إلى يثرب وآخى بين المسلمين كان حمزة سيد الشهداء وزيد أخوين في اللّه. ثم آخى النبي الأعظم بعد مقتل حمزة بينه وبين أسيد بن حضير.

وقامت المعارك بين المسلمين والمشركين، وكان زيد من الرماة المذكورين، فشهد بدراً وأُحداً. واستخلفه الرسول ﷺ على المدينة حين خرج إلى المُرَيسيع، وشهد الخندق والحديبية وحنيناً. وخرج زيد أميرَ سبع سرايا أولها القردة، فاعترض لعير قريش فأصابها، وأفلت أبو سفيان منهم، وأسر زيدٌ فراتَ بن حيان العجلي، وقدم بالعير على النبي ﷺ، وكانت أول غنيمة كبيرة غنمها المسلمون.

قالت عائشة: «ما بعث رسول ﷺ زيد بن حارثة في جيش قط إلا أَمَّره عليهم، ولو بقي بعده لاستخلفه».

وأراد الرسول الأعظم أن يغزو الروم، فجمع ثلاثة آلاف من المسلمين، وعقد لزيد، وقدمه

على الأمراء الآخرين قائلاً: «عليكم زيد بن حارثة، فإن أصيب زيد فجعفر بن أبي طالب، فإن أصيب جعفر فعبد اللّه بن رواحة». فوقف جعفر فقال: «يا رسول اللّه ما كنت أرغبُ أن تستعمل علي زيداً» فقال: «أمضه فإنك لا تدري أيّ ذلك خير».

وسار المسلمون وعلى رأسهم زيد حتى وصلوا إلى مؤتة، وهناك علموا بتجمع جيوش الروم في أكثر من مائة ألف وهم ثلاثة آلاف فقط، وهناك تردد الناس قليلاً. ولكن ما لبث الأمير أن اندفع يقاتل الروم، فما تلك الحياة بجانب تلك الغاية التي يريدها. وتناولته السيوف بالطعن وهو يقاتل دون راية رسول اللّه ﷺ.

وأخيراً قتل الأمير.

أيتها النفس الكبيرة، لقد عرف النبي الأعظم حقيقتك، فرفعك من رتبة العبودية إلى رتبة البنوة، ثم أَمَّرَكَ على المسلمين، ثم رفعك مرة أخرى إلى رتبة الشهداء والصالحين.

وفي المدينة وقف النبي ﷺ يقول: «استغفروا لزيد ـ لقد دخل الجنة وهو يسعى» ثم أتى أهله فجهشت بنت زيد في وجهه فبكى حتى انتحب.

فقال له سعد بن عبادة: يا رسول اللّه ما هذا!؟

ـ هذا شوق الحبيب إلى الحبيب.

* * *

٢ـ جعفر بن أبي طالب

«لقد رأيت جعفراً في الجنة له جناحان
مُضَرَّجان بالدماء مصبوغ القوادم»

مات عبد المطلب سيد مكة، وترك لابنه أبي طالب هذا المجد العريض المُؤَثَّل ـ ولكن السيد الجديد كان يقاسي الفقر وشظف العيش ـ وكان ما ينوء به كاهله كثرة الأولاد. وقد مرت بمكة أيام جَدْبٍ عِجاف، وأصابت قريشاً أزمة شديدة. فقال رسول اللّه ﷺ للعباس عمه، وكان من أيسر بني هاشم: يا عباس إن أخاك أبا طالب كثير العيال، وقد أصاب الناس ما ترى من هذه الأزمة، فانطلق بنا إليه فلنخفف عنه من عياله، آخذ من بنيه رجلاً، وتأخذ أنت رجلاً، فنكفلهما عنه. فقال العباس: نعم. فانطلقا حتى أتيا أبا طالب، فقالا: إنا نريد أن نخفف عنك من عيالك حتى ينكشف عن الناس ما هم فيه. فقال لهما: إذا تركتما لي عقيلاً فاصنعا ما شئتما. فأخذ رسول اللّه ﷺ علياً فضمه إليه، وأخذ العباس جعفراً فضمه إليه.

وقد بقي جعفر عند العباس يعيش في ترف وثراء حتى بعث اللّه نبيه، فأسلم جعفر قبل أن يدخل رسول اللّه ﷺ دار الأرقم ويدعو فيها. واستغنى حينئذ عن عمه. وأصاب جعفراً من قريش أذى كثير، دعاه إلى الخروج إلى الحبشة في الهجرة الثانية، وكان هناك أمير المهاجرين.

وبعثت قريش إلى النجاشي عبد اللّه بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص، يطلبان تسليم أولئك النفر الذين خرجوا على دين اللات والعزى. فدعا النجاشي جعفراً وسأله عن هذا الدين الذي يدينون به، فأجابه إجابة صريحة واضحة، رأى النجاشي بعدها ألا يسلمهم وأن يمنعهم في أرضه، ورد إلى الرسولين هدايا قريش. فلما عاوده عمرو بن العاص طلب منه أن يسأل جعفراً عن قول الإسلام في ابن مريم: إنه ليس إلا عبداً أنعم اللّه عليه. أجابه جعفر أيضاً في صراحة واضحة أبى النجاشي بعدها إلا أن يقيموا في أرضه آمنين سالمين.

وقضوا في الحبشة ما أراد لهم اللّه حتى هاجر رسول اللّه ﷺ إلى المدينة وبعث إلى النجاشي عمرو بن أمية يطلب منه إعادة المسلمين إلى وطنهم. وسارع جعفر وصحبه إلى المدينة، والنبي صلوات اللّه عليه بخيبر سنة سبع من الهجرة.

ورجع النبي ﷺ من خيبر، فتلقاه جعفر، فالتزمه النبي صلوات اللّه وسلامه عليه، وقَبَّل ما بين عينيه وقال: «ما أدري بأيهما أفرح: بقدوم جعفر، أم بفتح خيبر». وآخى بينه وبين معاذ بن جبل، وعاش سيد شباب بني هاشم في المدينة مدة قصيرة الزمن دُعي بعدها إلى الجهاد في مؤتة فلم يتردد ولم يهن، بل ودع زوجه وأطفاله، وخرج غازياً. وتقابلوا مع الروم في مؤتة وقتل أميرهم زيد بن حارثة أمام أعينهم. فحمل اللواء جعفر فتى بني هاشم، فجاءه الشيطان ومَنَّاه الحياة الدنيا، وكرَّه له الموت، فقال جعفر: «الآن حين استحكم الإيمان في قلوب المؤمنين تُمَنِّيني الدنيا» ولم يتردد لحظة بل اقتحم عن فرس له شقراء وهو يقول:

يـا حَبَّـذا الجنـةُ واقتـرابُهَـا طيبـةً وبـارداً شـرابهـا

والـرومُ روم قـد دنـا عـذابهـا كـافـرة بعيـدة أنسـابهـا

علـيّ إنْ لاقيتهـا ضِـرَابهـا

ثم انقض على الروم يقتل فيهم يميناً وشمالاً، ولكن ما لبثت سيوفهم أن قطعت يمينه، فأخذ اللواء بشماله فقطعت، فاحتضنه بعضديه، فضربوه بسيوفهم، حتى قطعوه نصفين، وأقبل عليه المسلمون فوجدوا فيما بقي من بدنه تسعين ضربة، بين طعنةٍ برمح وضربة بسيف.

مات فتى بني هاشم في الثالثة والثلاثين من عمره، بعد أن ترك وراءه أبناء لا متاع لهم في الحياة ولا مال. وكانت زوجه (أسماء بنت عميس) وقتئذ تنظف أولادها وتعطرهم. فأتاهم الرسول الأعظم وقال: ائتني ببني جعفر، فأتته بهم فَتشمَّمهم، وذرفت عيناه، فقالت: يا رسول اللّه بأبي أنت وأمي! ما يبكيك، أَبلغكَ عن جعفر وأصحابه شيء.

ـ أصيبوا اليوم.

فقامت تصيح، واجتمعت النساء، فخرج نبي اللّه صلوات اللّه عليه وقال: «لا تغفلوا آل جعفر من أن تصنعوا لهم طعاماً، فإنهم قد شُغلوا بأمر صاحبهم» ووقف صلوات اللّه عليه يقول في وسط المسلمين: «لقد رأيته في الجنة له جناحان مُضرَّجان بالدماء مصبوغ القوادم».

وأتت أسماء إلى رسول اللّه فذكرت يُتْمَهُم فقال: «العَيلةَ تخافين عليهم، وأنا وليهم في الدنيا والآخرة»؟

* * *

٣ـ عبد الله بن رواحة
الأمير الشاعر

«نعم الرجل عبد الله بن رواحة»

سارت القافلة من يثرب إلى مكة، وفيها سبعون من بني الأوس والخزرج، ذهبوا إلى الجنوب ليبايعوا الرسول الأعظم على نصرته حتى الموت، فكانوا هم بعد ذلك الأنصار الذين آوَوا، والذين نصروا، والذين آثروا رسول الله وصحبه على أنفسهم وعلى أولادهم ونسائهم.

وفي العقبة بايعوا الرسول الأعظم على أن يمنعوه مما يمنعون منه نساءهم وأبناءهم. ثم طلب منهم أن يُخرجوا إليه اثني عشر نقيباً، ليكونوا على قومهم بما فيهم، فأخرج بنو الحارث بن الخزرج عبد الله بن رواحة نقيباً لهم. وكان عبد الله كبير القدر في الجاهلية، وكان كاتباً والكتابة قليلة في العرب. واستقبل الأنصار الرسول صلوات الله عليه حين هجرته، وكانوا له العشيرة الأوفياء، وفني عبد الله بن رواحة في دعوة الله وطاعة رسوله. أتى النبي الكريم وهو يخطب فسمعه يقول: اجلسوا، فجلس مكانه خارجاً من المسجد حتى فرغ النبي ﷺ من خطبته، فبلغ ذلك النبي صلوات الله وسلامه عليه، فقال له: زادك الله حرصاً على طواعية الله وطواعية رسوله. ولما آذن القتال كان عبد الله أول خارج إلى الغزو، وأول قافل ذَبَّ عن رسول الله بلسانه، وحضر المشاهد كلها، وأرسله رسول الله ﷺ إلى العالية ليبشر أهلها بوقعة بدر، ودخل النبي الأعظم بعد سنوات الجهاد مكة في عمرة القضاء وعبد الله بن رواحة آخذ بزمام ناقته يقول:

خلُّوا بني الكفار عن سبيله ... خلوا فكلُّ الخير في رسوله

يا رب إني مؤمن بقِيله ... أعرف حق الله في قبوله

فقال عمر: يا ابن رواحة، في حرم الله وبين يدي رسول الله ﷺ هذا الشعر! فقال: خَلِّ عنه يا عمر، فوالذي نفسي بيده لَكلامهُ أشدُّ عليهم من وَقْعِ النَّبل، ثم قال:

يا رب لولا أنتَ ما اهتدينا ... ولا تصدَّقنا ولا صلينا

فأنزِلَنْ سكينةً علينا ... وثبِّتِ الأقدامَ إن لاقينا

إن الكُفّار قد بَغَوْا علينا

فقال النبي ﷺ: اللهم ارحمه، فقال عمر: وجبت، ولما نزلت: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ﴾ قال عبد الله إني منهم. فأنزل الله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [الشعراء: ٢٢٤ ـ ٢٢٧].

وبعثه رسول الله ﷺ في ثلاثين راكباً إلى أسير بن قرام اليهودي بخيبر فقتله، وبعثه بعد فتح خيبر فخرص عليهم. يقول أبو الدرداء: أعوذ بالله أن يأتي عليَّ يوم لا أذكر فيه عبد الله بن رواحة، كان إذا لقيني مُقبِلاً ضربني بين ثديي، وإذا لقيني مُدْبِراً ضرب بين كتفي!! ثم يقول: يا عويمر، تعال ساعة فلنجلس فنذكُر الله ما شاء، ثم يقول: يا عويمر هذه مجالس الإيمان. وسألوا امرأته عنه فقالت: كان إذا أراد أن يخرج من بيته صلى ركعتين، وإذا دخل صلى ركعتين، لا يدع ذلك. وكان أول خارج إلى الغزو وآخر قافل.

* * *

وتهيأ المسلمون للخروج إلى مؤتة، فلما وَدَّع عبد الله بن رواحة من ودَّع من أمراء رسول الله ﷺ بكى، فقالوا: ما يبكيك يا ابن رواحة:

ـ أما والله ما بي حُبُّ الدنيا، ولا صبابة إليها، ولكني سمعت رسول الله ﷺ يقرأ: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ [مريم: ٧١] فلست أدري كيف لي بالصدر بعد الورود!!

فقال المسلمون: صَحِبكمُ الله ورَدَّكم إلينا صالحين.

فقال ابن رواحة:

لكنني أسأل الرحمن مغفرةً ... وضربةً ذاتَ فَرْع تقذف الزبدا

أو طعنة بِيَدَيْ حَرَّان مُجْهزةً ... بحربة تنفذ الأحشاء والكبدا

حتى يقولوا إذا مرُّوا على جدثي ... أرشده اللّه من غاز وقد رشدا

ثم أتى رسول الله ﷺ فودَّعه ثم قال:

أنت الرسول فمن يُحرم نوافله ... والوجه منه أَزرى به القَدرُ

فَثبَّتَ اللّهُ ما آتاك من حسن ... في المرسلين ونصراً كالذي نُصروا

إني تفرَّست فيك الخير نافلة ... فراسة خالفت فيك الذي نظروا

ثم خرج القوم وخرج رسول الله ﷺ يشيعهم حتى إذا ودَّعهم وانصرف عنهم قال عبد الله

ابن رواحة:

خَلَفَ السلام على امرىءٍ وَدَّعْتهُ ... في النخل خير مشيِّعٍ وخليلِ

ثم سار الجيش، وكان في رحال عبد اللّه بن رواحة زيد بن أرقم، وكان يتيماً له، وقد أردفه على حقيبة رحله، وقد سمعه ليلة وهو ينشد:

إذا أدنيتني وحملتَ رَحْلي ... مسيرة أربع بعد الحساء

فشأنك أنعمي وخلاك ذمي ... ولا أرجع إلى أصلي ورائي

وجاء المؤمنون وغادروني ... بأرض الشام مشهور الثواء

ورَدَّك كلُّ ذي نسب قريب ... إلى الرحمن منقطع الإخاء

هنالك لا أبالي طَلْعَ بَعْلٍ ... ولا نخل أسافلها سواء

فلما سمعه زيد بكى، فخفقه بالدرة، وقال: «ما عليك أن يرزقني اللّه الشهادة وترجع بين شعبتي الرحل».

ومضى المسلمون حتى نزلوا معان من أرض الشام، فبلغ الناس أن هرقل قد نزل مآب من أرض البلقاء في مائة ألف من الروم ثم مثلهم من المستعربين، فلما علم ذلك المسلمون أقاموا على معان ليلتين يفكرون في أمرهم، وقالوا نكتب إلى رسول اللّه ﷺ نُخبره بعدد عدونا، فإما أن يمدنا بالرجال وإما أن يأمرنا بأمره فنمضي له ـ فشجع عبد اللّه بن رواحة الناس وقال: «يا قوم، واللّه إن التي تكرهون لَلَّتي خرجتم تطلبون: الشهادة، وما تقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة ولا نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا اللّه به فانطلقوا فإنما هي إحدى الحُسْنيين: إما ظهور، وإما شهادة» فقال الناس: قد واللّه صدق ابن رواحة.

فمضى الناس حتى إذا كانوا بقرية مشارف، دنا العدو منهم، وانحاز المسلمون إلى مؤتة ثم بدأ ـ فهجم زيد بن حارثة فقُتل ـ ثم اقتحم جعفر الروم فقتل ـ فلما قتل جعفر دعا الناس عبد اللّه بن رواحة وهو في جانب العسكر فتقدم فقال وهو يخاطب نفسه:

يا نفسُ إلا تُقتلي تَموتي ... هذا حياضُ الموت قد صَليتِ

وما تمنيتِ فقد لقيتِ ... إنْ تفعلي فِعلَهُمَا هُديتِ

وإنْ تأخرت فقد شَقيتِ

يعني زيداً وجعفراً، ثم قال: يا نفس إلى أي شيء تتوقين؟ ـ إلى امرأتي؟ فهي طالق ـ إلى غلماني؟ فهم أحرار ـ وإلى صحن حائط؟ فهو للّه ورسوله، ثم أخذ اللواء واستقبل فقاتل برهة.. ثم عاد. وأخذ يؤنب نفسه على تردده كل التأنيب. يلوم نفسه على لحظة صغيرة تَرَدُّدَها فعاد يقول:

يـا نفـس مـالـك تكـرهيـن الجنـة أُقســم بـــاللّـــه لَتَنْـــزِلَنَّـــهْ
طـــائعـــةً أو لَتُكْـــرهنـــه فطـــالمـــا كنـــت مطمئنـــة
هـــل أنـــت إلا نطفـــة فـــي شَنَّـــه قـد أجلـب النـاس وشـدوا الـرنـة

فلما نزل للقتال طعن، فاستقبل القوم بيده فدلك به وجهه، ثم صرع بين الصفين حتى قتل.

* * *

واجتمع المهاجرون والأنصار فقال رسول اللّه ﷺ: «أخذ زيد بن حارثة الراية فقاتل حتى قتل شهيداً، ثم أخذها جعفر بن أبي طالب فقاتل حتى قتل شهيداً...» ثم صمت رسول اللّه ﷺ حتى تغيرت وجوه الأنصار وظنوا أنْ كان في عبد اللّه بن رواحة ما يَكرهون فقال: «ثم أخذها عبد اللّه بن رواحة فقاتل حتى قتل شهيداً. ثم لقد رُفعوا إلى الجنة على أَسِرَّةٍ من ذهب فرأيتُ في سرير عبد اللّه بن رواحة ازوراراً عن سريري صاحبيه فقلت عَمَّ هذا؟ فقيل لي: مضيا وتردد عبد اللّه بعض التردد.

* * *

على ماء الرجيع

[ما قام الإسلام إلا على هذا النوع من الإيثار الرفيع. والإيثار ما هو؟ إنه ليس إلا فناء في رسالة محمد فلا يرى غيرها إلا سراباً ووهماً. وإنه ليس إلا تخلياً عن الوجود الذاتي، وترفعاً عنه لحياة أخرى كلها خير إلهي. فلم يخشَ الفرد منهم عذاباً ولا وصَباً، إنما تعلو نفسه عن كل تلك الدنايا، ويصغر في عينه عالم الأرض، محلقاً هائماً نحو عالم البقاء، وهكذا كان صحابة الرسول الأُول...]

ونادى المنادي في مسجد الكوفة يقول: ألا مَنْ يريد أن يسمع زياد بن عبد اللّه الصوفي[1] وهو يقص عن هؤلاء الذين ذهبوا في نضرة الحياة، وخُيِّروا فاختاروا بلا تردد ولا إحجام؟

واجتمع الناس حول زياد، وتصدر زياد المجلس، وهدأ الناس جميعاً.

أصاب الرسولَ الأعظم من عشيرته وقومه ما أصابه من أذى وألم وإرهاق. وكأني أستعيد تلك الصور القاسية، وألمحه أمامي متقلباً على الأذى صابراً فيه، وهاجر النبي الكريم إلى يثرب وهناك نصره اللّه بأسود الأنصار، يحمون دياره، ويدافعون عن حوزته، ويمنعونه مما منعوا نساءهم وأولادهم وأنفسهم.

وقامت بدر وأُحد. وهُزم المسلمون في هذه الوقعة الأخيرة، وتلمس أعداؤهم الفرص للإيقاع بهم والقضاء عليهم، وفشا النفاق في المدينة وكثر.

وفي تلك الأثناء أقبل على الرسول الكريم رهط من «عُضَل» يعرضون نصرهم وإسلامهم على الرسول فقالوا:

يا رسول اللّه إن فينا إسلاماً، فابعث معنا نفراً من أصحابك يفقهوننا في الدين ويُقرئوننا القرآن ويعلموننا شرائع الإسلام ـ واستبشر المسلمون خيراً، وأرسل الرسول فيهم ستة من أعلام أصحابه. من البدريين الذين أيدتهم الملائكة وأطل عليهم اللّه المتعالي وقال لهم: «افعلوا ما

---

(١) زياد بن عبد اللّه الصوفي شخصية مُتخيَّلة وضع المؤلف قصة أبناء الرجيع الحقيقية على لسانه.

شئتم لقد غفرت لكم». وكان هؤلاء الستة من البدريين ومن السابقين الأولين من الأنصار والمهاجرين: مرثد بن أبي مرثد الغنوي، وخالد بن البكير الليثي، وعاصم بن ثابت بن أبي الأقلح، وخبيب بن عدي، وزيد بن الدثنة وعبد الله بن طارق؛ وأمَّر رسول الله ﷺ مرثد بن أبي مرثد، ومضوا حتى إذا كانوا على الرجيع ـ ماء لهذيل ـ غدروا بهم، فاستصرخوا عليهم هذيلاً فلم يَرُعِ القومَ في الرحال غير الرجال يحيطون بهم من كل جانب، وبأيديهم السيوف، قد غرهم فأخذ الصحابة الأطهار سيوفهم ليقاتلوهم فقال لهم أعداؤهم:

ـ إنا والله ما نريد قتلكم، ولكننا نريد أن نصيب بكم شيئاً من أهل مكة، ولكم عهدُ الله وميثاقه أن لا نقتلكم.

* * *

ولكأني أراهم الآن. أرى عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح وهو يتذكر ليلة بدر، وفيها قال النبي ﷺ للأنصار: «كيف تقاتلون»؟ فقام عاصم فأخذ القوس والنبل وقال: «إذا كان القوم قريباً من مائتي ذراع كان الرمي، وإذا دنوا حتى تنالهم الرماح كانت المداعسة حتى تَقصَّف، فإذا تقصفت وضعناها وأخذنا بالسيوف، وكانت المجالدة؛ فقال النبي ﷺ: «هكذا نزلت الحرب ـ من قاتل فليقاتل كما يقاتل عاصم» فكأني أرى عاصماً يتذكر يوم الرجيع هذا. ويتذكر كيف أبلى يوم بدر. وكيف كان له يوم أحد، يوم ثبت مع الرسول الكريم ثبوت الأطواد، وكان له القدح المعلى في القتال، فقتل كثيرين من قريش منهم: مسافح بن طلحة وأخاه الجلاس بن طلحة ـ كلاهما يقذف بسهمه عليهما فيأتي أمه سلافة فتضع رأسه في حجرها فتقول ـ يا بني من أصابك؟ ـ فيقول: سمعت رجلاً حين رماني وهو يقول: خذها وأنا ابن أبي الأقلح، فنذرت إنْ مكنها الله من رأس عاصم أن تشرب فيه الخمر. لكأني بعاصم يفكر في ذلك كله. ويفكر في عهده الرهيب الذي أعطاه لله أن لا يمسه مشرك ولا يمس مشركاً نجساً، فكيف ينزل إذن في ذمة مشرك غادر؟ لا دون هذا الجِلاد والطِّعان.

* * *

ومرثد بن أبي مرثد. حليف حمزة بن عبد المطلب وأحد عباهلة بدر ـ كيف يرضى لنفسه الهوان والذل في جوار مشرك؟ ـ وخالد بن البكير وقد اصطفاه رسول الله مع عبد الله بن جحش في رهط المهاجرين في أول سرية، كيف يعطي بيده. لا، أبداً ـ لقد صاح ثلاثتهم:

«واللّه لا نقبل من مشرك عهداً ولا عقداً» واستلوا سيوفهم وعاصم على رأسهم يناوش القوم مرتجزاً:

ما علَّتي وأنا جلد نابل والقوس فيها وتر عنابل

وتزلُّ عن صفحتها المعابل الموت حق والحياة باطل

وكل ما حم الإله نازل بالمرء والمرء إليه آيلُ

إن لم أقاتلكم فأمي هابلُ

ودار القتال عنيفاً شديداً بين جَمٍّ غفير من المشركين، وثلاثة من المسلمين. فقتل عاصم وهو يقول: اللّهم إني حميت دينك أول نهاري فاحم لي لحمي آخر نهاري، وقتل مرثد وقتل خالد في ميعة الصبا وشرخ الحياة، فقد كان في الرابعة والثلاثين.

آن إذن لسلافة بنت سعد أن تشرب الخمر في رأس عاصم، واقترب المشركون من هذيل من جسد عاصم ليقطعوا رأسه ليبيعونها من سلافة بأبخس الأثمان، ولكن لم يعلموا أن اللّه منع جسده منهم ـ فلقد أحاطت الدُّبر بعاصم فما استطاع مشرك أن يقترب منه فقالوا: دعوه حتى يمسي فيذهب عنه فنأخذه. وأمطرت السماء وبعث اللّه الوادي فاحتمل عاصماً معه.

* * *

أما زيد بن الدثنة وخبيب بن عدي وعبد اللّه بن طارق فقد رَقُّوا ولانوا، فأسروهم، ثم خرجوا بهم إلى مكة ليبيعوهم بها حتى إذا كانوا بالظهران ناحية قرب مكة صاح عبد اللّه بن طارق: «واللّه إن لي في عاصم وصاحبيه لأسوة» فانتزع يده من القيد ثم أخذ سيفه فاستأخر عنه القوم ورموه بالحجارة حتى قتلوه ـ فقبروه بالظهران.

أما زيد وخبيب فقد قدموا بهما مكة، فباعوهما من قريش بأسيرين من هذيل، كانا بمكة، فابتاع حِجر بن أبي أهاب التميمي حليف بني نوفل لعقبة بن الحرث بن عامر خبيباً ليقتله بأبيه. وابتاع صفوان بن أمية زيداً ليقتله بأبيه أمية بن خلف. وسجن الأول في بيت ماوية مولاة حجر بن أبي أصاب، والثاني في بيت صفوان. وكانت حياة كل منهما في تلك الفترة التي قضياها في مكة سُمواً على الحياة كلها وإعجازاً للقرشيين، ولكن ما كان لتلك القلوب أن تلين. كانت كالحجارة أو أشد قسوة.

وكانا يقضيان نهارهما في العبادة، وليلهما في التهجد. وقد رفض زيد وخبيب أن يأكلا مما

لم يُذكر اسمُ اللّه عليه ـ فكانا يتناولان اللبن. وتقول ماوية لنا بعد ذلك: «كان خبيب عندي حبيساً في بيتي، فلقد اطلعت عليه يوماً، وكان في يده قِطف من عنب مثل رأس الرجل، يأكل منه، وما أعلم في أرض اللّه عنباً يؤكل. .».

وقد طلب منها يوماً، حين عرف موعد قتله، موسى يتطهر بها للقتل، قالت: فأعطيت غلاماً من الحي الموسى، فقلت: ادخل بها على هذا الرجل البيت. ثم قالت: فواللّه ما هو إلا أن ولى الغلام بها إليه حتى قلت لنفسي ماذا صنعت؟ أصاب واللّه الرجلُ ثأره بقتل هذا الغلام فيكون رجلاً برجل. فلما ناوله الموسى أخذها من يده ثم عطف وحنا عليه، وقال: لعمرك ما خافت أمك غدري حين بعثتك بهذه الحديدة، ثم أخذ يلاعبه ويناغيه. وهنا أقبلت المرأة فنظر إليها خبيب وقال: أتحسبين أني أقتله، إن ديني ينهى عن الغِيلة.

وخرج يزيد وخبيب إلى القتل وفي وسط المدينة تقابل الشهيدان، ومع كل واحد منهما جماعة من قريش فتعانقا، وأوصى كل منهما الآخر بالصبر على ما أصابه، ثم ساروا بزيد إلى التنعيم ليقتل هناك وسار خلفه طائفة من أهل قريش من الرجال والنساء والصبية وهناك قال له أبو سفيان:

ـ أنشدك اللّه يا زيد، أَتحبُّ أن محمداً عندنا الآن في مكانك نضرب عنقه وأنك في أهلك؟

قال:

ـ واللّه ما أحب أن محمداً الآن في مكانه الذي هو فيه تُصيبه شوكةٌ تؤذيه وأنا جالس في أهلي.

قال أبو سفيان: ما رأيت من الناس أحداً يحب أحداً كحب أصحاب محمد محمداً. وفي تلك الآونة انقض عليه نسطاس فقتله.

* * *

ثم ساروا بخبيب بعده إلى التنعيم أيضاً ليصلبوه وهناك قال لهم:

ـ إنْ رأيتم أن تَدَعوني حتى أركع ركعتين فافعلوا.

ـ دونك فاركع.

فركع ركعتين أَتمَّهما وأحسنهما، ثم أقبل على القوم فقال: أما واللّه لولا أن تظنوا أني إنما طَوَّلتُ جزعاً من القتل لاستكثرتُ من الصلاة، فكان خبيب أول من سنَّ هاتين الركعتين عند القتل

للمسلمين، ثم رفعوه على خشبة وأوثقوه ثم قالوا له: ارجع عن الإسلام نخلي سبيلك. فقال ـ لا واللّه ـ ما أحب أن أرجع عن الإسلام وأن لي ما في الأرض جميعاً.

ـ ارجع يا خبيب.

ـ لا أرجع أبداً.

ـ أَمَا واللاتِ والعُزّى لئن لم تفعل لنقتلنك.

ـ إن قتلي في اللّه لقليل.

وجعلوا وجهه من حيث جاء، فقال: أما صرفكم وجهي عن القبلة فإن اللّه يقول: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٥]، ثم قال: اللّهم إني لا أرى إلا وجه عدو، اللّهم إنه ليس ههنا أحد يبلغ رسولك عني السلام فبلّغْهُ عني أنت السلام.

وفي تلك اللحظة اقتربوا منه بالرماح وقد أتوا بأربعين من أبناء قتلى بدر، وأعطوهم الرماح، ثم قالوا: هذا الذي قتل آباءكم ببدر، فقال: اللّهم إنا قد بلغنا رسالة رسولك فأبلغه الغداة ما يُصنع بنا. اللّهم أَحصِهم عدداً، واقتلهم بَدَداً، ولا تغادر منهم أحداً.

وهنا ألقى معاوية بن أبي سفيان وكان من بين القرشيين نفسه إلى الأرض فَرَقاً[1] من دعوة خبيب، وهرب حكيم بن حزام، واختفى جبير بن مطعم. ثم بدأوا يطعنونه فاستدار إلى الكعبة فقال: «الحمد للّه الذي جعل وجهي نحو قبلته التي رضي لنفسه ولنبيّه وللمؤمنين». ثم عاودوا طعنه مدة ساعة وهو ينادي: «لا إله إلا اللّه محمد رسول اللّه».

* * *

وكان الرسول الكريم في المدينة بين صحبه، فأخذته غيمة كما كان يأخذه إذا نزل عليه الوحي، ثم قال: هذا جبريل يقرئني من خبيب السلام، وتركه أهل مكة مصلوباً أياماً عدة؛ أرسل الرسول الكريم بعدها عمرو بن أبي أمية الضمري في سرية لقتل أبي سفيان، وقد غافل عمرو الحراس واحتمل جسد خبيب، ولكن ما لبث القرشيون أن كروا عليه، فترك الجثة ومضى، ولكن قبل أن يغيب رأى الأرض تنفرج فرجة وتبتلعه.

تلك هي قصة أهل الرجيع.

---

(١) بدداً: متفرقين. فَرَقاً: خوفاً.

وما قام الإسلام إلا على هذا النوع من الإيثار الرفيع، والإيثار ما هو؟ إنه ليس إلا فناء في رسالة محمد، فلا يرى غيرها إلا سراباً ووهماً. إنه ليس تَخليّاً عن الوجود الذاتي، وترفعاً عنه لحياة أخرى كلها خير إلهي، فلم يخشَ الفردُ منهم عذاباً ولا وَصَباً، إنما تعلو نفسه عن كل تلك الدنايا، وتصغر في عينه الأرض، محلقاً هائماً نحو عالم البقاء.

* * *

أولاد أبي أحيحة...

«أقبلوا على الإسلام والدنيا عنه في إدبار فجاهدوا وتركوا الدنيا يوم كانت على الإسلام في إقبال فماتوا واستشهدوا»

-١-

ووقفت الحلقات المنتشرة في البيت العتيق إجلالاً لسيد بني عبد شمس: أبي أحيحة «سعيد بن العاص بن أمية بن عبد شمس» وحوله أولاده الكثيرون. وتطلعت الأعين إلى الرجل في إجلال، وهو يسير في وسط تلك الكوكبة من أولاده. يرفلون جميعاً في الدِّمَقْس ويزين رؤوسهم الريش ويفوح من أعطافهم الطِّيب. وأبو أحيحة في مقدمتهم يَعْتَمُّ بعمامة أخذ أهل مكة على أنفسهم ألا يعتموا بلونها إجلالاً له وإعظاماً. وكان يقال له «ذو التاج».

وقضى أبو أحيحة وقتاً في البيت العتيق يتسامر مع أشراف قريش: أبي سفيان وأبي جهل وأبي طالب وغيرهم. وانتشر أولاده في حلقات القرشيين يتسامرون ويقصون ما شاء لهم. حتى إذا ما أدلج الليل عادوا إلى بيتهم مع أبيهم. حياة ناعمة يحيونها ويحياها معهم القرشيون يأخذون من الحياة نعيمها وترفها. ويقبل كل منهم على شهواتها ولذاتها. ألم يكن هذا كله أمنية القرشيين جميعاً. لا رادع ولا قانون إلا قانون الصحراء الجاهلي. هذا القانون الذي لا يدعمه نظام كامل مستقر إنما كانت تنظمه شهوات الإنسان ونوازعه، شهوات الإنسان القوي ونوازعه. فلم يكن هناك ثَمَّةَ عدل ولا عدالة، بل سيطر القوي على الضعيف. أي تطبيق للعدل تستطيع الدنيا أن تشهده، إنْ لم يكن هناك إيمان به؟ وأي عدل في الدنيا إذا لم يكن هناك مصدر ثابت يحدده ويميزه؟ فليست الفضائل السامية والمثل العليا من عمل الإنسان المخلوق التعس، الجمرة المشتعلة من الأثرة والرذائل، بل من عمل يوازي تلك المثل أو ممن هو أرفع منها. لم يخطر هذا على فكر القرشيين. بل كانوا في عوالمهم المترفة، حتى جابهتهم حرب الفجار، تلك الحرب التي اصْطَلُوا نارها في الأشهر الحُرم، والتي كانت واحدة من تلك الحروب التي كانت تثار بين بطون العرب وتمتد السنين الطوال. ألم يكن هذا نتيجة لاختلال أوضاعهم الجاهلية التي لم تعرف مقاييس العدالة، ولم تنظم علاقة الإنسان بالإنسان وعلاقة الإنسان باللّه، يدفعه تنظيم الأولى إلى احترام الوجود الإنساني، وتدفعه الثانية إلى احترام الوجود الإلهي.

وكان لا بد لأشراف قريش أن يشاركوا في هذه الحرب وأن يلقوا فيها بأنفسهم مدافعين عن حقوقهم. وخرج أبو أحيحة «سعيد بن العاص» ومعه أولاده مَنْ كَبِرَ منهم يقاتل، ومن صغر يرمي بالنبل، والتحمت قريش وهوازن التحاماً شديداً قتل فيه «أحيحة» بن سعيد بن العاص. وبعد صفحات داميات من القتال وضعت الحرب أوزارها وعاد القرشيون إلى مكة وفي قلوب أقارب من قُتل من أبنائها غُصَصٌ وإحن وآلام[1]

وعاد أبو أحيحة إلى مكة وذهب إلى أملاكه بالظريبة يتلمس في الهدوء والعزلة سكناً لنفسه الحزينة. فقد قتل في الحرب أكبر أولاده وأعزهم عليه، وفارقه إلى الأبد، وذهب ولكن ما هذا الذهاب؟ ما هو؟ وما حقيقته؟ ما وراء هذا الموت؟ واجتمع العرب في عكاظ، ومضى إليها أبو أحيحة في أولاده، وفي تلك اللحظة اجتمع العرب على رجل امتطى جملاً أحمر هو قُسُّ بن ساعدة وهو يقول: «أيها الناس اجتمعوا. ثم اسمعوا وعُوا. مَنْ عاش مات، ومن مات فات. وكل ما هو آتٍ آت. يا معشر إياد. أين ثمود وعاد! وأين الآباء والأجداد!؟ وأين المعروف الذي لم يُشكر؟ وأين الظلم الذي لم ينكر؟ أقسم قس قسماً حقاً إن للّه لديناً هو أرضى عنده من دينكم». ثم أنشد قس:

في الذاهبين الأولين من القرون لنا بصائر
لما رأيت مواردا للموت ليس لها مصادر
ورأيت قومي نحوها يمضي الأصاغرُ والأكابر
لا يرجع الماضي إليَّ ولا يبقى من الباقين غابر
أيقنت أنيَ لا محا لةَ حيث صار القومُ صائر

سمعها العرب جميعاً ووعتها قلوبهم، لكن نسوها جميعاً حين طوتهم الحياة بنعيمها ولذائذها، فهذه الحياة هي المستقر النهائي طالما امتلأت بالشهوات، وهي الوحي الحقيقي طالما سادت فيها النزعات البهيمية التي تنطلق ولا ضابط ولا رقيب، ولكن أبا أحيحة سمعها فذكر ابنه وذكر مُضِيَّهُ نحو هذا الموت. أخذ يفكر ويفكر. ويفكر بعمق، ثم أنسته الدنيا بنعيمها كل شيء.

---

(١) الإحن: جمع إحنة وهي الأحقاد.

الإنسان. لا يبقى ولا يستمر. إنه يمضي على مدرجة الطريق حيناً من الدهر ثم يختفي. أطوار من الخلائق. تنتظم في الدنيا ثم يطويها العدم، إنا نصنع ونبني. والإنسان أليس صُنعاً وبناءً، فمن الصانع والبناء؟ كائنات الوجود، الحياة كلها تبدو، ثم تخبو، أي سر هذا، وأية مشكلة؟ الكون والفناء، الصنع والصانع. أيتها الشمس المشرقة هل فيك أسرار الوجود؟ ولكن أنتِ أيضاً يتحكم فيك قانونُ الحياة والموت فتشرقين وتغربين، حياتك وموتك يدوران، ولكن سيأتي اليوم الذي تفنين فيه، فموتك اليومي إعداد لموتك الأخير.

أيتها النسائم هُبِّي على الجبال والأودية طيبة رقيقة، واحملي في ثناياك للناس سر الوجود. قد طال العهد على جزيرة العرب وهي غارقة في الحيرة والضلال. قد طال العهد على النصارى في بِيَعِهم وهم يعبدون الأيقونات والصور. قد ضَلَّ شعب بني إسرائيل فغيَّرَ وبَدل. قد عبد الفُرْسُ في شرق الأرض النار والطاغوت.

أيتها الأنسام هبي على الوجود رحمة وضياء وخُطِّي للإنسان طريق الخالدين. ولو بَعدَ هذه الحياة. أي تفسير للإنسانية إذا كان منتهاها الموت؟! وأي أمل للإنسان في الإنسان إذا كان منتهاه الفناء بعد أعوام قصار؟ فلتكن إذن بدونك أيتها النسائم مأساة نرسمها على مسرح الوجود نُصَوِّر فيها آلامنا، فإنها ليست إلا آلاماً فحسب، وتلك المأساة أملنا في وسط تلك الآلام، إنا نرى فيها بؤسنا فنسكن إليه، ونعهد فيه قِصَر الحياة. وأي شيء يُسري عن النفس آلامها أكثر من تصويرها لتلك الآلام وتحليلها. إيه أيتها النسائم مُرِّي علينا وابعثي بترياقكِ الشافي. وسكنت كائنات الحياة. في ظلمات ليل أدلجت ظلماته، وانتشرت سُجُفه. لقد مرت النسائم، نسائم الوحي من أعلى السماء إلى جبال «فاران»[1] حيث كان هناك رجل ينتظر، ينتظر طويلاً، فمسَّت قلبه واستكنَّتْ فيه، ثم نقشت على صدره سر الوجود، وسر الممات، وسمعت قريش صوت محمد من على الصَّفا يناديها ويدعوها: إني أنا محمد بن عبد الله، رسول الله وعبده، أدعوكم إلى عبادة الواحد الأحد، أحمل إليكم من بديع الأرض والسماوات مصائركم وغاياتكم، وأقدم لكم من لَدُنْه غاية تلك المعالم ونهايتها، وما استمع إليه إلا امرأة وفتى. أما الآخرون الذين تلمسوا سر الوجود، فلما جاءهم ولوا مُدبرين لما جاءهم.

مكتبة الرمحي أحمد ٨٢

---

(١) الترياق: الدواء، وسُجفه: ظُلمته، وجبال فاران: هي جبال مكة.

-٣-

الأصنام تنتشر هنا وهناك في رحبة البيت العتيق. ولكنها تبدو اليوم باهتة ساهمة عليها قَترةٌ مرعبة. قد خال القرشيون هذا حين دخلوا بيت اللّه. وطالعتهم وجوه تلك الأصنام. وكانت تشبه وجوههم في هذا اليوم.

إنَّ قَترةً وسهوماً يَعلُوها وحيرة ترتسم عليها وتَسِمها بميسمها. واجتمعت قريش تنظر في هذا الحدث الأعظم الذي نزل بساحتها. قد كشف محمد بن عبد اللّه غرورهم وضلالهم، ولكنهم تمسكوا بهذا الضلال وهذا الغرور. قد أبان لهم أن هذه الأصنام لن تغني عنهم من اللّه شيئاً؛ ولكنهم تعلقوا بها ففي ضياعها ضياع سلطانهم وملكهم، وكان أكثرهم عداوة لرسول اللّه «سعيد بن العاص» كان يفكر، كيف يُضِلُّ محمد بن عبد اللّه ـ وهو في أعلى الذرى من قريش ـ قريشاً عن آلهتها؟ كيف ينكر اللات والعزى؟ وكيف يسلبهما هذا الملك الذي لهما؟ واصباحَ قريش إن نجح في دعوته. ثم إنه يحدثهم عن مصائرهم عما بعد الحياة من حياة، وما في تلك الحياة من عذاب لمن طغى وبغى، وما في تلك الحياة من ثواب لمن اتقى وعمل صالحاً؛ وحياتهم كلها طغيان وإرهاب، أبداً إنهم لن يؤمنوا برسالته، ولتكن أنت يا أبا أحيحة شراً مستطيراً عليه.

وتدور الأيام، ومحمد رسول اللّه يدعو في مَنعةٍ من قومه بني عبد مناف يُسَفِّهُ آلهتهم ويسخر من دينهم، وأبو أحيحة سعيد بن العاص دائب على عداوته. وعاد يوماً إلى بيته والتمس أولاده فوجدهم جميعاً ما عدا أكبر أولاده خالد بن سعيد فسأل عنه، فلم يجب إخوته.

-٤-

إيه يا رسالة اللّه! أي قلوب تفتحت إليك؟ وأي عقول آمنت بك؟ أنت الحقيقة التي خفيت عن الناس أماداً طوالاً إيه يا رسالة اللّه! أي عقبات تعترض طريقك وأنت تكنسين من الدنيا أقذارها لتعود إلى فطرتها الأولى التي فطر اللّه؟ إيه يا رسالة اللّه حدثيني من آمن بك في فجر عهدك وأنت تحملين للبشرية جوهر البشرية.

وفي شِعبٍ من شعاب جبل مكة انتظمت صلاة أبدية يقوم بها النبي الأعظم وقد وقف وراءه امرأة وفتى.

أما المرأة. فكانت خديجة بنت خويلد.

وأما الفتى. فكان علي بن أبي طالب.

وهذا هو المجتمع الإسلامي الذي أشرق عليه النور، والدنيا كلها في ظلام، والذي تفجرت عليه ينابيع الحق، والباطل يسود الكون كله.

إنهم صور الجلال الذي لا ينقضي، ومثال الجمال الحق الذي لا يزول، إليه تقبل الإنسانية حين يظلم عليها الكون.. وإليه يُهرع الظامئون يَرْتوون من نوره!.

إنه المجتمع الخالد. الذي تشرق خَلَسات النور على الناس منه فينعمون بها ويمرحون في رحابها. إنه المجتمع الإنساني الخالد الذي أضاء نوره وديان جزيرة العرب، ثم أضاء العالم بأجمعه، فأسعد الأشقياء ومحا بؤس البائسين. إنه المجتمع الإنساني الذي أَطلَّ اللّه عليه وظَلَّلته ملائكته، إنه استعان بقوة اللّه على قوة البشر، واستعان البشر بقوتهم عليه. فماذا كان؟ نَدعُ التاريخَ يقصُّ.

قد آمن أبو بكر ـ بن قحافة ـ تاجر قريش وعالم أنسابها. وتسامع القرشيون، فكأن النار الموقدة تحرق أفئدتهم إحراقاً فازداد المجتمع الإسلامي الأول عضواً. فتكوَّنَ المجتمعُ من سيد الأكوان وانتظم وراءه:

امرأة،

وفتى،

ورجل.

واحتمل هذا الرجل من آلام قريش وعدوانها ما لم يتصوره عقل، ولكنه آمن، ولقد فهم منذ أول يوم أن الإيمان بذل وفداء، فبذل وفدى. فَخَطَّ لنفسه صحائف الخلود الباقيات. وآمن زيد بن حارثة مولى رسول اللّه. فزاد المجتمع فرداً آخر ـ كتب اللّه له بعدُ الإمارةَ على جيش المسلمين، آمن رجل ثالث هو «خالد بن سعيد بن العاص» فوامصيبة قريش إن علمت ـ قد آمن ابن أبي أحيحة سيد بني عبد شمس. كيف آمن وأسلم؟! فلندع التاريخ يقص.

كان أبو أحيحة أشد الناس على المسلمين، وقد جمع أولاده يوماً وسار إلى المسجد، وفي المسجد سمع خالد بن سعيد أخبار محمد بن عبد اللّه ودعوته فأصاخ بقلبه واستمع، ثم عاد مع أبيه إلى بيته. ونام أولاد أحيحة جميعاً ما عدا قلباً واحداً، كان يفكر في هذا الليل البهيم ويطيل التفكير، ويرى عداوة قريش لمحمد ﷺ وتأليب أبيه عليه، ويرى تسفيه محمد لهذه الأصنام التي

لا تضر ولا تنفع ـ يا لها من حيرة تأخذ عليه كل مأخذ! ويغمض الكرى أجفانه أخيراً. ولكنه يشعر أنه ما زال مستيقظاً، ويرى أنه واقف على شفير نار لا حدود لها ولا آفاق ـ ويرى أباه يدفعه إليها ـ ولكن ما لبث أن أخذ رجل بِحِقْوَيْه فلا يقع فيها، أما هذا الرجل فكان سيد بني عبد مناف «محمداً رسول اللّه» وقام خالد فزعاً يصيح: أحلف باللّه إن هذه لرؤيا حق. ثم يخرج هائماً، وتشاء إرادة اللّه أن يقابل أبا بكر فيخبره بشكوك نفسه وما رآه في نومه، فيقول له أبو بكر ـ أريد بك خيراً ـ هذا رسول اللّه ﷺ فاتبعه ـ فإنك ستتبعه وتدخل معه في الإسلام الذي يحجزك من أن تقع فيها وأبوك واقع فيها.

ويسرع خالد إلى رسول اللّه بأجياد ويقول له:

ـ يا محمد إلامَ تدعو؟

ـ إلى اللّه وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله، وخَلْعِ ما أنتَ عليه من عبادة حجر لا يسمع ولا يبصر، ولا يضر ولا ينفع، ولا يدري من عبده ممن لم يعبده.

ـ فإني أشهد أن لا إله إلا اللّه وأشهد أنك رسول اللّه.

ولكم كان فرحُ رسول اللّه بإسلامه شديداً! وعلمت قريش، ومَرَّ ذو التاج في حلقاتها فلم يجرؤ أحد على إخباره. فسأل أولاده عنه، وألح في السؤال، وأخيراً علم أبو أحيحة أن خالداً أسلم، فأظلمت الدنيا في عينيه. وكان هناك في شعاب من الجبل سيد الأكوان ووراءه:

امرأة،

وفتى،

ورجال ثلاثة: أبو بكر وزيد وخالد.

هذا هو المجتمع الإسلامي الأول الذي فاض على الدنيا جلالاً وحقاً.

ـ٥ـ

﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ * سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٣ ـ ٢٤].

أسلم خالد وآمن. كاد أبو أحيحة يفقد رشده. ثم صاح في أولاده فوقفوا صامتين: «إليّ بخالد» فذهب أولاده في طلبه ومعهم مولى أبي أحيحة رافع. وفي شعاب الجبل كان المجتمع الإسلامي العظيم منتظماً، وسكت الإخوان حتى أتم الرسول وصحبه صلاتهم، فنادوا أخاهم

وأخبروه بأن أباه يريد رؤيته، فاستأذن خالد من رسول اللّه وسار معهم. ووقف أبو أحيحة كالوحش الكاسر يزمجر ويُرعد، تنهمر سيل شتائمه، ثم يهجم على ولده بمقرعة في يده فيشج رأسه شجاً منكراً. وخالد هادىء ودمه ينهمر. وأخيراً سأله الرجل:

ـ اتبعتَ محمداً وأنت ترى خلافه قومه، وما جاء به من عيب آلهتهم وعيب من مضى من آبائهم.

ـ فقد صدق واللّه واتبعته.

فصاح فيه أبو أحيحة: اذهب يا لُكَع حيث شئتَ، فواللّه لأمنعنك القوت.

ـ إن منعتني فإن اللّه يرزقني ما أعيش به.

فطلب من أولاده أن يخرجوه فأخرجوه، ثم قال لهم:

ـ لا يكلمه أحد منكم إلا صنعت به ما صنعت به:

وانصرف الشريف القرشي إلى رسول اللّه آمناً مطمئناً ـ وإنه ليعلم أنه ليس له من المال إلا مال أبيه. ولا من موارد العيش إلا أملاك أبي أحيحة. فماذا يفعل الشريف المترف؟ لن يفعل إلا ما يقدره اللّه. وليحدثْ له ما شاء اللّه أن يُحدثه وليصبرْ صبرَ المؤمنين. والتزم خالد رسول اللّه يسير معه حيث سار ويلتمس منه القوة على الخلق أجمعين. يمضي معه حيث مضى ويقيم معه حيث يقيم. قد امتلأ قلبه بالجلال، فهام به ولم يعد في قلبه موضع لحياة أو لعيش.

وأحس أبو أحيحة أن ابنه ما زال يحيا ويعيش، فدعا أولاده ومواليه وطلب إليهم أن يأتوا به، فأتوا به. فحبسه الأيام الطوال فلم يهن، فمنع عنه الطعام والماء ثلاثاً فلم يهن، فوضعه في حر مكة ثلاثاً ما يذوق ماء فلم يهن، فأعاده إلى الحبس. ولكن خالداً تلمس السبيل حتى خرج واختفى في نواحي مكة. وأذن رسول اللّه لأصحابه بالهجرة إلى الحبشة فهاجر في الهجرة الثانية، فخرج مع زوجه إلى الحبشة.

ـ٦ـ

علم «ذو التاج» بهجرة ولده. وكم غاظه أن يقف خالد في وجه كبريائه؛ تلك الكبرياء التي لم تَذِلّ قط ـ أذلّها خالد بإيمانه ـ وكم كان يشعر أنه ضئيل بجانب هذا العزم الخارق. ولكنه لم يكن يعلم أن خالداً التمس من موطن النبوة من القوة ما تتزلزل به الجبال ولا يتزلزل. شعر أبو أحيحة بانتصار ابنه عليه. انتصار ابنه عليه في كل مواقفه معه، انتصر عليه يوم منعه المال والحياة

فلم يأبه، وانتصر عليه يومَ حَبسه، وانتصر عليه يوم أجاعه فلم يأبه ـ والنصر لا يكون مادياً فحسب ـ بل قد يكون من النصر المعنوي ما يزلزل أشد الناس طغياناً. أحس أبو أحيحة بكل هذه المعاني ـ فقال: لأعتزلن في مالي، لا أسمع شتم آبائي ولا عيب آلهتي، وهو أحب إليَّ من القيام مع هؤلاء الصُّباة، ثم هجر من مكة إلى ماله بضاحية له هي الظريبة قريباً من الطائف. وكان في بيت أبي أحيحة قلب آخر يفكر. هو قلب عمرو بن سعيد، سمع بدعوة محمد رسول اللّه. ورأى إيمان أخيه بها، وثباته عليها، وتَحمُّله أقسى الآلام في سبيلها فلم يهن ولم يجزع. رأى عمرو كل هذا فتفكر في دعوة رسول اللّه فوجد فيها الحق الأبلج. كم كان عمرو يعطف على أخيه من ناحية وعلى دعوة الإسلام من ناحية، طالما مد يده إلى أخيه، وطالما منع عن المسلمين الأذى ـ ولكن كل هذا لن يجدي شيئاً، لا بد من الإيمان بهذه الدعوة مهما كلفه هذا من ثمن، وإنه ليعلم أن أباه يُحبه الحب كله ويؤثره بهذا الحب دون إخوته حتى إنه ليقول:

ألا ليت شعري عنك يا عمرو سائلاً ... إذا شَبَّ واشتدت يداه وسلَّما

أتترك أمر القوم فيه بلابلاً ... وتكشف غيظاً كان في الصدر موجما

يعلم عمرو كل هذا ـ ولكن دعوة اللّه أحب من كل شيء ـ من الأب والأم والعشيرة والولد. فما خرج أبو أحيحة إلى ماله بالظريبة حتى أعلن عمرو إسلامه ـ ولحق بخالد في أرض الحبشة مهاجراً في سبيل اللّه ورسوله، وتلمس أبو أحيحة أبناءه مرة أخرى وسأل عن عمرو. وأخيراً. أخبروه أنه أسلم وهاجر إلى الحبشة. فمرض الرجل مدة طويلة قال في خلالها: لئن رفعني اللّه من مرضي هذا لا يُعبد إلهُ ابن أبي كبشة ببطن مكة. ويعلم خالد بن سعيد بهذا من مهاجرٍ حضر إلى الحبشة ـ يعلم خالد بن سعيد هذا فيتوجه نحو ربه قائلاً:

ـ اللهم لا ترفعه واستجاب اللّه الدعاء: فأمات أبو أحيحة ومضى إلى جهنم خالداً فيها.

ـ ٧ ـ

مات أبو أحيحة سيد قومه، فخلفه في مكان الصدارة منهم أبان بن سعيد، وكان أبان في حياة أبيه وبعد مماته شراً على المسلمين، يصل بهم من الأذى ما لا يطاق، وكان إلى جانب هذا ينفث في إخوته نيران الحقد على المسلمين، ولكن كان في البيت قلب يفكر. يفكر في دعوة اللّه ورسالة نبيه. وفي فرصة من الفرص امتلأ القلب ضياء. فمر الحكم بن سعيد بن العاص من ديار بني عبد شمس إلى الرسول الأعظم لكي يسلم بين يديه، ويقول له الرسول:

ـ ما اسمك؟

ـ الحكم.

ـ بل أنت عبد اللّه.

ويدعوه الرسول إلى الهجرة، فيهاجر عبد اللّه إلى المدينة، وكان عبد اللّه يكتب في الجاهلية. فأمره الرسول أن يعلم أطفال المدينة الكتابة، ودأب عبد اللّه على عمله. حتى دعا منادي القتال، والتحم المسلمون بالقرشيين في بدر، وكان بين القرشيين المشركين أولاد أبي أحيحة الذين لم يسلموا: أبان والعاص وعبيدة وسعيد.

وتنجلي المعركة عن قتل العاص وعبيدة كافرين، وتعود قريش منهزمة، ويعود أبان وفي قلبه من الحقد ما لا يتصوره إنسان.

ـ ٨ ـ

وتسير القافلة شمالاً، وفيها عير قريش، وعلى رأسها أبان بن سعيد وقد خرج تاجراً إلى الشام، ومرت القافلة ببلاد عدة في فلسطين حتى أناخت بجوار دير منعزل لراهب ترك الحياة الدنيا وزينتها، ونامت القافلة جميعها. وهدأت الأصوات في الصحراء، ولكن أبان مُسهَّدٌ واجم لا يدرك لوجومه وسهاده سراً. فقام يتمشى بجوار القافلة في الصحراء لعل نسيمها يُسَرِّي عن نفسه هذا القلق والوجوم، إن بينه وبين قريش آلاف آلاف الفراسخ. وفي قريش خلاَّنه وعشيرته. آه ولكن الحبشة البعيدة. وكم يفصلها الآن عنه من آماد! في الحبشة خالد وعمرو، وفي المدينة الحكم أو عبد اللّه كما يدعوه أصحاب محمد الآن، تفرقوا في كل مكان، فيا لها من مأساة تحدث الآن في جزيرة العرب، ومحمد ما أمره؟ إن أصحابه ليلتفون حوله ويفدونه بكل شيء، فما سر هذه القوة الغريبة؟! إنه ليعلم في إخوته العقل والسداد، فهل يعقل أن يتابعوا محمداً لو كان محمد ساحراً أو كاذباً؟ أبداً. ما محمد بساحر ولا كذاب، وطالما بعث إليه إخوته يدعونه إلى الإسلام. ولكن أبان ما لبث أن تمالك نفسه حين أحس أنه يسير في طريق الإسلام، تمالك نفسه وهو الذي نذر حياته بعد أبيه للقضاء عليهم، فشارك في كل حرب ضدهم ـ ولكن شعوراً خفياً يدعوه ثانية أن يفكر أن محمداً صادق. ثم يعاوده تفكيره الوثني. وفي تلك اللحظة ـ لمح أبان في البِيعة الصغيرة المهجورة التي تقع أمامه ضوء خافتاً، وأحس بحركة خفيفة ضئيلة، ثم ما لبث الباب أن فتح ـ وخرج منه شيخ وقور. وهو راهب البيعة الصغيرة، وأخذ الراهب يصلي في الخلاء ويتململ باكياً. وهنا ساءل أبان نفسه في دهشة ـ ألا إن لهؤلاء من العلم الشيء الكثير، ألا يستطيع هذا الرجل المتعبد الذي ترك الدنيا أن يُدلَّه على شيء؟ سار إليه أبان ـ فلم يُرَعْ ولم يَخَفْ من هذا

الطارق الغريب فقد تعود الرهبان منظر هؤلاء الرحالة العرب، وحياه أبان ـ فلما سأله الراهب عن حاجته. قال: إني رجل من قريش وإن رجلاً منا خرج فينا يزعم أنه رسول اللّه، أرسله مثل ما أرسل موسى وعيسى، فانتبه الراهب وحَدَّقَ في أبان في عمق، وقال له: ما اسم صاحبكم؟ فقال: محمد، قال الراهب: فإني أصفه لك؛ وأخذ يذكر صفة النبي صفة صفة ـ فصاح أبان: هو كذلك.

قال الراهب: واللّه ليظهرن على الأرض، يا بني اقرأ على الرجل الصالح السلام، وبكى ثم عاد إلى صومعته.

وذهب أبان إلى الشام ثم عاد، وقد تغير فيه كل شيء، فسأل عن الرسول ولم يعد يذكر عنه ما كان يذكره أولاً وفي تلك اللحظة أقبل المسلمون لدخول مكة حاجين عام الحديبية ـ وحدث ما حدث من إرسال عثمان بن عفان رسولاً من رسول اللّه إلى مكة، فأجاره أبان وحمله على فرسه وقال: اسلك من مكة حيث شئت آمناً، وعاد الرسول من مكة. فلما عاد منها تبعه أبان فأسلم وآمن. وأراد رسول اللّه أن يبعث سرية إلى نجد فأرسل أميراً لها أبان بن سعيد.

-٩-

وآنَ لمهاجري الحبشة أن يعودوا، ويعود فيهم ابنا أبي أحيحة خالد وعمرو بعد أن قضيا حوالي عشرين عاماً في مهجرهما تحمَّلا فيه ما تحملا من آلام الغربة وقلة العيش، وقد قدما على الرسول وهو في خيبر وفي المسلمين أخوهما أبان وعبد اللّه، وأسهم الرسول لهما، وقال خالد: يا رسول اللّه لم نشهد معك بدراً، فقال الرسول: يا خالد أَوَ ما ترضى أن يكون للناس هجرة ولكم هجرتان.

وفي هذه الأثناء، هاجر سعيد بن سعيد بن العاص إلى المدينة، مهاجراً إلى اللّه ورسوله، وبإسلام سعيد أسلم أولاد أبي أحيحة جميعاً وتمت كلمة ربك الحُسْنى عليهم، وانْضَوَوْا جميعاً تحت اللواء، لواء رسول اللّه، فيا دورة القدر!

وخرجوا معه إلى عمرة القضاء، ثم حين أذن اللّه لرسوله بالفتح، وسار جيش المسلمين، كان أولاد أبي أحيحة جميعاً في الكتيبة الخضراء، كتيبة المهاجرين والأنصار. فلما فتحت مكة استعمل رسول اللّه سعيداً على سوق مكة، فلما خرج الرسول إلى حنين خرج معه أولاد أبي أحيحة وأبلوا أحسن البلاء، وسار الرسول إلى الطائف، والتحم المؤمنون هناك مع الكفرة التحاماً هائلاً، وهناك كتب أولاد أبي أحيحة صفحة من صفحات الفداء، فقد قتل في الطائف سعيد بن سعيد بن العاص.

-١٠-

وأقام أولاد أبي أحيحة مع رسول اللّه بالمدينة، وكان خالد كاتبه وحواريَّه، وقد كتب خالد له كتاب أهل الطائف لوفد ثقيف، وهو الذي سعى في الصلح بينهم وبين رسول اللّه، ثم حضروا مع رسول اللّه تبوك، ورأى رسول اللّه ﷺ فيهم تلك الصفات النادرة، فبعث بأبان أميراً على البحرين لما عزل عنها العلاء بن الحضرمي، كذلك بعث بخالد أميراً على اليمن، كما بعث بعمرو أميراً على تيماء وخيبر. أما عبد اللّه فبقي في المدينة مع رسول اللّه ﷺ، واستمر أولاد أبي أحيحة الثلاثة أمراء لرسول اللّه حتى رفعه إليه رب السماوات.

مات خير البشر صلوات اللّه عليه، وبكاه المسلمون، وفي مقدمتهم أولاد أبي أحيحة أشد البكاء، وتركوا إماراتهم وعادوا، فذهب إليهم أبو بكر وقال: ما لكم رجعتم؟ ما أحد أحق بالعمل من عمال رسول اللّه ﷺ، فأجابوه: نحن بنو أبي أحيحة لا نعمل لأحد بعد رسول اللّه.

واعتزلوا بيعة أبي بكر، وتخلفوا عنها، وذهبوا إلى علي وعثمان وقالوا لهما: «أرضيتم يا عبد مناف أن يلي هذا الأمر عليكم غيركم، إنكم لطوال الشجر طيبو الثمر ونحن تَبَعٌ لكم» وعلمها أبو بكر فلم يُسرَّها في نفسه وأسرَّها عمر، وأقام أولاد أبي أحيحة ثلاثة أشهر فما بايعوا حتى بايع بنو هاشم، فمر أبو بكر على خالد مظهراً، وهو في داره فسلم، فقال له خالد: أتحب أن أبايعك؟! فقال: أحب أن تدخل في صلح ما دخل فيه المسلمون. قال: موعدك العشية أبايعك؛ فجاء وأبو بكر على المنبر فبايعه، ثم بايعه بنو أحيحة جميعاً.

وكان العرب قد ارتدوا عن الإسلام، ووقفت المدينة ومكة مدافعة عن دين اللّه، وخرج «عبد اللّه بن العاص»، وانهزم المسلمون في اليمامة أول الأمر ثم ما لبثوا أن شدوا، وقاتل المهاجرون والأنصار أشد القتال وفي مقدمتهم عبد اللّه، حتى تناولته الرماح، وخط أولاد أبو أحيحة صفحة أخرى من صفحات الفداء.

-١١-

انتهت حركة الارتداد. قضى عليها أبو بكر، وعلى خليفة رسول اللّه أن ينشر رسالة الإسلام في العالمين. فليبعث إذن المسلمين إلى العراق والشام، وأخذ يعد الجيشين، وأخذ يفكر فيمن يختاره أميراً على جيش الشام، فلم ير خيراً من خالد بن سعيد، إن أبا بكر ليدرك أن الرجل ما تخلف عن بيعته إلا لحبه لآل بيت النبوة والرسالة، فعقد له اللواء وجاؤوا باللواء إلى بيته، ولكن وزيره عمر لم يكن يغفر لخالد موقفه في بيعة أبي بكر الذي كان يخشى منه تفريق كلمة

المسلمين ـ فذهب إلى أبي بكر وقال له: تولي خالداً وهو القائل ما قال؛ فلم يزل عمر به حتى أرسل أبو بكر أبا أروى الدوسي فقال لخالد: إن خليفة رسول اللّه ﷺ يقول: اردد علينا لواءنا، فأخرجه خالد ودفعه إليه وقال: واللّه ما سَرَّتْنا ولايتكم ولا ساءنا عزلكم وإن المليم لغيرك، وبعد ساعات جاء إليه أبو بكر يعتذر ويرجوه ألا يذكر عمر بحرف ـ وما زال خالد يترحم على عمر حتى مات ـ كانوا جميعاً طلاب حق وهدى ولما عزل أبو بكر خالداً ولى يزيد بن أبي سفيان جنده، ودفع إليه لواءه ـ كما ولى على جيش آخر شرحبيل بن حسنة وعمرو بن العاص، وبعث أبو بكر إلى خالد يخبره «أيُّ الأمراء أحبُّ إليك» لكي يُسَيِّرَ خالداً تحت لوائه، فأجابه خالد: ابن عمي (أي عمرو بن العاص) أحب إلي في قرابته ـ وهذا (أي شرحبيل) أحب إلي في ديني ـ فإن هذا أخي في ديني على عهد رسول اللّه ﷺ وناصري على ابن عمي.

فتأثر أبو بكر تأثراً شديداً، فأوصى شرحبيل بن حسنة بقوله: «انظر خالد بن سعيد فاعرف له من الحق عليك مثل ما كنت تحب أن يعرفه بك من الحق لو خرج والياً عليك، وقد عرفتَ مكانه من الإسلام وأن رسول ﷺ توفي وهو له والٍ، وقد كنتُ ولَّيتهُ ثم رأيت عزله وعسى أن يكون ذلك خيراً في دينه، ما أغبط أحداً بالإمارة، وقد خيرته في أمراء الأجناد فاختاركَ على ابن عمه، فإذا نزل بك أمر تحتاج فيه إلى رأي التقي الصالح فليكن أول من تبدأ به أبو عبيدة بن الجراح ومعاذ بن جبل وليكن خالد بن سعيد ثالثاً؛ فإنك واجد عندهم نصحاً وخيراً، وإياك واستبعاد الرأي عنهم أو تطوي عنهم بعض الخبر.

وهكذا سار خالد بن سعيد في جيش المسلمين جندياً بسيطاً، وفي مرج الأصفر ـ صَفَّتْ الروم صفوفها ـ ثم تقابلوا مع المسلمين، واستمر القتال، وخالد بن سعيد يقاتل يميناً وشمالاً حتى قتل فكتب أولاد أبي أحيحة ـ ثالث صفحات الفداء.

ـ ١٢ ـ

وخرج عمرو وأبان في جيش عمرو بن العاص، والتحم المسلمون التحاماً شديداً في أجنادين ـ وعمرو وأبان في مقدمة الصفوف حتى استشهدا ـ وكتب أولاد أبي أحيحة الصفحات الرابعة والخامسة من صفحات الفداء.

ـ ١٣ ـ

وآن موعد الحج، واستدار العام. وسار المسلمون إلى مكة، وبعد أن أتموا مناسك الحج، اجتمعوا حلقات في البيت العتيق، كل حلقة تردد اسم اللّه الواحد، وقد أصبحوا جميعاً في

اللّه إخواناً متحابين، وتلفّت الناس إلى حلقة بني عبد شمس فلم يروا أولاد أبي أحيحة، قد خلا منهم وادي الحياة.

وأخذ الناس يتذاكرون صحائف الناس، فمن الناس من لا تبلى صحائفهم ما تبقى أبد الآبدين، أولئك أولاد أبي أحيحة، إلا أن صحائفهم صحائف جهاد واستشهاد، أقبلوا على الإسلام والدنيا عنه في إدبار، فجاهدوا وتركوا الدنيا يوم كانت على الإسلام في إقبال فماتوا واستشهدوا.

ومرّ فتيان بني عبد شمس على ضاحية أبي أحيحة، هنا مرتع الأبطال الميامين، هنا مدرجُ طفولتهم، هنا كم ترددت أنفاس الخالدين، وأنصت فتيان بني عبد شمس!

وهبّ النسيم نديًّا.

وتردد نغم حزين.

أين هم؟ أين هم؟

في عيشة راضية، في جنات عالية، قطوفها دانية، كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية.

وسكن النغم!.

* * *

@ktabpdf تيليجرام

سعد بن عبيد
عالم الإسلام العظيم

-١-

ودوى الصوت الجميل العذب، مخترقاً السكون الشامل واستمعه الأوس النائمون فتقلبوا على فُرشهم، ثم استيقظوا واحداً بعد واحد يستمعون إلى الترتيل الحنون. الترتيل الذي يحمل إليهم آيات اللّه تلك الأنغام الملكوتية التي تقدس جمال الحق الأعلى. وأخذ الصوت يرتفع شيئاً فشيئاً حتى ملأ الوادي، وأصاخ الأوس أسماعهم ومضى الصوت يستكنُّ في الأعماق، وأحسوا بسموهم عن هذه الأرض وعن تلك الأجساد، ولم يعودوا إلا فكرة روحية خالصة. ونادى هذا الصوتُ الحنون لصلاة الفجر فنفروا جميعاً، والتأموا في صفوف، ثم طلع عليهم من بيته فأدى بهم الصلاة.

ذاك. هو سعد بن عبيد اللّه بن النعمان الأوسي «القارىء» ولم يكن من أصحاب رسول اللّه صلوات اللّه وسلامه عليه مَنْ يُسمى القارىء غيره. وقد عَدَّته الأوسُ فخرها التي تتيه به على الناس، ويزيد في هذا الفخر ما تَقصُّه علينا السِّيرُ من «أنه أحد الأربعة الذين جمعوا القرآن على عهد الرسول» وقد أقره الرسول على الإمامة في مسجد قباء، ثم أقره أبو بكر بعد الرسول، وعمر بعد أبي بكر.

ولم يقصر عالم الإسلام العظيم في الدفاع الإيجابي المسلح، فخرج إلى بدر وإلى أُحد وقاتل فيهما أعنف قتال ثم لم يَفُته مشهدٌ من المشاهد مع رسول اللّه، ولم يقعد عن حرب المرتدين في عهد أبي بكر بل شارك فيها كلها.

ولكم كان المسلمون يخشون أن يصيب «عالم الأوس» في تلك الحروب الموت فينتهي من لم تر له الدنيا مثيلاً، ولكن ما كان لحامل القرآن أن يخشى الموت في موضع من المواضع، وما كان له أن يكون مع القاعدين.

-٢-

وتمت كلمة ربك الحسنى على جزيرة العرب ودانت بالإسلام جميع أراضيها، ثم مضت جيوشهم مجتاحة الأرض التي وعدهم اللّه ـ أرض كسرى وقيصر ـ وخرج سعد بن عبيد القارىء

في جيوش العراق، يُبصِّرُ المسلمين بأمور دينهم ويحكم في أقضيتهم، فإذا ما جن الليل، عاد إلى قرآنه. وإذا ما أقبل النهار استل سيفه وشارك في الضرب والطعان؛ ومضى المسلمون من نصر إلى نصر حتى هذا اليوم المشؤوم، يوم الجسر الرهيب، على ماء دجلة، حيث قطع أحد المسلمين خطأ هذا الجسر وسقط المسلمون أفواجاً، وفر منهم من فر وقتل قائدهم أبو عبيد الثقفي، وكان من بين الفارين الذين أفزعهم هول القتال سعد بن عبيد القارىء «عالم الأوس» الذي ما وهن قط في دين الله يوماً من الأيام ـ وما تأخر عن وقعة قط من المواقع. فيا حسرة السماء على الأرض.

ـ ٣ ـ

﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ * وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ * أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ﴾ [القيامة: ١ ـ ٣].

النفس اللوامة. آه من تلك القوة الآمرة المسيطرة التي تشتعل في أعماقنا وتسيطر على كياننا، تفتش عن خطيئاتنا ثم تحاسبنا عليها أعسر حساب وأعنفه، فتحيل أماسينا جحيماً لا يطاق وأيامنا عذاباً عنيفاً مراً.

آه. من هذا الهاتف الداخلي الذي يقلق المضاجع ويذهب الرقاد، ويترك الإنسان فريسة لأشد اللوم ـ فيمضي الليالي ساهراً ويتملكه الإرهاق فيسلب منه بهاء الحياة ونضارتها.

آه من هذا الصوت المعنوي الذي يسيطر على ماديات الإنسان فيسلبها الحركة ويدفعها إلى الخمود، ويبعث فيها قتامة وسكوناً.

كم استمع إلى كل هذا سعد القارىء. الهائم في تلك الصحارى الممتدة الواسعة فلا يجد ظلاً من ظلال الهدوء تركن إليه تلك النفس الأبية الكبيرة، يستمع إلى تلك الآيات البينات التي تحدثه عن تلك النفس فيفكر ويلجُّ في التفكير.

ـ ٤ ـ

وتقابل الرجلان أخيراً ـ عمر بن الخطاب وسعد القارىء، وفي وجه أولهما علائم العتاب أنْ هرب من ميتة الحق، وفي وجه ثانيهما سمات الأحزان أن ضَلَّ مبادىء قدسية طالما علمها أهل الأرض الضالين. ولم ينبس أحدهما ببنت شفة.

ثم تقابلا مرة أخرى. وكان الخليفة وقتئذ يوجه جيشاً إلى الشام فقال لسعد: «هل لك في

الشام فإن المسلمين قد نزفوا به[1]، وإن العدو قد ذئروا عليهم، ولعلك تغسل عنك الهُنَيَّة». ولكن سعداً لا يريد أن يحارب إلا في الأرض التي هرب منها، فقال: «لا، إلى الأرض التي فررتُ منها والعدو الذين صنعوا بي ما صنعوا».

وفي هذا دليل على ما كان يعتلج في نفس هذا العالم العظيم من عذاب الضمير. وسار سعد القارىء بعد أيام قليلة في جيش الصحابي العظيم سعد بن أبي وقاص إلى فارس.

-٥-

كان النعمان بن المنذر ملك الحيرة المسيحي قد نفر لقتال المسلمين بأمر كسرى، وفي منطقة الحيرة البيضاء وقف يخطب في جيوشه الجرارة حتى جاءه صاحب حرسه عمه إلياس يخبره أن بالباب رسولاً من قبل المسلمين. قال له: «أيها الملك، إن أعداءنا قد أنفذوا إلينا رسولاً» قال: ائتني به.

ودخل الرسول، وكان سعد بن عبيد القارىء ـ فصاح به الحجاب: «الأرض للملك» ولكن سعداً لم يلتفت إليهم بل سار مرفوع الرأس وسط الحرس، ثم قال بصوت جهوري: «إن اللّه أمرنا أن لا يسجد بعضنا لبعض، ولعمري إن هذه كانت العادة المعروفة في الجاهلية قبل أن يبعث اللّه نبيه محمداً عليه الصلاة والسلام، فلما بعث جعل تحيته السلام ـ وكذا كانت تحيةُ الأنبياء من قبل، والسلام من أسماء اللّه تعالى، وأما تحيتكم هذه فهي تحية جبابرة الملوك».

فقال النعمان: «لسنا من الجبابرة، بل نحن أَجلُّ منكم لأنكم تُوحِّدون في دينكم وتقولون إن اللّه واحد وتجحدون ولده عيسى بن مريم». فقال سعد: «أخبرني عن عيسى ابن مريم أكانت القدرة فيه حالة أم ربانية»؟ وقامت بينهما مناقشة طويلة، فأعجب النعمان بكلام سعد إعجاباً شديداً، ولكن عظمة الملك حالت بينه وبين الإسلام، فقال له: ويح قومك ما الذي جئت لأجله؟ قال:

ـ «إن الأمير سعد بن أبي وقاص وجهني إليك إذ أنت من العرب ويصل إلينا ما يقضى عليك، وهؤلاء القوم علوج ليس لهم شريعة يؤدونها ولا فريضة يتبعونها، نحن ندعوكم إلى شهادة أن لا إله إلا اللّه وأن محمداً رسول اللّه، ولكم ما لنا وعليكم ما علينا ـ فإن أبيتم فأدوا الجزية، فإن أبيتم ما دعوناكم فأنذروا بحرب من اللّه ورسوله». فضحك النعمان مستهتراً وقال: «لقد

---

(١) نزفوا: خرج منهم الدم بكثرة. الهنية: الهفوة والخطأ الصغير.

حدثتكم أنفسكم الأباطيل أظننتم أن الفرس مثل الروم، لا وحق المسيح إن هؤلاء أثبت جَناناً وأشد طِعاناً وأوسع ميداناً ـ فليت شعري مَنْ نفخ في معاطسكم وحَسَّنَ الأملَ في أنفسكم حتى جئتم من قحط البلاد ترومون ملك الأساورة وأخذ بلاد الأكاسرة، ودونه حرب تصطفق أحرامه، وتشب ضرامه. وهذا الملك أردشير قد أنفذ جيوشه وعساكره وكأنكم بهم وقد أقبلوا فينالون منكم مما يؤملون وما حدثتكم به أنفسكم تزيلونه من قلوبكم».

فقال سعد: «يا نعمان، لقد تَشدَّقتَ بالباطل، وتَفَوَّهْتَ بكلام غير عاقل؛ أما علمت أن العاقبة للمتقين، واللّه بكرمه يرفع عنا البأس ويظفرنا بجميع الناس؛ وقال نبيه ﷺ: ستفتح على أمتي كنوز كسرى وقيصر، فأما كنوز قيصر فقد فتحها اللّه علينا، وقد بقيت كنوز صاحبك».

فقال النعمان: «من أين كان لصاحبك العلم ومن أين ورثه؟ وقد بلغنا أنه كان لا يكتب ولا يقرأ»!

فقال: قد بَصَّره اللّه بالعلم في القدم، وعلمه ما كتب في اللوح المحفوظ بالقلم.

فلما سمع النعمان ذلك قال: «يا ويح قومك! إلى قلوس، فليس عندنا جواب إلا السيف.

فركب سعد وعاد فأخبر ابن أبي وقاص ذلك، ورتب سعد بن أبي وقاص جيشه وجعل سعداً القارىء قائداً للميمنة؛ وابتدأ القتال بالسيف العنيف وما مضى إلا القليل من الزمن حتى انهزم ملك الحيرة وقتل وفرت جيوشه.

مكتبة الرمحي أحمد

-٦-

وكانت القادسية وأيامها العنيفة، وصبر الجيشان ليلتين. وفي الليلة الثانية وقف سعد بن عبيد القارىء يخطب في المسلمين، واجتمع المسلمون على صاحب رسول اللّه فقال:

ـ إنا ملاقو العدو غداً، وإنا مستشهدون فلا يُغسلنَّ عنا دَمٌ ولا نكفن إلا في ثوب كان علينا».

وفي الليلة الثالثة ليلة الهرير المشهورة انتصر المسلمون الانتصار الحاسم في تاريخ العالم كله.

ولكن دفعوا ثمن هذا النصر سعداً القارىء وغيره من أعاظم المسلمين الشهداء.

* * *

شهداء اليمامة

«يا أرض اليمامة. كم نام في أعماقك من حَملةِ القرآن، حملة الكتاب الأزلي، كم رددوا آياته الغر البينات، فحملتها الأنسام صاعدة إلى السماوات العلا، استمعت الملائكة من عوالمها الأخرى إلى ترتيلاتهم العِذاب، وخشعت الكائنات لأمجادهم النورانية، ثم ناموا فيك ـ يا أرض اليمامة ـ شهداء..»

١ـ الفارسان

فارسان. مهاجر وأنصاري. «عكاشة بن محصن» من بني غنم بن دودان من قريش، فتى من أجمل الفتيان وأكثرهم أناقة وظرفاً. وفارس لم تعرف له قريش مثيلاً.

هاجر عكاشة إلى المدينة، وحضر المواقع كلها مع رسول اللّه، بدراً وأُحُداً وغيرهما لم يتخلف عن واحدة منها، وما أكثر ما شهدت صحارى العرب، صولة فارس قريش يحطم الشرك في كل مكان، وبعثه النبي إلى الْغَمْر على رأس فرقة مكونة من أربعين رجلاً، فهاجم المكان ففر أهله فاستولى عليه عكاشة.

هكذا كانت حياة فارس قريش في عهد النبي ﷺ.

«ثابت بن أقرم» الأنصاري وأحد أنجاد العرب الممتازين، وفارس يثرب العظيم؛ حارب في جميع المواطن، وقاتل أشد قتال.

ارتَدَّت العرب عن دين اللّه، واستنفر الخليفة هؤلاء الذين آمنوا وثبتوا كالجبال على دينهم.

وخرج خالد بن الوليد لقتال طليحة بن خويلد الأسدي، وخرج معه الفارسان عكاشة بن محصن وثابت بن أقرم: الأول على فرس يقال له الرزام، والثاني على فرس يقال لها المحبّر. وقد أرسلهما خالد يستطلعان له الأخبار، فتقابلا مع طليحة وأخيه سَلَمة، وكانا أيضاً طليعة المشركين.

وقد عاجل سَلَمة المشرك الفارس العظيم ثابت بن أقرم فقتله، ولكن عكاشة سرعان ما استعاد جأشه أمام هذه المفاجأة غير المنتظرة، وهاجم طليحة هجوماً عنيفاً حتى هَمَّ بقتله، فصاح

طليحة بأخيه ـ أَعِنّي على الرجل ـ فإنه قاتلي، فكَرَّ سَلَمة على عكاشة وقتلاه جميعاً، ثم رجعا إلى من وراءهما من الناس فأخبراهم فَسُرَّ عيينةُ بن حصن، وقال: هذا الظفر.

وأقبل خالد بن الوليد ومعه المسلمون فإذا ثابت بن أقرم قتيل تطؤه المطي، فعظم الأمر عليهم، ثم لم يسيروا إلا يسيراً حتى وجدوا عكاشة، وطلع خالد بعد قليل، فأمر أن يحفر لهما، ودفنوهما بالثياب.

وناما في أرض اليمامة. في سبيل الدين الذي اعتنقاه، ووهبا له كل شيء.

٢ـ زيد بن الخطاب

نشأ زيد مع أخيه عمر أحسن نشأة وأقومها، ولكن زيداً كان أرق قلباً، وكان مع ذلك أسن من أخيه العظيم، وكان رجلاً طويلاً بائن الطول أسمر، وقد أسلم زيد قبل عمر؛ وهاجر زيد إلى المدينة، وآخى الرسول بينه وبين معن بن عدي بن عجلان الأنصاري، وشارك في بدر أعظم المشاركة، ورآه عمر في بدر لا يلبس درعاً، فخلع درعه وقال له: أقسمت عليك إلا لبست درعي، فأخذها زيد ولبسها ثم نزعها فقال له عمر:

ـ ما بالك؟

ـ إني أريد بنفسي ما تريد بنفسك.

وتلك صورة من أعظم صور الإيثار. وخرج زيد في كل قتال.

وفي اليمامة، في قتال بني حنيفة، ارتفع اللواء، اللواء الأعظم، وقد كاد المسلمون أن ينهزموا حتى غلبت بنو حنيفة المسلمين أول الأمر، ولكن زيداً أخذ يجالد ويستبسل ثم قتل الكثيرين، وقتل الرحال بن عنفوه، وكان الرحال قد أسلم وهاجر وقرأ القرآن ثم سار إلى مُسيلمة مرتداً، وأخبر بني حنيفة أنه سمع النبي يقول: إن مسيلمة شريك معه في الرسالة، فكان أعظم فتنة على بني حنيفة، قتله زيد شر قتل، ثم رأى زيد هزيمة المسلمين.

فحمل راية الحق المبين وهو يقول: أما الرجال فلا رجال، ثم صاح بأعلى صوته: «اللهم إني أعتذر إليك من فرار أصحابي، وأبرأ إليك مما جاء به مُسَيْلمة والحكم بن الطفيل».

وحمل العَلَم خفّاقاً، وهو يتقدم في سرعة نحو العدوّ، وهو يضرب بسيفه يميناً وشمالاً حتى قُتِل.

* * *

وصل الخبر إلى المدينة، وعلم عمر فحزن أشد الحزن وقال: «رحم اللّه زيداً، سبقني إلى الحُسنيين، أسلم قبلي واستشهد قبلي».

* * *

وما زال عمر العظيم يذكر أخاه في حزن دونه أي حزن، وكثيراً ما كان يردّد «إن الصَّبا لتهب فتأتيني بريح زيد بن الخطاب».

وقد انتصر المسلمون بعد ذلك، وأسلم من بقي من بني حنيفة، وجاء قاتل زيد أبو مريم الحنفي لمقابلة عمر، فقال له عمر:

ـ أَقتلتَ زيد بن الخطاب.

ـ أكرمه اللّه بيدي ولم يُهنِّي بيده.

ـ كم ترى المسلمين قتلوا منكم يومئذ؟

ـ ألفاً وأربعمائة، يزيدون قليلاً.

ـ بئس القتلى.

ـ الحمد للّه الذي أبقاني حتى رجعت إلى الدين الذي رضي لنبيه عليه السلام وللمسلمين.

ويقابل عمر متمم بن نويرة، وكان قد قتل أخوه مالك بن نويرة مشركاً، فيقول له عمر

ـ ما أَشدَّ ما لقيتَ على أخيك من الحزن؟

ـ كانت عيني هذه قد ذهبت ـ وأشار إلى عينه ـ فبكيت بالصحيحة فأكثرت البكاء حتى أسعدتها العينُ الذاهبة وجرت بالدمع، فقال عمر: ـ إن هذا الحزن شديد ما يحزن هكذا أحد على هالكه.

وصمت عمر قليلاً ثم قال: «يرحم اللّه زيد بن الخطاب، إني لأحسب أني لو كنت أقدر على قول الشعر لبكيته كما بكيتَ أخاك». فقال متمم: يا أمير المؤمنين لو قتل أخي يوم اليمامة كما قتل أخوك ما بكيته أبداً». فتعزى عمر حينئذ، وكف عن الحزن والجزع على أخيه.

٣ـ معن بن عدي

أحد سادة يثرب. شهد العقبة مع السبعين من الأنصار. وكان يكتب بالعربية قبل الإسلام، وكان هذا دليلاً على الشرف العالي بين قبائل العرب. لم يفارق الرسول في حروبه، وقد آخى بينه

وبين زيد بن الخطاب حتى فنيا في صداقتهما وحبهما.

ومات الرسول، وبكاه الناس وكانوا يقولون: واللّه لَوِدِدْنا أن متنا قبله نخشى أن نفتن بعده. فقال معن: «إني واللّه ما أحب أني مت قبله حتى أُصَدِّقَهُ ميتاً كما صدقته حياً».

واجتمع الأنصار في سقيفة بني ساعدة يريدون أن يجعلوا الخليفة من بينهم. وأسرع أبو بكر وعمر يريدانهم فقابلهم معن وقال لهم: «لا عليكم أن لا تُقِرُّوهم، واقضوا أمركم». أي طلب منهم ألا يصطدما بالأنصار. وأن يرتبا أمرهما مع بقية المهاجرين حتى لا يحدث صدام إطلاقاً.

وفي اليمامة. شهد معن مقتل صديقه زيد. وهو يصيح طالباً من المسلمين الثبات. وثبت معن حتى قتل. ونام مع صديقه نومتهما الأبدية.

٤ـ سالم مولى أبي حذيفة

اختلف في اسمه، فيقال له سالم بن عتبة بن ربيعة، ويقال له سالم بن معقل، وقد اختلف في أهله. ويبدو أنه من أهل اصطخر. فهو على هذا فارسي. ولم يُعَدَّ أنصارياً من ناحية أنه عتيق لثبيتة بنت نصار الأنصارية من بني عبيد، ويُذكر في المهاجرين لموالاته لأبي حذيفة. ومن المحتمل أن يكون هذا الاختلاف في نسبه ناشئاً عن زواج ثبيتة بأبي حذيفة، فلم يعرف مولى أَيِّهِما، ومهما كان الأمر فقد كان يسمى سالم بن أبي حذيفة، وأحياناً كان يطلق عليه «سالم بن الصالحين» وقد تزوج من فاطمة بنت الوليد بن عتبة بن ربيعة.

هاجر سالم إلى المدينة واجتمع المهاجرون بقباء ونودي للصلاة، وكان في المسلمين يومئذ سادة المهاجرين عمر وأبو سلمة وغيرهما، ولم يتقدم أحد منهم للإمامة. ولكن سالماً تقدم وصلى بكبار الصحابة إماماً.

وكان النبي يقول: «خذوا القرآن من أربعة وكان سالم أحدهم، وكان صوته جميلاً، وقال له النبي: «الحمد للّه الذي جعل في أمتي مثلك».

* * *

وفي يوم اليمامة انكشف المسلمون وتقدم زيد بن الخطاب براية المسلمين ثم قتل، وسقط اللواء، فحمله سالم فقال له المسلمون: يا سالم إنا نخاف أن نُؤْتى من قِبلك. فقال: بئس حامل القرآن أنا، إن أُتيتم من قبلي. واستمات في القتال وفي يده راية المهاجرين ثم قال: «ما هكذا كنا نفعل مع رسول اللّه» فحفر لنفسه حفرة كخندق، وقام فيها يقاتل.

وقُطعت يمينه فأخذ اللواء بيساره، فقطعت يساره فاعتنق اللواء، وهو يقول: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ ﴾ [آل عمران: ١٤٤ ـ ١٤٦] حتى سقط فلما صرع قال لأصحابه: «ما فعل أبو حذيفة» قيل له: قتل، وسأل عن صحابي آخر، فقيل له: إنه قتل. فطلب من المسلمين أن يُضجعوه بينهما ونام سالم حامل القرآن بعد أن ضرب للمسلمين أعظم المثل.

* * *

لم ينس عمر العظيم «سالماً» فحين أقبلت عليه سكرة الموت قال: «لو كان سالم حيًا ما جعلتها شورى» أي كان يصدر عن رأيه فيمن يوليه الخلافة.

أي مقام كريم كان لك يا سالم في الصالحين، وأي مقام كريم لك في أعماق الجِنان.

٥ـ شجاع بن وهب

«شجاع بن وهب» من بني غنم بن دودان كان يكنى «أبا وهب» وكان نحيفًا طويلاً؛ هاجر إلى الحبشة في الهجرة الثانية، وآخى الرسول بينه وبين أوس بن خولي.

كثيراً ما أمَّرهُ الرسول على فرق من المسلمين فهاجم المشركين في وقائع كثيرة في هوازن وغيرها، فأصاب من الغنائم أعظمها.

وبعثه النبي إلى الحارث بن أبي شمر الغساني وكانوا بغوطة دمشق فلم يسلم. وأسلم حاجبه مُرِّي، وبعث إلى النبي مع شجاع يقرئه السلام ويخبره أنه على دينه. وشهد شجاع بدراً وأُحداً والخندق والمشاهد كلها، كما شهدها أخوه.

وفي اليمامة. دافع شجاع دفاع الأبطال حتى سقط شهيدًا كما سقط أيضًا يزيد بن قيس وغيرهما من حملة القرآن وأئمة الصحابة.

* * *

يا أرض اليمامة. كم نام في أعماقك من حملة القرآن. حملة الكتاب الأزلي، كم رددوا آياته الغر البينات فحملتها الأنسام صاعدة إلى السماوات العلا، استمعت الملائكة من عوالمها الأخرى إلى ترتيلاتهم العذاب، وخشعت الكائنات لأمجادهم النورانية. ثم ناموا فيك ـ يا أرض اليمامة ـ شهداء.

* * *

شهيد نهاوند الأكبر..

«وفي سهل فسيح ممتد، حيث انتشرت أشجار مفرعة الأغصان، وشجيرات الورد والرياحين هنا وهناك نام النعمان بن مُقَرِّن نومته الأبدية، ونام معه جنوده الشهداء، فإذا ما أقبل الربيع واخضرت الأغصان، وتفتحت الأزهار ذات الأرج، ومر النسيم من بينها يردد ـ في جمال السحر ـ أنشودة طالما رددها ابن مقرن، يستمع إليها رواد الروضة الفيحاء، أنشودة القوة المنبعثة غير المحدودة التي تخطت المحدود فَعنَتْ لها أوجه الحياة، ثم عافت عيشنا الخابي وهامت بالخلود، بغير المحدود الدائم السرمدي؛ فهتفت به على نِجاد نهاوند وسهولها فاستجاب النداء»

١ـ أمير هزينة

دعا الرسول الأعظم إلى هذا الفيض النوراني الذي أتى به فأسرعت أقوام إليه وأدبرت أقوام؛ وانطوى تحت لوائه ملأ، وعاداه ملأ، وفي ساعة من تلك الساعات العنيفة الجرباء التي مرت برسول اللّه، ثار الغبار حول المدينة مؤذناً بخمس قوى من الفرسان، وانتظر صحابة رسول اللّه انجلاء الغبار حتى يتبينوا حقيقة القوم وقد انتضوا سيوفهم انتظاراً للغزاة القادمين، وأصاخوا السمع، وأطالوا في الإصاخة حتى يتبين لهم الأمر، إذ استمعوا إلى أناشيد القادمين، فإذا هي تكبيرات وتسبيحات، ترتفع في قلب هذه الصحراء الممتدة القائمة حول المدينة من مختلف شعبها وأوديتها، ولكن مَنْ هؤلاء المستجيبون للّه ورسوله، الساعون في السحر نحو فيض النور الذي انبثق من ابن عبد اللّه مبشراً بالحقيقة الخالدة التي تنكبها الضالون، وأخفاها المضلون، تحت ستار من الطلاسم والخرافات. مَنْ هؤلاء الموقنون بالحق، الضاربون تلك السجف الغلاظ التي رانت على قلوب عُبَّاد الشهوات وأحلاس الزنا، ورائدي المنكرات. من هؤلاء[1]؟

انجلى الغبار أخيراً. عن أربعمائة فارس وفي مقدمتهم فارس تعلقت به الأنظار واتجهت

---

(١) رانت: غَطَّت وغشت. أحلاس: جمع حلس، وهو الملازم التي لا يبرح، وأحلاس الزنا: الملازمون لهذه الكبيرة لا يزايلونها لحبهم إياها.

إليه العيون، وهو يسير في وقار العرب، وقد تغلغلت في محياه الجميل آيات الاهتمام والجد، كان يسير وحوله سبعة من إخوته، ثم يلتفُّ به بعد ذلك بقية كوكبة الفرسان، وعرف الصحابة القادمين، كانوا فرسان مزينة، وعلى رأسهم أميرهم «النعمان بن مقرن بن عائد»، أسلموا للّه جميعًا فخرجوا للرسول مبايعين، واستمع الكون لهتافهم ولتكبيرهم، وقد ساروا لكي يشاركوا في بناء صرح الحق الخالد.

آمن فرسان مزينة إذن إيماناً حارًّا، وبايعوا كما أراد رسول اللّه صلوات اللّه وسلامه عليه. ولم يكن إلا قليل من الوقت حتى دعاهم الجهاد، فشاركوا وعلى رأسهم النعمان بن مقرن، فإذا ما آذن فتح مكة سارت مزينة في طليعة المجاهدين، يحمل لواءها النعمان، ومضى رسول اللّه من نصر إلى نصر ومزينة في جنوده.

وتمت كلمة ربك الحسنى على «سيد الخلائق» وخَيَّره اللّه بين الخلود في الأرض، أو لقاء ربه، فاختار اللقاء ومضى إلى السماء، وبكاه الخالصون من درن الدنيا، البعيدون عن أوساخها، الذين صدقوه حيًا بكل شيء بأرواحهم ومالهم، بكوه وقد ظنوا أنه خالد لا يموت، ولكن ما لبثوا أن سمعوا هذا الصوت الحنون، صوت ابن أبي قحافة يقرأ: ﴿إنك ميت وإنهم ميتون﴾، فأدركوا أن رسول اللّه مات حقًا، فازدادوا بكاء، وسكبت عيون أولئك الأبطال الدموع انسكاباً شديداً وهم يفكرون، كم من آماد تفصل بينه وبينهم، وكم من آفاق تبعده عنهم، وعلا صوت ابن أبي قحافة يخاطبهم قائلاً: «أيها الناس مَنْ كان يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات، ومن كان يعبد اللّه فإن اللّه حيٌّ لا يموت» وسمعها الصحابة جميعاً، فتفكروا جميعًا!

حقًا لقد ذهب رسول اللّه، ولكن بقيت دعوة اللّه، تلك الدعوة التي حملها الرسول الأعظم من ربه، فماذا هم فاعلون بها؟

حينئذ صاح أبو بكر وكأنه يقرأ قلوب الناس: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

أوصلهم أبو بكر إذن بقوته النفسية الخارقة إلى أدق مشكلة واجهتها الدعوة الإسلامية، مشكلة المحافظة عليها والدعوة إليها، مشكلة الثبات ومشكلة الارتداد، أعلمهم أولاً بوفاة الرسول، ثم أوضح لهم وجود الدين بعد وفاة صاحب الدين، ثم بيَّنَ لهم أن هناك من سينقلب على الدين ومن سيبقى، فماذا هم فاعلون؟ وكأن أبا بكر يقرأ في لوحة القدر: لقد ارتد العرب،

ولم يبق إلا الخُلّص الأوفياء، لم يبق إلا أهل المدينة وأهل مكة، ثم القبائل التي تحيط بها وعلى رأسها مزينة، وبعث أبو بكر بالجيوش إلى المرتدين.

٢ـ لواء مزينة

«لواء مزينة» يرفرف مع ألوية المجاهدين المؤمنين، والنعمان بن مقرن يقودهم من حرب إلى حرب، حتى كتب اللّه لدينه النصر وسقط من مزينة عدد كبير من الشهداء، ولم يبق في النهاية في جزيرة العرب مرتد، ولكن ألم يتكفل اللّه بأن ينصر هذا الدين على الدين كله، إذن فليسر العرب إلى حرب كسرى وقيصر، وسارت مزينة في الجيوش الذاهبة إلى بلاد النهرين يحمل لواءهم النعمان بن مقرن. وكتب النعمان بن مقرن وقبيلته في تلك الحروب أصدق آيات التضحية حتى التحم المسلمون بالفرس في القادسية، وكان للنعمان بن مقرن القِدح المُعَلَّى فيها، ثم ولاه سعد ابن أبي وقاص فتح جند يسابور، فسار النعمان بجيش المسلمين واشتبك مع الفرس في قتال هائل حتى اقتحم حصونها حصنًا بعد حصن، ثم سار إلى السوس، وكان الفرس قد تجمعوا فيها في جيش هائل فقاتلهم النعمان، ثم انتصر عليهم واستولى على المدينة، ثم عاد إلى البصرة، ولكن ما لبث فيها إلا قليلاً، ثم رحل بعدها إلى الكوفة، وفي الكوفة ولي قيادة الجيوش الزاحفة إلى كسكر؛ فقادها وهزم الفرس واستولى عليها، وولاه الخليفة عمر إمارتها، وعاف النعمان بن مقرن حياة الإمارة الهادئة وأراد أن يعود إلى قتال المشركين مجاهدًا في سبيل اللّه، فأرسل إلى عمر يطلب منه أن يبعثه في أي جيش من جيوش المسلمين كجندي بسيط.

٣ـ بطل نهاوند

انحاز يزدجرد كسرى الأعاجم إلى «نهاوند» بعد تلك الوقائع الدامية التي انتصر فيها المسلمون. أولئك العرب المبشِّرون بدين جديد يسوي فيه الأمر بين الراعي والرعية، ويقيمون مجتمعًا كله طهارة وعدل وإخاء، ولم يفهم كسرى ولم يفهم الأعاجم هذا أول الأمر، ولكنهم أيقنوا أن هذا الدين الجديد سيقضي على دينهم وملكهم، فكان لا بد أن يقاتلوه حتى النهاية قبل أن يقوض أركان مملكتهم ويهوي بها إلى حضيض الموت، فدعاهم يزدجرد إلى واقعة حاسمة يخضبون فيها الأرض بدماء العرب الفاتحين حتى يعود ملك كسرى ثانية وتعبد (النار المقدسة) التي أطفأها دين العرب. ونفرت الأعاجم بكتاب يزدجرد وأقبلوا من كل فج من فجاج الفرس إلى نهاوند حيث اجتمعوا على الفيرزان في تسعين ألفًا ومائة ألف؛ وكتب سعد بن أبي وقاص إلى عمر بالخبر، ثم شافهه به لما قدم عليه، وقال له: إن أهل الكوفة يستأذنونك في الانسياح وأن

يبدؤوهم بالشدة ليكون أهيب لهم على عدوهم.

وفكر عمر في الأمر كثيرًا وأَهمَّهُ، ثم رأى أن يجمع الناس ويستشيرهم، فقال: «هذا يوم له ما بعده، وقد هممت أن أسير فيمن قِبلي ومن قدرت عليه فأنزل منزلاً وسطًا بين هذين المِصْرين[1] ثم أستنفرهم وأكون لهم ردءًا حتى يفتح اللّه عليهم ويقضي ما أحب، فإن فتح اللّه عليهم حببتهم في بلدانهم.

وتكلم الصحابة مؤيدين كلام عمر، ولكن عليًا لم ير هذا الرأي، وطلب من الخليفة أن يبقى في المدينة يرعى شؤون أمته وأشار عليه بأن يبعث قائدًا، فقال عمر: «هذا هو الرأي، كنت أحب أن أتابع عليه فأشيروا عليَّ برجل أوليه ذلك الثغر وليكن عراقيًا». فقالوا: أنت أعلم بجندك وقد وفدوا عليك. فقال: «واللّه لأولين أمرهم رجلاً يكون أول الأسنة إذا لقيها غدًا». فسأله الصحابة: من هو؟ فأجاب: «النعمان بن مقرن المزني». فقالوا: هو لها.

فأرسل إليه عمر يوليه قيادة الجيش قائلاً: «بسم اللّه الرحمن الرحيم: من عبد اللّه عمر أمير المؤمنين إلى النعمان بن مقرن، سلام عليك ـ فإني أحمد إليك اللّه الذي لا إله إلا هو ـ أما بعد ـ فإنه قد بلغني أن جموعًا من الأعاجم كثيرة قد جمعوا لكم بمدينة نهاوند، فإذا أتاك كتابي هذا فسر بأمر اللّه وبعون اللّه وبنصر اللّه بمن معك من المسلمين ولا توطئهم وعرًا فتؤذيهم ولا تمنعهم حقهم فتكفرهم، ولا تدخلهم غيضة، فإن رجلاً من المسلمين أحب إلي من مائة ألف دينار والسلام عليك، فسر في وجهك ذلك حتى تأتي ماء ـ فإني قد كتبت إلى أهل الكوفة أن يوافوك بها، فإذا اجتمع إليك جنودك فسر إلى الفيرزان ومن جمع معه من الأعاجم من أهل فارس وغيرهم، واستنصِروا وأكثِروا من: لا حول ولا قوة إلا باللّه»[2]

وبعد أن كتب عمر هذا أرسل إلى نائب الكوفة عبد اللّه بن عبد اللّه أن يعين جيشًا ويبعثهم إلى نهاوند، وليكن الأمير عليهم حذيفة بن اليمان حتى ينتهي إلى النعمان بن مقرن، فسار حذيفة في جيش كثيف نحو النعمان بن مقرن ليوافوه بماء، وسار مع حذيفة خلق كثير من أمراء العراق، وقد وضع في كل كورة ما يكفيها من المقاتلة، وجعل الحرس في كل نقطة مر بها، وانتهوا آخر الأمر إلى النعمان بن مقرن في النقطة التي تواعدوا فيها، فكمل جيش النعمان بهم ثلاثين ألفًا من

---

(١) المِصْرين: جمع مصر، وهو البلد، ردءاً: حماية.

(٢) لا توطئهم وعراً: لا تُنزلهم مكاناً صعباً. غيضة: هي الأجمة، وهي الشجر الملتفُّ، والجمع غِياض وغيضات.

المقاتلة، وساروا إلى نهاوند لمقاتلة الألوف المؤلفة من الفرس، ولكن كان في الأولين صفوة الدنيا وأخيارها ـ سادات الصحابة ورؤوس العرب ـ عبد اللّه بن عمر بن الخطاب وحذيفة بن اليمان وأمثالهما، وكان في الآخرين رؤوس الكفر وطغمة الشيطان وعبدة النار.

وسار النعمان بالجيش إلى نهاوند، وكان عمر قد أرسل إلى جند الأهواز أن يشاغلوا بقية جيوش الفرس حتى يقطعوا إمداد فارس عن أهل نهاوند، أو بمعنى أدق أن يشغلوا الفرس في ميدان آخر حتى يتمكن النعمان من القضاء على جيش فارس الرئيسي، وأرسل النعمان طليحة بن خويلد الأسدي وعمرو بن معديكرب وعمر بن ثني، ليأتوه بخبر الفرس فخرجوا وساروا ليلة، فرجع إليه عمر بن ثني ولم يأت بشيء، وفي آخر الليل عاد إلى النعمان عمرو بن معد يكرب ولم يأت بشيء أيضًا ـ ثم رجع طليحة وأعلم الناس بوجود الفرس، فرحل النعمان إليهم ـ وعَبَّأ أصحابه ـ وهم ثلاثون ألفًا كما قلنا ـ وجعل على المقدمة نعيم بن مقرن وعلى مجنبتيه حذيفة بن اليمان وسويد بن مقرن، وعلى المجردة القعقاع بن عمرو، وعلى الساقة مجاشع بن مسعود[1] تلك الأسماء ذات الصحائف الخالدات التي كتب لها في تاريخ الحركة الإسلامية أنصع الآيات.

وانتهى النعمان آخر الأمر إلى أسبيذخان، والفرس وقوفٌ في مكان الموقعة وعلى رأسهم أمير الفيرزان. وتراءى الجيشان وقد علا كليهما الصمت الرهيب، ثم صَوَّتَ النعمان بصوت يقطع هذا السكون «اللّه أكبر».

إيه يا أنشودة القوة المنبعثة غير المحدودة التي تخطت المحدود فَعَنت لها أوجهُ الحياة. ورددها المسلمون وراء النعمان؛ فحملتها ذرات الأثير إلى نفوس الأعجام. عباد الأرض، عباد المحدود، فتزلزلت نفوسهم وتبين لهم صغارها بجانب النفوس النورانية الكبار.

وحطمت العرب الأثقال، وتقدم أشراف العرب ليضربوا فسطاط أميرهم. ثم بدأ القتال يوم الأربعاء والخميس في مواقع هائلة، والحرب سجال بين الجيشين حتى تمكن المسلمون من إجلائهم عن مواقعهم، ولكن الفرس ما لبثوا أن اعتصموا بخنادقهم يوم الجمعة، فحصرهم المسلمون وأقاموا عليهم ما شاء اللّه، والفرس بالخنادق لا يخرجون إلا إذا أرادوا الخروج.

وخاف المسلمون أن يطول أمر هذا الحصار إذا استمروا أسابيع وهم على هذا الحال،

---

(١) المجردة: الوسط. الساقة: مؤخرة الجيش.

فتجمع بعض قادتهم في ذات يوم، ورأوا أن حصارهم قد امتد بدون نتيجة ما، وأتوا النعمان وكان يتحدث في هذا الأمر أيضًا فأخبروه فجمع مستشاريه وقال: قد ترون المشركين واعتصامهم بخنادقهم وأنهم لا يخرجون إلينا إلا إذا شاءوا، ولا يقدر المسلمون على إخراجهم ـ وقد ترون الذي فيه المسلمون من التضايق، فما الرأي الذي نستخرجهم به إلى المناجزة وترك التطويل، فتكلم عمر بن ثني، وكان أكبر الناس فقال: «التحصن عليهم أشد من المطاولة عليهم، فَدَعْهم وقاتلْ من أتاك منهم» فلم يقبلوا رأيه، وقالوا: إنما يناطح بنا الجدران وهي أعوان علينا.

قال طليحة: أرى أن تبعث عليهم خيلاً لينشبوا القتال، فإذا اختلطوا بهم رجعوا إلينا استطرادًا، فإنا لم نستطرد لهم في طول ما قاتلناهم، فإذا رأوا ذلك طمعوا فينا، وخرجوا فقاتلناهم حتى يقضي اللّه فيهم وفينا ما أحب.

أُعجب النعمان بهذا الرأي، فأمر القعقاع وكان على المجردة بأن يبدأ القتال، فهجم القعقاع على الخنادق فخرجوا من الخنادق كأنهم جبال حديد قد تواثقوا أن لا يفروا، وقد قرن بعضهم بعضًا، كل سبعة في قِران، وألقوا حسك الحديد خلفهم لئلا ينهزموا؛ فلما خرجوا نكص القعقاع ثم نكصوا.

ورأى الفرس المسلمين ينهزمون لأول مرة، فاغتنموا الفرصة كما ظن طليحة وقالوا: هي هي ـ أي أنهم أيقنوا بهزيمة المسلمين، وأخذ القعقاع يتراجع ويتراجع معه المسلمون، والفرس في إثرهم حتى انقطعوا بعض الانقطاع عن حصنهم، ولم يبق أحد إلا من يقوم على الأبواب، واقترب الفرس من جيش المسلمين الرئيسي، وكان النعمان قد أمرهم أن يلزموا الأرض ولا يقاتلوا حتى يأذن لهم ففعلوا واستتر هو، وأقبل المشركون على جيش المسلمين يرمونهم حتى أفشوا فيهم الجراح، فشكا الناس إلى النعمان وقالوا: ألا ترى ما نحن فيه، فما تنتظر بهم، ائذن للناس في قتالهم؛ فقال: رويدًا رويدًا يا معشر المسلمين، شهدتُ مع رسول اللّه القتال، إذ لم يقاتل أول النهار وأَخَّر القتال حتى تزول الشمس. واقتربت ساعة الزوال، فركب النعمان فرسه وسار في الناس ووقف على كل راية من رايات المسلمين يذكرهم ويحرضهم ويُمنِّيهم النصر، ثم قال مخاطبًا الجيش: إني مُكَبِّرٌ ثلاثًا، فإذا كبرت الثالثة فإني حامل فاحملوا. وإن قتلت، فالأمر بعدي لحذيفة، فإن قتل ففلان، حتى عَدَّ سبعة آخرهم المغيرة.

آذنت ساعة الهجوم، فقال النعمان: «اللّهم أعزز دينك، وانصر عبادك، واجعل النعمان أول شهيد اليوم على إعزاز دينك ونصر عبادك. اللّهم إني أسألك أن تقر عيني بفتحٍ يكون فيه عز

الإسلام، واقبضني شهيدًا» فبكى الناس.

ورجع النعمان إلى مكان قيادته، فكبر ثلاثًا ثم هجم في مقدمة الجيش، وانقضَّت رايتهُ انقضاض العقاب والمسلمون من ورائه حتى تصافحت السيوف، وكان المكان يهدر بمن فيه هدير الموج العاتي، وفرسان المسلمين في المقدمة يشقون طريقهم في وسط هذا البحر من الدماء، والدم يجري في كل مكان يزلق الناس والدواب، ولاحت بارقة النصر؛ وَضَّاءة منيرة في عين النعمان، وتوجهت سهام الفرس إليه، وانقض سهم من تلك السهام على خاصرته فسقط بين الدماء شهيدًا، فسجَّاه نعيم بن مقرن، وأخذ الراية وناولها حذيفة فأخذها وتقدم إلى موضع النعمان وترك نعيمًا مكانه، وطلب منهم المغيرة أن يكتموا خبر موته لئلا يهن المسلمون، وأدار حذيفة الموقعة حتى انهزم المشركون مدبرين وتبعهم المسلمون، وكان المسلمون قد قرنوا منهم ثلاثين ألفًا بالسلاسل وحفروا لهم خندقًا، فلما انهزموا وقعوا في الخندق، وفي تلك الأودية، فمات منهم في الخندق وحده مائة ألف علاوة على قتلى الموقعة نفسها.

وهرب الفيرزان فاتبعه نعيم بن مقرن والقعقاع حتى قتله القعقاع على أحد الجبال. وانتهى أمر فارس بتلك الموقعة، وأقام المسلمون على أرض نهاوند الصلاة، ولكن أين الأمير تساءلوا عن هذا؟ فقال لهم أخوه نعيم: «هذا أميركم قد أقر اللّه عينه بالفتح وختم له بالشهادة» وبكى المسلمون أمير نهاوند العظيم ما شاء لهم البكاء ولكن كان هناك رجل ينتظر.

هو سيد الدنيا. هو عمر بن الخطاب. أسهرته ليالي نهاوند، فما كان يعرف النوم إلى عينيه سبيلاً. يخرج إلى ضواحي المدينة في هجيرها القاسي ينتظر أخبارها، حتى أتاه السائب فقال له عمر: ما وراءك! فقال له: فتح اللّه عليك أعظم الفتح واستشهد الأمير؛ فقال عمر: إنا للّه وإنا إليه راجعون.

ثم عرض عليه غنائم نهاوند. غنائم لا تحصى من الجوهر النفيس وما أَبِهَ عمرُ لكل هذا، بل اعتلى المنبر ونعى إلى أهل الأرض النعمان بن مقرن. أمير نهاوند وشهيدها.. وبكى. وبكى. حتى نَشِج[1]

وعبد اللّه بن مسعود في أسفل المنبر يقول: إن للإيمان بيوتًا وللنفاق بيوتًا، وإن من بيوت الإيمان بيت ابن مقرن.

---

(١) أَبِهَ: اهتم. نشج: أخرج صوتاً في بكائه.

وأقبل السائب على عمر يقول: «يا أمير المؤمنين ما أُصيب رجلٌ بعده يُعرف وجههُ» فقال عمر: «أولئك المستضعفون من المسلمين ولكن الذي أكرمهم بالشهادة يعرف وجوههم وأنسابهم وما يصنع أولئك بمعرفة عمر».

* * *

وفي سهلٍ فسيح ممتد في نهاوند، حيث انتشرت أشجار مفرعة الأغصان وشجيرات الورد والرياحين هنا وهناك نام النعمان بن مقرن نومته الأبدية، ونام معه جنوده الشهداء. فإذا ما أقبل الربيع واخضرت الأغصان، وتفتحت الأزهار ذات الأرج ومُرَّ النسيم من بينها يردد في جمال السحر أنشودة طالما رددها ابن مقرن يستمع إليها رواد الروضة الفيحاء أُنشودة القوة المنبعثة غير المحدودة التي تخطت المحدود فعنت لها أوجه الحياة، ثم عافت عيشنا وهامت بالخلود بغير المحدود الدائم السرمدي. فهتفت به على نِجاد نهاوند وسهولها فاستجاب النداء.

* * *

الطفيل بن عمرو الدوسي
وابنه عمرو بن الطفيل

«وفي عالم آخر لا ينتهي اجتمع الأحبة، الذين عرفوا الحب تضحية وفداء لله ولرسوله، لا شهوات وصغائر، فكانوا في الأرض الأوفياء المجاهدين. وكانوا في الآخرة الشهداء الخالدين»

أوقدت النيران واشتعلت وانتشرت رائحة الشواء في مضارب قبيلة «دوس» وبيوتهم، وكان سيد دوس «الطفيل بن عمرو» يكرم في هذه الليلة أشراف دوس ويطعم فقيرهم، وينتقل بين مضاربهم وبيوتهم مودعًا حتى عاد إلى بيته واجتمع حوله أصفياؤه من أشرافهم، وهو في وسط تلك الحلقة ينشد أشعاره مفاخرًا بنسبه وعلوه ومجد قبيلته، وفي الصباح المبكّر خرج أشراف الحي يودعونه حيث يذهب إلى سوق مكة فيتاجر لهم فيها، ويجتمع بأشراف بيت العرب (بيت إبراهيم) فيتذاكرون أحوال العرب، ويفضُّون ما قد حدث بينهم من إحن ومنازعات.

وسار الركب إلى هناك وكان سوق عكاظ قد أشرف ميعاده، واجتمع شياطين قريش من المشركين يفكرون ماذا يحدث لو استمع زعيم من زعماء القبائل إلى رسول الله فمنعه وأَمَدَّهُ بالقوة والعون، لا بد إذن من دعاية واسعة النطاق يشوهون بها حقيقة الدعوة قبل أن تصل إلى آذان واحد من هؤلاء، ولكن ماذا يقولون: شاعر!! أبدًا، ما هو بشاعر: وليس كلامه الشعر. كاهن!! أبدًا، ما هو بكاهن، وإن البدوي ليفرق بين سجع الكهان والقرآن. راهب أبدًا ما هو براهب! فإن هذا اللسان عربيٌّ مبين، ولسان هؤلاء لسان أعجمي. ساحر! نعم هذه الفكرة التي يستطيعون بواسطتها أن يشوِّهوا دعوته، سحرٌ يُفرِّق بين المرءِ وزوجه، وبين المرء وعشيرته الأقربين.

وانتظرت قريش وفود الحجيج حتى أقبل الطفيل بن عمرو، وكان يمشي وئيدًا بطلعته المهيبة وهو يردد أشعاره ويترنم بمجد آبائه، وأقبل عليه القرشيون يرحبون به. وما استقر به المقام حتى قالوا له: «يا طفيل إنك قدمت بلادنا وهذا الرجل الذي بين أظهرنا قد أعضل بيننا وفرق جماعتنا وشتت أمرنا وإنما قوله كالسحر يفرق بين الرجل وأبيه وبين الرجل وأخيه، وبين الرجل وزوجته، إنا نخشى عليك وعلى قومك مثل ما دخل علينا منه، فلا تكلمه ولا تسمع منه» وما زالوا

به يحدثونه ويخوفونه ويقصون له بعض ما فرق به ابن عبد اللّه جماعتهم حتى أجمع ألا يسمعَ منه ولا كلمة.

يقول: فواللّه ما زالوا بي حتى أجمعت أن لا أسمع منه شيئًا ولا أكلمه. فغدوت إلى المسجد وقد حشوت أذني كرسفًا (يعني قطنًا) فرقًا من أن يبلغني شيء من قوله حتى كان يقال لي: ذو القطنتين، وفرحت قريش يومًا وتيقنوا أن سيد بني دوس لن يصل إليه شيى من قول رسول اللّه ـ ولكن دعوة اللّه لا تقف في وجهها حجب أو سجف.

يقول الطفيل: فغدوت يومًا إلى المسجد فإذا رسول اللّه قائم يصلي عند الكعبة فقمت قريبًا منه فأبى اللّه إلا أن يُسمعني بعضَ قوله، فسمعت كلاماً حسناً، فقلت في نفسي: واثُكْلَ أمي[1] واللّه إني رجل لبيب شاعر ما يخفى عليَّ الحسنُ من القبيح فما يمنعني أن أسمع من هذا الرجل ما يقول».

وأخذ الطفيل يراقب رسول اللّه بعينيه النفاذتين حتى انصرف الرسول إلى بيته فتبعه الطفيل حتى إذا دخل بيته استأذن الطفيل عليه ودخل. ثم قال: يا محمد إن قومك قالوا لي كذا وكذا. للذي قالوا ـ لا أسمع قولك ـ ثم إن اللّه أبى إلا أن يُسْمعنيه فسمعتُ قولاً حسناً فاعرض عليَّ أمرك. فعرض عليه الرسول الإسلام وتلا عليه القرآن، فقال: لا واللّه ما سمعت قولاً قط أحسن من هذا ولا أمرًا أعدل منه، فأسلمتُ وشهدتُ شهادة الحق ثم قلت:

ـ يا نبي اللّه، إني امرؤ مطاع في قومي، وأنا راجع إليهم فداعيهم إلى الإسلام، فادعُ اللّه أن يكون لي عوناً عليهم فيما أدعوهم إليه. فقال: اللّهم اجعل له آية. وخرج الطفيل من عند الرسول، وصاح الصائح في قريش: قد أسلم سيد دوس وآمن، واجتمعت قريش على الصائح هذا، فأخبرهم الخبر، وارتجف القرشيون وأرعدوا، ولكنهم لا يستطيعون أن ينالوا من الطفيل شيئًا وإلا تألّبتْ عليهم دوس جميعها، وأقبل الطفيل بطلعته المهيبة فما استطاعوا منه شيئاً

وأقام الطفيل ما أراد اللّه له الإقامة، ثم خرج إلى قومه يقول: «فخرجت إلى قومي حتى إذا كنت بثنية تُطلعني على الحاضر، وقع نور بين عيني مثل المصباح، فقلت: اللّهم في غير وجهي فإني أخشى أن يظنوا أنها مُثلةٌ وقعت في وجهي لفراق دينهم، فتحول النور فوقع في رأس سوطي، فجعل الحاضرون يتراءون ذلك النور في سوطي كالقنديل المعلق. وولج الطفيل الحَيَّ، ودخل

---

(١) واثُكل أمي: وافقدها، وهو أسلوب ندبة واستغاثة.

بيته فأتاه أبوه فقال له:

ـ إليك عني يا أبتاه فلستَ مني ولستُ منك.

ـ ولِمَ يا بني؟

ـ إني أسلمت واتبعت دين محمد.

ـ يا بني ديني دينك. ثم طلب منه أن يعرض عليه هذا الدين حتى إذا كان حقاً آمن به، فقال له الطفيل: اذهب فاغتسلْ وطَهِّرْ ثيابك. فذهب ثم جاء فعرض عليه الإسلام فأسلم، ثم أتته امرأته فقال لها:

ـ إليك عني فلستُ منكِ ولستِ مني.

ـ ولِمَ بأبي أنت.

ـ فقال: فرَّقَ بيني وبينك الإسلام، إني أسلمت وتابعت دين محمد، فطلبت منه أن يعرض عليها هذا الدين، فقال لها: اذهبي إلى ذي الثرى فتطهري منه (وهو ماء قريب) فذهبت فاغتسلت ثم جاءت فعرض عليها الإسلام فأسلمت.

أسلم آل بيت الطفيل جميعاً، وكان لا بد للطفيل بعد ذلك أن يدعو قومه إلى عبادة اللّه الواحد الأحد، وحسب الأمر هيناً مستساغاً، فقام في قومه بعد مقامه بقليل يدعوهم إلى اللّه ورسوله. وانتظر أن يجيبوه فما أجابوا، بل سخروا منه وعابوه، وأصبح هذا البيت الدوسي الرفيع المنار مرمى السخريات والاضطهاد، فقد زادت دوس تعلقاً بأصنامها، ومحاربة لدعوة رسول اللّه، والطفيل لا يهدأ ولا يكل، يعيب أصنامهم ويسفهونه حتى ضاقوا به وضاق بهم. فخرج إلى رسول اللّه يلتمس منه القوة والبأس فلما تقابلا، قال له الطفيل: يا رسول اللّه قد غلبتني دوس فادعُ عليهم. وأخذ يقص على الرسول الأعظم ما يلقاه من عَنَتٍ واضطهاد، وما يقابلون به دعوة اللّه من سخرية ونكاية، فقال الرسول: اللّهم اهد دوساً وائت بها؟ اخرج إلى قومك فادْعُهم وارفقْ بهم.

وعاد الطفيل إلى قومه، وقد ازداد قوة وبأساً يدعوهم فلا يستجيبون، ولكن الدعوة الحقة الصادرة من القلب المؤمن الكبير لا بد أن تجد آخر الأمر التربة الصالحة، فتنمو أحسن النمو.

هاجر رسول اللّه ﷺ إلى المدينة. ومضت بدر وأُحد والخندق، وجاهد فيها من جاهد من أولئك الشهداء الخالدين. وفات الطفيل بن عمرو هذه الوقائع الثلاث، ولكنه كان يقوم بجهاد

دقيق عظيم. جهاد الدعوة في سبيل اللّه حتى استجاب له ثمانون بيتاً من دوس أقبل بهم إلى المدينة ورسول اللّه بخيبر، فسار إليه بهم، وفي خيبر قال لرسول اللّه: يا رسول اللّه اجعلنا مَيمنتكَ واجعل شعارنا مبروراً، ففعل رسول اللّه، وأبلى الدوسيون أحسن البلاء واستشهد منهم من استشهد وأسهم لهم رسول اللّه. وأقام الطفيل مع رسول اللّه في المدينة حتى فتح مكة فقال الطفيل: يا رسول اللّه ابعثني إلى ذي الكفين صنم عمرو بن حممة حتى أحرقه فبعثه إليه، وذهب الطفيل إلى صنم قومه، وجعل المسلمون يجمعون الحطب، ثم أشعل النار في الصنم وكان من خشب وهو يرتجز:

يـا ذا الكفيـن لسـتُ مـن عُبَّـادك ميـلادنـا أقـدم مـن ميـلادك

أنـا حششـت النـار فـي فـؤادك

والمسلمون يرتجزون وراءه، ودوس تنظر صنمها وهو يحترق. وبان لهم أنه ليس على شيء، فأسلموا جميعاً، ولكن الطفيل لم يقم بينهم، فعاد إلى المدينة يقضي فيها حياته بجوار النبي الأعظم ومعه ابنه عمرو، وقد شب وترعرع وبلغ مبلغ الرجال. وفي تلك الأثناء قُبض الرسول ﷺ.

ارتدت العرب عن الإسلام وخرجت على أمر نبيها، وأعلنت أنها لن تدفع الزكاة، ورأى خليفة رسول اللّه صلوات اللّه وسلامه عليه أن يجند لهم الأجناد، فبعث بالمسلمين إلى طليحة الأسدي وفي مقدمتهم الطفيل بن عمرو وابنه عمرو. فجاهد الاثنان جهاد الأبطال حتى انتهى المسلمون من طليحة وأخضعوا قبائل نجد كلها، ثم ساروا إلى اليمامة. واستعد المسلمون لهذه الحرب العوان، وأقبل الليل فناموا استعدادًا للمعركة في الصباح، ووقفت ربيئةٌ من القوم تحرسهم وغفا الطفيل بن عمرو قليلاً ثم وقف في الصباح يقول لأصحابه: «إني رأيت رؤيا فاعبروها ـ إني رأيت رأسي قد حُلق وإنه خرج من فمي طائر، وإنه لقيتني امرأة فأدخلتني في فرجها، وأرى ابني عمراً يطلبني طلباً حثيثاً ثم رأيته حُبس عني..» فقال أصحابه: خيراً. قال: أما أنا فقد أَوَّلتها، أما حلق رأسي فقطعُها، وأما الطائر فروحي، وأما المرأة التي أدخلتني فرجها فالأرض تُحفر لي فأُغَيَّبُ فيها، وأما طلب ابني لي ثم حبسه عني فإني أراه سيجهد أن يصيبه ما أصابني». وتَنفَّس الصبح واشتبك المسلمون مع بني حنيفة اشتباكاً شديداً وتخطى الطفيل وابنه عمرو الصفوف يقاتلان حتى استشهد الطفيل. أما ابنه فجاهد جهاد الأبطال حتى جرحت يده وقطعت ولم يكفَّ عن القتال.

عاد عمرو إلى المدينة، وقد فقد أباه ثم استبسل وأخذ يؤنب نفسه أن لم يُصِبْه ما أُصيب به أبوه. فقد كانت حياة أبيه أروع مثل للتضحية والفداء، فما أسلم حتى وهب للّه ولرسوله كل شيء فدعا وجاهد، وجعل منه هو نفسه رجلاً يحارب الآن في سبيل اللّه ورسوله، ثم أعطى دوساً أعظم القدوة ثم مات شهيدًا بين السيوف المسلولة والأسنة اللامعة. قد فاز أبوه، أما هو فلم يفز. إنه يتذكر يوم أقبلوا على الرسول في خيبر فبعثه صلوات اللّه وسلامه عليه إلى قومه دوس يستمدهم واستعرت الحرب يومئذ في خيبر، فقال له عمرو وقد نشب القتال: «يا رسول اللّه تغيبت عنه. .».

ـ أما ترضى أن تكون رسولَ رسولِ اللّه. فرضي عمرو يومئذ وشفيت نفسه يومها، يوم أن أراد القتال فما ظفر فيه، ولكن مَنْ يشفيه الآن، وقد طلب الشهادة فأخطأها وفاز بها أبوه. ألم يَشْتَقْ هذا النعيمَ الأبدي بجانب الرسول الأعظم وبجانب أبيه. التقوا هناك. التقى الأحبة أحسن اللقاء، وعاد الجيش إلى المدينة وما زال عمرو بن الطفيل هائماً يطلب الشهادة يريدها في كل موضع. ومات خليفة رسول اللّه وانتقلت الخلافة إلى عمر بن الخطاب.

وكان عمرو عند عمر بن الخطاب ـ قبل خروجه إلى اليرموك ـ وقد أُتي بطعام، فتنحى عنه عمرو، فقال عمر:

ـ مالك لعلك تنحيت لمكان يدك. فقال عمرو:

ـ أجل.

فأجابه عمر بن الخطاب: واللّه لا أذوقه حتى تَسُوطَهُ بيدك[1]، فواللّه ما في القوم أحد بعضه في الجنة غيرك.

استمعها عمرو فبعث في قلبه النور الهادي، النور الذي طالما استمده من رسول اللّه يوم كان حياً، وها هو ذا الآن يستمد بعضه من الفاروق، ألم يشهد له أن بعضه في الجنة، وهو سيد الأرض الذي لا تأخذه في الحق لومة لائم، وخرج عمرو في جيش المسلمين إلى اليرموك، وهجم على جحافل الروم وصمد المسلمون وأخذوا يتساقطون واحداً بعد واحد، ولكن تم لهم النصر، وارتفعت ألوية التوحيد على فلسطين وكان بين الشهداء عمرو بن الطفيل.

---

(١) تَسُوطه بيدك: تناله بيدك من السَّوْط، وهو خَلطُ الشيء بعضه ببعض.

وفي عالم آخر لا ينتهي اجتمع الأحبة الذين عرفوا معنى الحياة تضحية وفداء للّه ولرسوله. لا شهوات وصغائر، فكانوا في الأرض الأوفياء المجاهدين. وكانوا في الآخرة الشهداء الخالدين.

* * *

أبو حذيفة بن عتبة

«كانت حياته توبة مجاهد وصوت ضمير»

لقد وصل الصوت الإلهي الذي علا في أرجاء مكة إلى آذان سراتها، كما وصل إلى آذان فقرائها ومواليها. ولقد سمع آل عتبة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف هذا الصوت قوياً رائعاً يدعو إلى عبادة الواحد الأحد عبادة نقية خالصة من أرجاس الأوثان ـ فاهتزت تلك القلوب وخفقت.

هذا الشريف القرشي الذي يدعوهم إلى هذا الدين بلغ سَنام الشرف وذروة الجاه ولكن كل هذا ما وجهه عن غايته، بل إنه ليجاهد فيها ويثبت عليها ثبوت الطود الأشمخ هل هذه قوة الإنسان!! ـ هل صبر محمد بن عبد اللّه كصبر الناس أجمعين؟ أبداً. لقد علا محمد بن عبد اللّه فوق الإنسانية وفوق البشر ـ أحاديث نفس تلقى في نفوس آل عتبة. وكانت ميزة هذا القبيل من قريش دقة الشعور وعذاب الضمير، كم آلم هذان هذه الأسرة أشد الألم، وحاكماها أشد المحاكمة ولكن هل يؤمنون لمحمد رسول اللّه فيضيعون هذا الجاه العريض وهذه المكانة السامية في قريش؟ ـ هل يصبئون عن دين أسلافهم ويسفهون أوثانهم. سؤال تردد في أعماقهم جميعاً.

أما عتبة بن ربيعة وأخوه شيبة، وابنه الوليد فقد توقفوا.

أما أبو حذيفة بن عتبة فلم يتردد ولم يتوقف ـ إن دعوة الحق ظاهرة بينة ـ فليعتنقها وليفنَ فيها وليكن الثمن الذي سيلقاه من قريش أياً كان. فقد باع نفسه للّه، واستربح من اللّه الثمن. وهكذا أرسل الإسلام أشعته البيضاء النقية إلى قلب أبي حذيفة؛ لقد آمن أبو حذيفة كما آمنت امرأته سهلة بنت سهيل بن عمرو.

ولقي أبو حذيفة من قريش الرهق، وحاولوا فتنته عن دينه غير أن اللّه أيده بنصره فلا ضعف ولا خور. بل إنه ليدأب على نشر الدعوة في صفوف أهله، ويرى منهم اللين ويرى فيهم الحلم والرأي فيطمع في هدايتهم إلى دين اللّه، ويستمع عتبة إلى ابنه يحدثه عن جلال الدين وعظمته. والرجل يفكر ويطيل في التفكير.

وازدادت قريش إمعاناً في اضطهاد الرسول عليه الصلاة والسلام وازداد الرسول إيماناً

بدعوته، وأسلم حمزة بن عبد المطلب وعلم عتبة بن ربيعة؛ فسار إلى قريش وقد عزم في نفسه على أمر ـ لم لا يكلم رسول اللّه ويحادثه في دعوته ويطلب منه أن يرجع عنها في سبيل عروض يعرضها عليه؟! ـ دخل عتبة إلى الكعبة وجلس في نادي قريش ـ وكان رسول اللّه ﷺ جالساً في المسجد وحده:

قال عتبة: يا معشر قريش ألا أقدم إلى محمد فأكلمه وأعرض عليه أموراً يقبل بعضها فنعطيه أيها شاء ويكف عنا؟!

فقالوا ـ بلى يا أبا الوليد قم إليه فكلمه. فقام إليه عتبة حتى جلس إلى رسول اللّه ﷺ ـ وهو يتمعن في هذا الوجه الذي يحدثه عنه ابنه أبو حذيفة ـ كأنه لم يره من قبل ـ فقال ـ يا ابن أخي إنك منا حيث قد علمت من البسطة في العشيرة والمكانة في النسب وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم مزقت به جماعتهم وسفهت به أحلامهم وعبت به آلهتهم ودينهم وكفرت به من مضى من آبائهم فاسمع مني أعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها فقال له رسول اللّه ﷺ: قل يا أبا الوليد. قال:

ـ يا ابن أخي إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثر مالاً، وإن كنت إنما تريد به شرفاً سودناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك، وإن كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رئياً تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه.

والرسول الأعظم يستمع حتى إذا ما انتهى عتبة قال له الرسول صلوات اللّه وسلامه عليه: أقد فرغت يا أبا الوليد. قال:

ـ نعم. قال له الرسول:

ـ فاستمع مني. قال: أفعل.

فتلا الرسول: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿حمٓ * تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ * كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ * وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ﴾ [فصلت: ١ ـ ٥].

ثم مضى رسول اللّه ﷺ فيها يقرؤها عليه، فلما سمعها منه عتبة، أنصت لها وألقى يديه خلف ظهره معتمداً عليهما يسمع منه، ثم انتهى رسول اللّه ﷺ إلى السجدة منها فسجد، ثم قال:

ـ قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت، فأنت وذاك؛ فقام عتبة إلى أصحابه، فقال بعضهم لبعض:

ـ نحلف باللّه، لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به. فلما جلس إليهم قالوا:

ـ ما وراءك يا أبا الوليد؟! قال:

ـ ورائي أني سمعت قولاً واللّه ما سمعت مثله قط، واللّه ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة، يا معشر قريش أطيعوني وخلوا بين هذا الرجل وما هو فيه فاعتزلوه فواللّه ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه وإن يظهر على العرب فملكه ملككم، وعزه عزكم، وكنتم أسعد الناس به قالوا:

ـ سحرك واللّه يا أبا الوليد بلسانه.

مكتبة الرمحي أحمد

ـ هذا رأيي فاصنعوا ما بدا لكم.

* * *

ازداد إيلام قريش لرسول اللّه وصحبه وأخذوا يفتنونهم عن دينهم، فطلب منهم رسول اللّه ﷺ أن يهاجروا إلى بلد آمن واختار لهم الحبشة؛ فهاجر أبو حذيفة هو وامرأته (سهلة) وقد بغض العيش في جوار المشركين، وفي الحبشة ولدت له امرأته ولداً سماه محمداً.

وقضوا في الحبشة ما شاء اللّه لهم، حتى علموا أن عمر قد أسلم، وأن حدة قريش قد هدأت قليلاً، فعاد منهم من عاد، وكان من بينهم أبو حذيفة وزوجته، ولكن ما لبثت قريش أن زاد ثورانها على النبي وصحابته، فأخذوا يذيقونهم كؤوساً من الذل الهائل، ولم يستطع أبو حذيفة أن يفارق مرة أخرى النور، وأن يترك الرسول الأعظم ـ فبقى معه ـ وهو يحاول ما استطاع أن يهدي أباه؛ وأبوه يحيا في عذاب نفسي مستمر. بل إنه ليشعر شعوراً تاماً أن رسول اللّه على حق وأن قريشاً على باطل، ولكن الخروج على دين أجداده كان يخيفه ويروعه، وكان لما ألقاه أبو حذيفة في نفس أبيه عتبة بن ربيعة أكبر الأثر في نفسه. وكان عاملاً مغالياً في تفريق كلمة قريش في غزوة بدر ـ كما سترى بعد ـ وذهب رسول اللّه ﷺ إلى ثقيف يعرض دعوته، فقابلوه أسوأ مقابلة، وأغروا به سفهاءهم وعبيدهم يسبُّونه ويصيحون به، حتى اجتمع عليه الناس وألجأوه إلى حائط لعتبة بن ربيعة وشيبة ابن ربيعة وهما فيه، ورجع عنه من سفهاء ثقيف من كان يتبعه، فعمد إلى ظل حبلة من عنب فجلس فيه، وابنا ربيعة ينظران إليه ويريان ما لقي من سفهاء أهل الطائف فلما

اطمأن رسول اللّه ﷺ قال:

«اللّهم أشكو إليك ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين، وأنت ربي، إلى من تكلني؛ إلى بعيد يتجهمني، أم إلى عدو ملكته أمري، إن لم يكن بك عليّ غضب فلا أبالي ولكن عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تُنزل بي غضبك، أو يحل عليّ سخطك، لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوّة إلا بك».

فلما رآه ابنا ربيعة عتبة وشيبة، ورأيا ما لقي تحركت له نفساهما، فدعوا غلاماً لهما نصرانياً يقال له عداس، فقالا له: خذ قطفاً من العنب فضعه في هذا الطبق، ثم اذهب إلى ذلك الرجل فقل له يأكل منه، ففعل عداس ثم أقبل به حتى وضعه بين يدي رسول اللّه ﷺ ثم قال له: «كل».

فلما وضع أمام رسول اللّه ﷺ قال: بسم اللّه. ثم أكل.

فنظر عداس في وجهه ثم قال: واللّه إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد. فقاله له رسول اللّه صلوات اللّه وسلامه عليه: ومن أهل أي البلاد أنت يا عداس وما دينك؟

ـ نصراني، وأنا رجل من أهل نينوي.

ـ من قرية الرجل الصالح يونس بن مَتَّى؟

ـ وما يدريك ما يونس بن متى؟

ـ ذاك أخي كان نبياً، وأنا نبيّ.

فأكبَّ عداس على رسول اللّه ﷺ يقبّل رأسه وقدميه، وأحد ابني ربيعة يقول لصاحبه: أما غلامك فقد أفسده عليك. فلما جاءهما عداس قالا له: ما لك يا عداس؟ ما لك تقبل رأس هذا الرجل ويديه وقدميه. قال:

ـ يا سيدي ما في الأرض خير من هذا، لقد أخبرني بأمر ما يعلمه إلا نبيّ..!

ثم تركهما وعاد ابنا ربيعة يفكران.

* * *

اهتدى اليثربيون إلى اللّه وإلى رسوله وأذن النبي ﷺ في الهجرة فهاجروا إليها، وأسرع أبو حذيفة بن عتبة إلى المدينة مهاجراً إلى اللّه ورسوله وعاش في هذا المجتمع الإسلامي حتى نادى

منادي الجهاد، فخرج في مقدمة الصفوف في بدر.

أقبلت قريش تحارب اللّه ورسوله، فلما رآها النبي ﷺ قال: اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تحاول تكذيب رسولك، اللهم فنصرك الذي وعدتني، اللهم أحنهم الغداة. ثم رأى عتبة بن ربيعة على جمل أحمر فقال: «إن يكن في أحد من القوم خير فعند صاحب الجمل الأحمر إن يطيعوه يرشدوا» وبعثت قريش لعمر بن وهب أن يحذّر أصحاب رسول اللّه ﷺ، فذهب ثم عاد يقول: «قد رأيت يا معشر قريش البلايا تحمل المنايل، نواضح يثرب تحمل الموت الناقع، قوم ليس لهم منعة ولا ملجأ إلا سيوفهم، واللّه ما أرى أن يقتل رجل منهم حتى يقتل رجلاً منكم، فإذا أصابوا منكم أعدادهم فما خير العيش بعد ذلك فَرَوْا رأيكم».

فلما سمع حكيم بن حزام هذا وكان يعلم أن عتبة بن ربيعة إنما خرج مستكرهاً ذهب إليه وقال:

ـ يا أبا الوليد إنك كبير قريش وسيدها والمطاع فيها، هل لك إلى ألا تزال تذكر منها بخير إلى آخر الدهر!

ـ وما ذاك يا حكيم؟

ـ ترجع الناس وتحمل أمر حليفك عمرو.

ـ قد فعلت أنت علي بذلك، إنما هو حليفي فعليّ عَقْلُه وما أصيب من ماله فَأْتِ ابنَ الحنظلة (أي أبا جهل بن هشام) فإني لا أخشى أن يشجر أمر الناس غيره.

ثم قام عتبة بن ربيعة خطيباً فقال: «يا معشر قريش إنكم واللّه ما تصنعون بأن تلقوا محمداً وأصحابه شيئاً، واللّه لئن أصبتموه لا يزال الرجل ينظر في وجه رجل يكره النظر إليه قتل ابن عمه أو ابن خاله أو رجلاً من عشيرته فارجعوا وخلوا بين محمد وبين سائر العرب فإن أصابوه فذاك الذي أردتم، وإن كان غير ذلك لم نتعرض منه لما تكرهون.

وفي تلك اللحظة انطلق حكيم بن حزام إلى أبي جهل فقال له: «يا أبا الحكم إن عتبة أرسلني إليك بكذا وكذا». فقال: انتفخ واللّه سحره حين رأى محمداً وأصحابه. كلا واللّه لا نرجع حتى يحكم اللّه بيننا وبين محمد، وما بعتبة ما قال ولكنه قد رأى أن محمداً وأصحابه أكلة جزور وفيهم ابنه فقد تخوفكم عليه.

ثم بعث إلى عامر بن الحضرمي، فقال هذا حليفك يريد أن يرجع بالناس وقد رأيت ثأرك

بعينك، فقم فأنشد خفرتك ومقتل أخيك، فقام عامر بن الحضرمي وصرخ. واعمراه. واعمراه. فحميت الحرب وأفسد أبو جهل على الناس الرأي الذي دعاهم إليه عتبة. فلما بلغ عتبة قول أبي جهل انتفخ واللّه سحره. قال: «سيعلم مُصَفّر الاست من انتفخ سحره».

وفي تلك اللحظة قتل حمزة بن عبد المطلب. الأسود عبد الأسود المخزومي، فخرج عتبة بن ربيعة بين أخيه شيبة وابنه الوليد من الصف ودعا إلى المبارزة.

إنه ليعلم أنه على باطل وأن كثيرين من قريش ليعلمون أنهم على باطل، وأن مع محمد الحق المبين، فما لهم يحاورون وينافقون. وإنه ليعلم أن ابنه فيهم، وقد يقابله في ميدان النزال ـ أحدهم يدافع عن إيمانه بالحقيقة السماوية ـ وهو يدافع عن أوثان لا تغني من اللّه شيئاً قد يقابل ابنه فيقتل أحدهما الآخر ـ فما خير العيش بعد ذاك ـ لقد كانت قريش مضعضعة الكيان حين رأت تضعضع نفسية شريفها عتبة بن ربيعة.

وهذه كتيبة رسول اللّه قوية مؤمنة يعلم كل فرد أنه لا يدافع عن نفسه إنما عن دينه فكان الفرد لا يقاتل بقوة ذاته بل بقوة المجموعة كلها ـ فازداد عددهم المعنوي عن عدد أعدائهم ألوف المرات.

أما غايتهم فكانت واحدة. أما قائدهم فكان واحداً. أما سبيلهم فكان إلى اللّه ورسوله نصراً واستشهاداً.

لقد عرفت الغاية، وعرف القائد، وعرفت الوسيلة. فلو اجتمعت الأرض عليهم جميعاً في ذلك اليوم ما غلبتهم ـ إنهم الآية آية السماء على الأرض، إنهم حجة الإسلام على أبنائه المارقين الآن تلزمهم أن النصر لمن آمن وفني في محمد ودينه؛ ولقد رأى القرشيون هذا فما فهموا أول الأمر. وحين دارت عليهم الدوائر عرفوا أن محمداً على حقٍ ولكن ما آمن منهم كثير

رأى أبو حذيفة أباه وعمه وأخاه يخرجون للقتال، وإنه ليعلم أنه خرج مستكرهاً لقتال المسلمين، ولكن ما له يتقدم، هذا الرجل الحكيم المتزن، ليموت بأيدي المسلمين كافراً فيخلد في النار. حزن أبو حذيفة ولكن طرأ عليه هذا الطارىء القوي الرائع؛ فليخرج هو إلى أبيه فيقتله ليكون الأمر عبرة للأجيال. وامتشق أبو حذيفة سيفه وخرج إلى المبارزة، ولكن منعه الرسول، فأطاع وما كان أصحاب رسول اللّه إلا أكثر الجنود طاعة بل فناء في قائدهم العظيم.

ووقف أبو حذيفة ينظر إلى المبارزة وفيها قتل أبوه وأخوه وعمه ـ ولكن ما النفس الإنسانية؟! أليست هي مجموعة من العواطف والانفعالات والمشاعر؟ ولقد تحطم هذا كله في

نفس أبي حذيفة، وأثار مزيجاً من الحزن والألم والغيظ في نفسه.

والتحمت قريش مع المسلمين فقال رسول اللّه ﷺ: «إني قد عرفت أن رجالاً من بني هاشم وغيرهم قد أخرجوا كرهاً لا حاجة لهم بقتالنا فمن لقي منكم أحداً من بني هاشم فليقتله ومن لقي أبا البختري بن هشام بن الحارث بن أسد فلا يقتله ـ ومن لقي العباس بن عبد المطلب عم رسول اللّه ﷺ، فلا يقتله فإنه إنما خرج مستكرهاً». ولقد سمع أبو حذيفة هذا ـ وأبوه، ألم يخرج هو الآخر مستكرهاً ـ ونسي أن أباه هو الذي بدأ النزاع وأثاره وصاح: «أتقتل آباءنا وأبناءنا وإخوتنا وتترك العباس، واللّه لئن لقيته لألجمنه بالسيف». وإن رسول اللّه ليسمع هذا فينادي عمر ويقول له: «يا أبا حفص أيضرب وجه عم رسول اللّه ﷺ بالسيف»؟ فقال عمر: «يا رسول اللّه دعني فلأضرب عنقه بالسيف فواللّه لقد نافق». فأشفق عليه رسول اللّه ﷺ ونهى عمر عن قتله وقال: «لقد رأى مصرع أبيه بعينيه».

* * *

أبو حذيفة بن عتبة في ميدان القتال يضرب يميناً وشمالاً ويحطم قريش تحطيماً. ماذا فعلت ـ أبا حذيفة ـ فوقفت تعارض رسول اللّه ﷺ وتحاده، وتعصي أمره، هذا الأمر الآتي من السماء، أإنك الآن كواحد من هؤلاء المنافقين الذين يؤذون رسول اللّه في المدينة أو ككافر من أولئك الكفرة المجرمين. من أبوك هذا! ومن عمك! ومن أخوك بجانب تلك الشعلة الأبدية التي اعتنقتها والتي يحملها رسول اللّه من ربه! ما أمر رسول اللّه إلا وحيٌ أتى من السماء. والعباس ابن عبد المطلب إنه لمسلم في أعماقه وإنه لأكبر عامل مثبط بين المشركين يبعث بأخبارهم إلى رسول اللّه ﷺ ويعمل على خذلان الكفر في موطن الكفر فما لك تعصي أمر رسول اللّه فيه وتريد أن تلجمه بالسيف ـ ما خير العيش بعد هذا؟!

أيتها النفس اللوامة التي تحاكمين وتعاقبين رفقاً بي قليلاً فلقد أظلمت أمام عيني الحياة وما أرى فيها الآن إلا سراباً خداعاً ـ وتكشفت الحياة أمام ناظري ـ فإذا هي غرور دونه أي غرور. فإنه عمل صالح وحياة كلها طهر وإيمان أضعتها اليوم وفي لحظة ـ فنكثت على أعقابك!.

وانتهت بدر. وقد أبلى فيها أبو حذيفة أحسن البلاء وعرض نفسه للموت أكثر من مرة. ووقف بجانب الرسول خاشعاً متصدع القلب.

ثم حفر المسلمون لقتلى المشركين قليباً وأمر رسول اللّه ﷺ أن يلقوا فيه ـ وفي تلك اللحظة أخذ عتبة بن عتبة فسحب إلى القليب ـ فنظر رسول اللّه ﷺ في وجه أبي حذيفة بن عتبة

فإذا هو كئيب قد تغير.

ـ يا أبا حذيفة لعلك دخلك من شأن أبيك شيء.

ـ لا واللّه يا رسول اللّه، ما شككت في أبي ولا في مصرعه، ولكني كنت أعرف من أبي رأياً وحلماً وفضلاً، فكنت أرجو أن يهديه ذلك إلى الإسلام، فلما رأيت ما أصابه وذكرت ما مات عليه من الكفر بعد الذي كنت أرجو له، أحزنني ذلك. فدعا له رسول اللّه ﷺ بخير وقال له خيراً.

أليس في هذا عفو تام عن أبي حذيفة؟! أو لم يكن قتاله في بدر شفيعاً له عند نفسه اللوامة؟ أبداً. أبداً. إلى انتهاء الحياة!! وها هو ذا يقول: «ما أنا بآمن من تلك الكلمة التي قلت يومئذ ولا أزال منها خائفاً إلا أن تكفرها عني الشهادة».

يا له من قلب إنساني علا فوق القلوب فما عاد ينظر إلى الحياة إلا كخطيئة يجب التكفير عنها! إن أيامه لتمضي وهو يحيا في دنيا النادمين.

والحرب تستعر بين رسول اللّه وبين المشركين وأبو حذيفة يطلب الشهادة في كل موضع، ولكنه لا يظفر بها. في أحد وفي حنين وقف كالأسد يدافع عن دين اللّه بل وفي جميع المغازي.

وذهب الرسول إلى الرفيق الأعلى وهو راض عن أبي حذيفة كل الرضاء غير أن أبا حذيفة ما زال خائفاً من كلمته أيضاً. ودعا خليفة رسول اللّه ﷺ المهاجرين والأنصار إلى الجهاد وقتال المرتدين من بني حنيفة ـ فأسرع الصفوة المختارة من المجاهدين والأنصار وفي مقدمتهم أبو حذيفة.

وقاد خالد بن الوليد الجيش إلى بني حنيفة، وانقض مسيلمة الكذاب على المسلمين بجيوش كثيفة من المشركين، وكانت الموقعة صفحات ثلاثة: أما الصفحة الأولى فقد هزم المسلمون فيها وهنا خرج خالد من معسكره وصاح: «وامحمداه» فتذكر الأنصار والمهاجرون عهودهم ومواثيقهم وحمل زيد بن الخطاب راية المهاجرين وتقدم، وهنا بدأت الصفحة الثانية وفيها ثبت المسلمون واستشهد زيد، فحمل أبو حذيفة لواء المسلمين وصاح فيهم: «يا أهل القرآن، زينوا القرآن بالفعال». وهجم المسلمون، واستشهد أبو حذيفة، وهنا بدأت الصفحة الثالثة فقد غلب المسلمون بني حنيفة وقتلوا مسيلمة الكذاب وتمت كلمة ربك الحسنى.

وفي ساحة القتال. نام أبو حذيفة بن عتبة نومته الأبدية ومر به المسلمون يلتمسون من حياته ومن موته أبلغ العظات. فهنيئاً لك أبا حذيفة حياة المجاهدين الأتقياء. وهنيئاً لك أبا حذيفة جزاء الشهداء الأبرياء.

فارس الخزرج

«إيه ـ يا منبع القوة ـ يا فارس الخزرج، ما زالت الأجيال تردد لنا ولمن بعدنا. أنه ارتوى من نبع الخلود ـ حتى فاض، فإذا الدنيا وعبادها خاضعون لفيضه»

ألا تنظر إلى الضوء. الضوء الساري من وراء الآفاق مبشراً بعوالم جديدة خافية عن أعين الضلال والهائمين في هذا الوادي السحيق. وادي الحياة.

ألا تستمع إلى القلب الخفاق. الذي يردد على نايه العظيم ألحان الخلود؟!

ألا تستمع إلى الصوت المنبعث من حراء. يحدث عما كان وما سيكون وما هو كائن؟!

ألا إنه الصوت الإلهي نادى به المبعوث من مبدع الأكوان فاخترق الحجب، ونفذ إلى الأعماق سار ثم سار حتى أودع الصدور الحافظة من أهل يثرب. ألا تستمع إليه أيها الفارس الذي رهبه الناس وانحنى لسطوته جبابرة الصحراء، ألا تستمع إليه مدوياً مؤذناً بثبات الحقيقة؟! إيه أيها الفارس الرهيب! أما فكرت من قبل في غاية هذا الكون ومنتهى تلك المصائر؟! أما تكشف لك سر الأسرار ـ سر الحياة والموت. لم نحيا وإلى أين نمضي. لقد أتت الحلول أخيراً تقدم لك فياضة فأقبل على النبع لترتوي. فقد طال الظمأ والهوى إلى الارتواء. وسرعان ما أقبل الفارس الرهيب ـ فارس الخزرج أبو دجانة فارتوى من نبع الخلود. ارتوى حتى فاض، فإذا الدنيا تخضع لسيفه البتار، وتكتب في صحائفها الباقيات خلوداً لا ينتهي.

* * *

آمن «أبو دجانة» سماك بن خرشة إيمان الأقوياء، وأدرك زعيم الأنبياء هذا فجعله في الصدارة من الصحابة ـ ولكن أبا دجانة ما أخذه الغرور ولا عظم به العجب. إنه يسير في إطراقة المؤمنين. إطراقة للّه فحسب، وخشوع يملأ ذرات روحه فيجعلها صافية وادعة، وهكذا كان فارس الخزرج الرهيب الذي دوى اسمه في بوادي العرب وصحاريها.

* * *

ارتفع اللواء. اللواء الذي لا ينحني أبد الآبدين. اللواء الخالد السرمدي، لواء الحق

المبين. كتب عليه بأحرف من نور ونار. هذا لواء سيد المرسلين. ارتفع اللواء ولا ينحني، والتحمت الصفوف وفي وسطها أبو دجانة وعلى رأسه عصابة حمراء. عصابة الموت.

كان الشعلة المحرقة التي لا تحترق، وكان الصاعقة المتحركة التي لا تقف فيها الحركة، وكان الحركة المستمرة التي لا يوقفها سكون. ما لأبناء الأرض وعبادها من قريش يفرون من أمامه! إنهم تناسوا الحكمة الخالدة يوم لقوه.

إنه ارتوى من نبع الخلود. حتى فاض، فإذا الدنيا وعبادها خاضعون لفيضه. تلك صحيفة «فارس الخزرج» في جبل أحد.

* * *

ارتفع اللواء. لواء رسول اللّه. ورسول اللّه بين الصفوف وفي يده سيفه ثم قال: من يأخذ هذا السيف بحقه؟ فقام إليه فرسان المسلمين فمنعهم وهنا سألوه: وما حقه يا رسول اللّه؟ فأجاب:

ـ أن تضرب به في العدو حتى ينحني. فأحجم القوم. وهنا قام أبو دجانة وقال:

ـ أنا آخذه يا رسول اللّه بحقه. فأعطاه إياه.

وهنا أخرج عصابة حمراء. فتعصب بها، فقالت الأنصار «أخرج أبو دجانة عصابة الموت»! وهكذا كانت تقول له إذا تعصب بها. وتزاحف الجيشان وتصافحت السيوف.

* * *

أنـا الـذي عـاهـدنـي خليلـي ونحـن بـالسيـف لـدى النخيـل

ألا أقـوم الـدهـر فـي الكيـول أضـرب بسيـف اللّـه والـرسـول

استمعها المسلمون، وأبو دجانة يترنم بها وسط الصف، والكافرون يفرون من حوله كأنهم الحمر المستنفرة الفارة، وصرع أبطال القرشيين تحت قدمه حتى وصل إلى كافر من الكفرة فحمل عليه فولول فإذا هي امرأة، فلم يقتلها، إنه أكرمَ سيفَ رسول اللّه صلوات اللّه وسلامه عليه أن يضرب به امرأة.

* * *

ارتفع اللواء. لواء رسول اللّه. وقد فر من حوله المسلمون ولم يثبت إلا من عصمه اللّه،

وفي مقدمتهم أبو دجانة. فإذا ما أقبلت كتائب الكفر تصدى لها هو وفارس عبد مناف ـ علي بن أبي طالب ـ حتى قضيا على الكثير منها، ثم انهمر القرشيون من كل جانب على رسول اللّه يقذفونه بالنبال. وهنا أقبل أبو دجانة على رسول اللّه وجعل نفسه ترساً له والنبال تقع في ظهره وهو منحنٍ لا يشعر بالآلام والأوصاب. وهنا بايع الرسول على الموت. ووهب له نفسه وروحه. صائحاً بتلك الكلمة التي كتبتها له الأجيال:

«نفسي دون نفسك وعيني دون عينك، والسلام عليك غير مودع».

وكم فزع القرشيون لتلك الروح. روح أصحاب محمد صلوات اللّه وسلامه عليه، تلك الروح التي تبدو في الملمات غير جزعة، غير متعلقة بالوجود الأرضي، وهو منتهى أملهم وغايتهم. وهؤلاء هم الكافرون بالحق. تناسوا حكمة باقية أبد الزمان ـ أن صحابة الرسول وفي مقدمتهم أبو دجانة ـ قد ارتووا من نبع الخلود. حتى فاض فإذا الدنيا وعبادها خاضعون لفيضهم.

وتلك صحيفة «فارس الخزرج» في جبل أحد.

* * *

أي صحائف كتبها فارس الخزرج بعد ذلك ـ إنها أرفعها وأخلدها. في جميع مشاهد الرسول لم يتخلف عن واحدة. بل كان فيها الفارس المجلي. ثم كان الأمر لأبي بكر بعده. وارتدت العرب وعلى رأسهم بنو حنيفة، وسار إليهم المسلمون ومادت الأرض هناك بالقتلى والأشلاء، وأبو دجانة يصول صولة الأسد، متذكراً عهوده الخوالي، عهوده مع الكائن النوراني الأعظم، الذي بعث فأعطى ثم مضى، ألا من وصال، ألا من قرب حول الحوض الموعود.

وأبلى أحسن البلاء. وصناديد بني حنيفة يهاجمونه كتلاً متراصة فينكل بهم تنكيلاً ـ وهو في حلمه السرمدي.

ولجأ المشركون أخيراً إلى الحديقة وتحصنوا بها، فألقى المسلمون أبطالاً منهم إليها، كان أولهم أبا دجانة، وحارب أبو دجانة حتى تمكن المسلمون من الدخول، وفي تلك الأثناء كسرت قدمه ولكنه استمر في القتال وقد أصابته الجراح حتى قتل بعد أن رأى نصر المسلمين.

وتلك كانت صحيفته الأخيرة.

إيه. يا منبع القوة، يا فارس الخزرج، ما زالت الأجيال تردد لنا ولمن بعدنا. إنه ارتوى من نبع الخلود حتى فاض، فإذا الدنيا وعبادها خاضعون لفيضه.

فتنة الأشراف

«تحت ألوان هائلات من العذاب رجعوا عن دينهم إلى دين الطاغوت والكفر، لا بقلوبهم ولكن بألسنتهم، فأظهروا الكفر وقلوبهم كانت عامرة بالإيمان. وفي الرياض الخالدات. سيحيون. لا لغو هناك ولا تأثيم، بل تزفهم الملائكة في أعالي السماء.. سلام عليكم. سلام عليكم وطوبى لكم يوم الميعاد»!

الشُّواظ المحرق تنزل من لهيب هذه الشمس على بيوت مكة فتردُّه سُقف بيوتهم، ويجلس القرشيون في ظلال ناعمين، أما عابرو الطريق في تلك اللحظات القاسيات من وجه النار فكانوا يسرعون إلى حيث يبتغون مأوى من هذا الهجير القاسي، وخلت طرقات مكة من الناس ولم يعد هناك ثمة رجل أو امرأة ـ وهدأت الحركة. وساد الكون، سكون أشبه بسكون الليل، ولكن يمتاز عنه بقساوة جوه واختناقه. وفي وسط هذا السكون كان يسمع لَهَثٌ مُحزن. كانت الشمس تطل من سقف بيتين أو ثلاثة على رجال قُيدت أقدامهم بالحديد وتعرضت أجسامهم لضوء الشمس القاتل. كان يسمع دقات قلوبهم وهي ترتفع وتنخفض، أصواتهم لاهثة متعبة، ولكن لا تأوه ولا أنين، افترسهم الألم، وأضناهم الحزن والعذاب، فإذا ما أقبل عليهم أشهدهم وخز الضمير. كان هؤلاء هم المفتونين من أصحاب محمد رسول اللّه. وكان من بينهم هشام بن العاص وعياش بن ربيعة والوليد بن الوليد وسَلمة بن هشام بن المغيرة وغيرهم. أولئك الأولون من صحابة الرسول صلوات اللّه وسلامه عليه.

تحت ألوان هائلات من العذاب رجعوا عن دينهم إلى دين الطاغوت والكفر لا بقلوبهم ولكن بألسنتهم، فأظهروا الكفر وقلوبهم كانت عامرة بالإيمان، وكأن قريشاً أدركت ثباتهم على دينهم فوهبتهم الحياة فقط وسلبتهم الحرية والحركة.

* * *

هناك في تلك البلاد المجدبة. كانت قوة الظلام وقوة النار تتنازعان، وتضطرم نيران العداوة بينهما. وكان من عباد الظلام العاص بن وائل السهمي، غلظ قلبه واستحوذ الشر عليه،

وكان في قلبه من الخبث والدهاء ما جعله من أفذاذ دهاتهم الماكرين. وكم تفنن العاص في إيذاء المسلمين! وتشهد مكة يوماً موقفاً له مع خباب بن الأرت صاحب رسول الله ـ فقد كان خباب قَيْناً[1] بمكة يعمل السيوف، كان قد باع من العاص بن وائل سيوفاً عملها له حتى كان له عليه مال فجاءه يتقاضاه، فقال له: يا خباب أليس يزعم محمد صاحبكم هذا الذي أنتَ على دينه أن في الجنة ما ابتغى أهلُها من ذهبٍ أو فضة أو ثياب أو خدم. قال خباب: بلى. قال: فأنظرني إلى يوم القيامة يا خباب حتى أرجع إلى تلك الدار فأقضيك هناك حقك، فوالله لا تكون وصاحبك يا خباب آثر عند الله مني، ولا أعظم حظاً في ذلك. ونزل الوحي على رسول الله: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ۞ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا ۞ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ۞ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾ [مريم: ٧٧ ـ ٨٠].

وزاد العاص لَجَاجاً[2] في الطغيان والإثم وعداوة الرسول، ولكن الرسول حين يراه يقول: «ابنا العاص مؤمنان. هشام وعمرو»، أما هشام وكان أصغر من أخيه عمرو فقد آمن، وتَحمَّلَ هشام من عَنَتِ أبيه وأخيه عمرو الشيء الكثير ـ فما أمر النبي ﷺ أصحابه بالهجرة حتى هاجر هشام إلى الحبشة في الهجرة الثانية، ثم عاد إلى مكة حين بلغه بدء هجرة الصحابة إلى يثرب، واتفق مع اثنين من الصحابة هما عمر بن الخطاب وعياش بن أبي ربيعة على الهجرة، يقول عمر اتعدت لما أردنا الهجرة إلى المدينة أنا وعياش بن أبي ربيعة وهشام بن العاص التناضب من إضاءة بني عفار فوق سرف وقلنا أينا لم يصبح عندها فقد حُبسَ فليمضِ صاحباه، فأصبحت أنا وعياش بن أبي ربيعة عند التناضب وحُبس عنا هشام وفتن فافتتن».

أدرك العاص إذن أن ابنه سيفر بدينه إلى المدينة فأرصد له الأرصاد حتى إذا هم بالهجرة في الصباح قبض عليه وسجنه، وخضع هشام لهذه الألوان المهلكة من العذاب فنطق بكلمة الكفر.

* * *

وهاجر عمر وعياش حتى وصلا المدينة ونزلا في بني عمرو بن عوف، وخرج أبو جهل بن هشام والحارث بن هشام إلى عياش، وكان ابن عمهما وأخاهما لأمهما حتى قدما المدينة ورسول الله ﷺ بمكة فكلماه وقالا له: إن أمك قد نذرت أن لا يَمسَّ رأسها مشطٌ حتى تراكَ، ولا تستظل

---

(١) قيناً: حداداً.
(٢) لَجَاً: تمادياً.

من شمس حتى تراك. سمع عياش هذا فذكر أمه فَرَقَّ لها ـ ولحظ عمر العظيم هذا ـ فقال: «يا عياش إنه واللّه إن يريدك القوم إلا ليفتنوك عن دينك فاحذرهم، فواللّه لو قد آذى أمك القملُ لامتشطت، ولو قد اشتد عليها حَرُّ مكة لاستظلت». ولكن عياشاً الرقيق القلب قال: أبرُّ قَسَمَ أمي ولي هناك مال تأخذه، ويعود عمر العظيم فيقول: إنك لتعلم أني أكثر قريش مالاً فلك نصف مالي ولا تذهب معهما.

فأبى عياش إلا أن يخرج معهما فلما أبى إلا ذلك قال له عمر: أما إذ قد فعلتَ ما فعلت فخذ ناقتي هذه فإنها ناقة نجيبة ذلول، فأحزم ظهرها فإن رابك[1] من القوم ريب فانجُ عليها.

فأخذها عياش وسار مع أبي جهل وأخيه حتى إذا كانوا ببعض الطريق قال له أبو جهل: يا ابن أخي، واللّه لقد استغلظتُ بعيري هذا أفلا تعقبني ناقتك هذه، قال عياش: بلى. ثم أناخ وأناخا، ليتحول عليها فلما استووا على الأرض، هجما عليه وأوثقاه، ثم دخلا به مكة نهاراً ومضوا به في الوُثُقِ ثم صاحا: يا أهل مكة هكذا فافعلوا بسفهائكم، كما فعلنا بسفيهنا هذا؛ ثم أخذوا يذيقونه العذاب، حتى رجع ظاهراً إلى الكفر.

وأقبل سلمة بن هشام بن المغيرة من أرض الحبشة وأراد اللحاق بالرسول، فحبسه أبو جهل وأجاعه وأعطشه فافتتن.

ونادى النفير في قريش إلى الحرب. إلى قتال محمد في بدر حيث نستأصل شأفته وينتهي أمره، ويشعر القرشيون أن سلمة وعياشاً وهشاماً لن يكونوا إلا عوناً لمحمد في حربه معهم، وأن من الخير أن يبقوا في قيودهم في مكة وإلا تَلَمَّسُوا الفرص للانضمام إلى الرسول، وبقوا في مكة حقاً، ولكن فتية آخرين كانوا قد أسلموا ثم فُتنوا فافتتنوا وعادوا إلى الكفر ففروا من المدينة حين علموا بخروج محمد إلى قريش ـ وقالوا عن محمد وصحبه ـ لقد غَرَّ هؤلاء دينهم، وهناك في جبل بدر قتلوا جميعاً. وأطل الوحي على رسول اللّه ينادي: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا﴾ [النساء: ٩٧].

أما عياش وسلمة وهشام، فكانوا في قيودهم في مكة يحتملون من الألم ما لا يحتمله البشر، وأتاهم ضيف جديد.

* * *

---

(١) نجيبة: كريمة يُسابق عليها. ذلول: سهلة الانقياد. رابك: أصابك الشكُّ.

خرج الوليد بن الوليد بن المغيرة كافراً يوم بدر، وقاتل مع القرشيين قتالاً شديداً وهو يعلم أن قومه على ضلال مبين، ولكن هي نزوة العصبية عند العربي، وانهزم القرشيون وأسر الوليد. أسره عبد اللّه بن جحش. وخرج خالد بن الوليد وأخوه هشام لافتدائه فطلب عبد اللّه بن جحش أربعة آلاف فأبى خالد، ولكن هشاماً قبل، وقال لخالد: إنه ليس بابن أمك واللّه لو أبى فيه إلا كذا وكذا لفعلتُ، وطلب الرسول لافتدائه شكة أبيه الوليد، وكانت الشكة درعاً فضفاضة وسيفاً وبيضة، فأتيا بها إلى المسلمين، فلما قبض المسلمون ذلك خرج إخوة الوليد به حتى بلغا ذا الحليفة، فأفلت منهما وعاد إلى الرسول ﷺ وأعلن إسلامه ـ ثم عاد إلى إخوته فقال له خالد ـ هل كان هذا قبل أن تفتدى وتخرج مأثرة أبينا من أيدينا، فاتبعتَ محمداً إن كان هذا رأيك، فأجابه الوليد: ما كنت لأسلم حتى أُفتدى بمثل ما افتدي به قومي، ولا تقول قريش إنما اتبعت محمداً فراراً من الفدية. ثم سارا به إلى مكة وهو آمن لهما فما وصلا إلى هناك حتى أوثقاه وحبساه. وهكذا نزل الضيف الجديد على المفتتنين، وقد افتتن الوليد كما افتتنوا.

* * *

حديث يُسِرُّ به المسلمون إلى أنفسهم عن هؤلاء المفتونين، ويحدث المفتونون به أنفسهم. حديثُ نفسٍ قاس يتلخص في تلك الكلمة التي قالها عمر العظيم: «ما اللّه بقابل ممن افتتن صرفاً ولا عدلاً ولا توبة، قوم عرفوا اللّه ثم رجعوا إلى الكفر لبلاءٍ أصابهم». هذا ما يردده المسلمون وفي مقدمتهم عمر، ويقوله المحبوسون أنفسهم حتى أقبل الرسول صلوات اللّه عليه إلى المدينة. فأنزل اللّه عليه: ﴿ ۞ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ * وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾ [الزمر: ٥٣ ـ ٥٤].

فكتبها عمر بيده في صحيفة وبعث بها إلى هشام بن العاص.

وتسلم هشام الصحيفة. وكان أهله قد سمحوا له ببعض الحرية، حين طال السجن والقيد عليه، فخرج إلى ذي طوى يسير هناك ويجلس، يصعد الجبل ويهبط وهو ينظر إلى الرقعة ثم ينظر إلى السماء ويحاول تفهمها ويقول: «اللهم فهمنيها». فألقى اللّه في قلبه أنها نزلت فيه فجلس على ناقته ومضى يطوي البِيد إلى رسول اللّه. وقابل الحبيب أحبته الخالدين.

* * *

هذا رسول اللّه ﷺ يدعو في دبر كل صلاة: «اللهم أنج سلمة بن هشام وعياش بن أبي ربيعة

والوليد بن الوليد وضَعَفةَ المسلمين الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً» ويسمعها الصحابة منه كل صلاة؛ وفي فجر يوم صافٍ رفع النبي الأعظم رأسه من الركعة من صلاة الفجر، ثم نادى: «اللهم أنج الوليد بن الوليد وسلمة بن هشام وعياش بن أبي ربيعة، والمستضعفين بمكة. اللهم اشدُدْ وطأتك على مُضَر، اللهم اجعلها عليهم سنين كسنيِّ يوسف».

وتقبل اللّه دعوة الرسول إذ أفلت الوليد من الوثاق، وقدم المدينة، وفرح المسلمون بمقدمه، وسأله النبي الأعظم عن عياش وسلمة فقال له: تركتهما في ضيق وشدة وهما في وثاق، رِجْلُ أحدهما مع رجل صاحبه، وأقام الوليد في المدينة، ولكن شوق رسول اللّه يلح عليه دائماً أن يرى صاحبيه عياشاً وسلمة، فيقول يوماً: مَنْ لي بعياش بن أبي ربيعة وسلمة بن هشام، ويسمعها الوليد فيقول: أنا لك يا رسول اللّه بهما. فقال له الرسول: «انطلق حتى تنزل بمكة على العيتين فإنه قد أسلم فتغيب عنده واطلب الوصول إلى عياش وسلمة فأخبرهما أنك رسولُ رسولِ اللّه وأن تأمرهما أن ينطلقا حتى يخرجا».

فخرج الوليد إلى مكة مستخفياً فلقي امرأة تحمل لهما طعاماً فقال لها: أين تريدين يا أمة اللّه؟ قالت: أريد هذين المحبوسين. فتتبعها حتى عرف موضعهما، وكانا محبوسين في بيت لا سقف له، فلما أمسى تسلق الجدار ثم أخذ مروة[1] فوضعها تحت قيدهما ثم ضربها بسيفه فقطعها، فسمي سيفه لذلك «ذا المروة» ثم خرجا معه فحملهما على بعيره وانطلق هو يسوق البعير، وساروا في الطريق الذي سار فيه الرسول حين هاجر مخافة من الطلب وتتبعهما خالد بن الوليد وفريق من قريش، ولكنهم لم يتمكنوا من اللحاق بهم. وفي أثناء الطريق عثر الوليد فدميت إصبعه ولكنه لم يأبه؛ بل نظر إليها وقال:

ما أنتِ إلا إصبع دميت ... وفي سبيل اللّه ما لقيتِ

ووصلوا إلى المدينة سالمين.

* * *

هذا الوليد بن الوليد. السيد القرشي يدخل إلى المدينة فائزاً فرحاً بفوزه، فقد حقق للرسول ما أراد، وكم كان يقر عينه في تلك اللحظة حين يرى الرسولَ الأعظم يستقبل عياشاً وسلمة، وكان يشعر بتلك السعادة العظمى التي يحس بها المجاهدون حين يرون ثمرة جهادهم

---

(١) جمعها مرو، وهي حجارة صلبة تعرف بالصُّوَّان.

الخالد، ولكن الجسم كان قد أُضني وتحمل من وعث الطريق وشدته وعسفه ما ينوء به هذا الجسم الحديدي، فما لبث أن انهار، وأحس الوليد بفؤاده يتقطع شيئاً فشيئاً حتى توفي بين أيدي الصحابة راضياً، مودعاً إياهم.

وعلمت أم سلمة بوفاة ابن عمها فقالت: «غريب توفي في بلاد غربة»، واستأذنت الرسول صلوات اللّه عليه في البكاء على الوليد فأذن لها. فقالت:

يا عين فابكي للوليد بن الوليد بن المغيرة

كان الوليد بن الوليد أبا الوليد فتى العشيرة

فسمعها الرسولُ صلوات اللّه عليه فقال: «لا تقولي هكذا يا أم سلمة، ولكن قولي: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ [ق: ١٩].

* * *

وعلمت ضباعة بنت عامر بفرار ولدها وانضمامه إلى رسول اللّه فقالت:

اللهـمّ رَبَّ الكعبـة المسلمـة أظهـر علـى كـل عـدو سَلمـة

لـه يـدان فـي الأمـور المُبْهمـة كـفٌّ بهـا يعطـي وكـف مُنْعمـة

وبقي سلمة مع الرسول ﷺ يشاهد معه المواقع ولا يتخلف عن شيء منها. ثم خرج مع المسلمين إلى الشام حيث بعث أبو بكر الجيوش بجهاد الروم، فقتل سلمة بمرج الصفر شهيداً في المحرم سنة أربع عشرة في أول خلافة عمر بن الخطاب.

ومضى مع الخالدين.

* * *

أما عياش بن أبي ربيعة فبقي مع النبي صلوات اللّه وسلامه عليه يجاهد أيضاً حتى توفي الرسول، فخرج إلى الشام مجاهداً، ثم رجع إلى مكة فأقام بها حتى مات.

* * *

وعاش هشام بن العاص يحارب في سبيل اللّه مُسْتَلاً سيفه في كل معركة، ثم هاجر عمرو بن العاص، وعاش الأخوان عيشة الأبطال الميامين ينأيان عن كل فتنة ويُقبلان في كل جهاد. حتى توفي الرسول، وخرج عمرو بن العاص قائداً على جيش من جيوش المسلمين، وكان معه أخوه

هشام؛ واشتبك المسلمون مع الروم في أجنادين، ورأى هشام من المسلمين بعض النكوص عن عدوهم، فألقى المغفر عن وجهه، وأخذ يتقدم في نحر العدو وهو يقول: «يا معشر المسلمين إن هؤلاء الروم لا صبر لهم على السيف فاصنعوا كما أصنع». فجعل يدخل وسطهم فيقتل النفر منهم وهو ينادي: «يا معشر المسلمين إليّ إليّ أنا هشام بن العاص، أمِنَ الجنَّة تفرون!!؟». وهجم المسلمون كالأبطال حتى انهزمت الروم وانتهوا إلى ثلمة لا يعبرها مسلم إلا قُتل، فهجم هشام فقَتُل ووقع على الثلمة فَسَدَّها، فلما انتهى المسلمون إليها هابوا أن يوطئوه الخيل فقال عمرو:

ـ «أيها الناس! إن اللّه قد استشهده ورفع روحه إليه، وإنما هو جثة فأوطئوه الخيل»؛ ثم أوطأه هو، وتبعه الناس حتى قطعوه إرباً. فلما انتهت الهزيمة على الروم ورجع المسلمون إلى معسكرهم كرَّ إليه عمرو، فجعل يجمع لحمه وأعضاءه وعظامه ثم حمله في نِطْعٍ فواراه. ولما بلغ عمر بن الخطاب خبر قتله قال: «رحمه اللّه فنعم العون للإسلام».

وبينما حلقة من قريش جلوس في دبر الكعبة إذ مرّ عمرو بن العاص يطوف، فقال القوم: «هشام بن العاص أفضل في نفوسكم أم أخوه عمرو بن العاص؟»، وشعر داهية العرب بأنهم يتكلمون عنه، فلما قضى طوافه أتى إلى الحلقة وقال: «ما قلتم حين رأيتموني فقد علمت أنكم قلتم شيئاً؟». فقال القوم: «ذكرناك وأخاك هشاماً فقلنا: هشام أفضل أم عمرو؟». فقال: «على الخبير سقطتم، سأحدثكم عن ذلك، إني شهدت أنا وهشام اليرموك، فبات وبِتُّ ندعو اللّه أن يرزقنا الشهادة فلما أصبحنا رُزِقَها وحُرمتها، فهل في ذلك ما يبين لكم فضله عليّ؟».

* * *

وفي الرياض الخالدات. سيحيون. لا لَغْوٌ هناك ولا تأثيم؛ بل تزفهم الملائكة في أعالي السماء. سلام عليكم. سلام عليكم، وطوبى لكم يوم الميعاد!

مكتبة الرمحي أحمد

* * *

عبد الله بن عبد الله بن أبي...

[صورة من صور الفناء في الحق لم تعهدها الدنيا، ومَثَلٌ من أرفع الأمثال يذكر هؤلاء الذين أذلهم الحرص على الدنيا ومتاعها الزائل ـ وتعلقوا بالأهل والولدان فكانوا أدنأ الجبناء. .]

كانت القوافل تسير من جزيرة العرب إلى الشمال حيث أسواق الشام المزدهرة بأنواع من حاجيات الحياة وكمالياتها لا يعرفها العرب في بلدهم الجَدْب، ولكنهم يتطلبونها ويحملون منها ما يستطيعون. وإذا ما سارت القوافل إلى الشمال مرت دائماً بيثرب. المدينة السحرية الغريبة التي يعيش فيها حيان من العرب مع تلك الأمة اليهودية الغريبة الأطوار، وإذا ما أناخت القوافل في يثرب ذهب سادتها يتلمسون المقام عند سيد العرب عبد اللّه بن أبي بن سلول بن مالك بن الحرث الخزرجي في بيته الرفيع المنار. فإذا ما خيم الليل اجتمعت الحلقات في بيت عبد اللّه بن أبي، واجتمع التجار من كل مكان يتناقلون أخبار العرب ويتسامعون أخبار الشام، وفي وسط هؤلاء كان يجلس أبو عامر الراهب الخزرجي ابن خالة عبد اللّه بن أبيّ يُبشِّرُ بنبي جديد أظل زمانه ويعلن إيمانه به قبل مبعثه، وأنه ناصره ومعينه. ويسمع عبد اللّه بن أبيّ هذا ويسمع غيره. ثم يأخذون في أطراف من الأحاديث شتى، فإذا ما انتصف الليل أسرعوا إلى بيوتهم أو إلى مضاجعهم التي أعدها صاحب الدار للقاصدين نحوه من أصحاب القبائل.

وفي وسط هذه البيئة المترفة المفرطة في الترف والغنى؛ وفي ظلال تلك المجتمعات الغنية بأخبارها درج سن الطفولة والشباب الحبابُ بن عبد اللّه بن أبي بن سلول. وكان عبد اللّه ينظر إلى ابنه الحباب وهو يكتمل رجولة وقوة ويفيض حياة وازدهاراً. وقد وضع فيه آمال الحياة كلها، ولم يعد يأمل في شيء سوى أن يجمع لهذا الابن الشرف والثروة والجاه والسلطان.

وجاء يوم «بُعاث» يوم العواصف العاتية عواصف الموت والدمار التي حلت بالأوس والخزرج، فاقتتلوا أشد القتال حتى كاد أن يُفني بعضهم بعضاً. وانهزمت الخزرج آخر الأمر، ولكن عقلاء الفريقين أوقفوا القتال بقاء على أنفسهم من الزوال وخوفاً من تسلط اليهود ثعالب المدينة.

ولَكَمْ كره عبد اللّه بن أبي هذه الحرب، ولكم أراد أن يحول بينها، ولكن هكذا كانت

الأقدار، وكان لا بد له أن يشترك فيها ويخوض غمارها. وقد خاضها وصلي بنارها[1] وخاضها ابنه عبد الله واشترك في جميع وقائعها.

وأدرك الفريقان سوء ما فعلا ولكن بعد فوات الفرصة بعد أن ضعف الأوس والخزرج جميعاً وعلا اليهود مقاماً وجاهاً وثروة، وفكر أشراف العرب في أمرهم ورأوا أن حرباً أخرى بينهم إذا ما ثارت لأي سبب كان فيها القضاء عليهم ـ إذن فلا بد من الاندماج في وحدة تامة وقوة واحدة تقف في وجه اليهود. أجمعوا على هذا الأمر بعد تفكير عميق وقَرَّ رأيهم على أن يُتَوِّجُوا عبد الله بن أبي ابن سلول ملكاً عليهم، وأخذوا يجمعون الذهب والخرز ليصنعوا له تاجاً كما تصنع الأكاسرة.

وهنا أشرق قبس من نور. نور أَخَّاذ بدأت العرب تتبينه في يثرب ولم يشعر به ابن أُبيّ، ولكن هذا القبس انتقل من بيت إلى بيت، حتى كانت العقبة الثانية الكبرى، وقد ذهب اليثربيون إلى مكة ليعاهدوا مشرق النور على الوفاء.

أما عبد الله بن أبي فقد ذهب إلى مكة مع قومه، وقد أيقن أنه حين عودته سيتوج ملكاً على يثرب، وكم كان يحلم وهو في رحلته بملك عريض سيقيمه وينشر سلطانه في كل جزيرة العرب، ثم يتركه لابنه الحباب من بعده.

ونام ابن أبي في مكة ولم يشعر بتلك البيعة الكبرى، ولم يشعر بأن قومه يبايعون رسول الله صلوات الله وسلامه عليه على الموت في سبيله، وعلمت قريش بأمر البيعة فأتت إلى عبد الله بن أبي فسألته عنها، فأنكر ولج في الإنكار وأظهر الدهشة. أَشدَّ الدهشةِ لكلام القرشيين.

وعادت قافلة يثرب، ولما نأت قليلاً عن مكة علم عبد الله حقيقة الأمر، فارتاع له وحاول أن يرد قومه عنه فلم يأبهوا له، بل قابلوه ـ وهو ملكهم المرجو ـ أشد المقابلة وأغلظوا له في القول، وأدرك عبد الله أن عظمته قد انتهت وأن ملكه قد زال، وامتلأ هذا القلب الضعيف بالحقد والسخائم، وعاد إلى المدينة وانتشر الإسلام في كل بيت من بيوتها، حتى ابنه الحباب قد آمن وأسلم، فلما رأى عبد الله هذا أسلم هو أيضاً، ولكن كان إسلامه رياء ونفاقاً، وأصبح بيته موئلاً للمنافقين والمشركين يجتمعون لديه ويضعون خططهم ومؤامراتهم في رحابه.

ونأى ابنه عنه، كره الحباب بن عبد الله أن يغمض أبوه عينيه عن الحقيقة الأزلية التي أتى بها رسول الله، وأن يحاربها ابتغاء الدنيا ومتاعها الفاني، وحقداً على هذا الملك الذي ضاع منه..

---

(١) صَلِيَ: أي احترق بنارها.

فتنكب صحبته وهجر داره.

وهاجر رسول اللّه إلى المدينة، فازداد بغض عبد اللّه بن أبيّ له. أما الحباب فقد ازداد للّه ورسوله حُباً وإخلاصاً، وقد سماه الرسول عبد اللّه، وعظمت مؤامرات ابن أبي لرسول اللّه، والرسول يصبر عليها صبراً عجيباً، ولكن أي مأساة كانت تشتعل في صدر الابن، هل يبقي على هذا الأب أو يقضي عليه فينهي هذا الشر الذي يصيب المسلمين منه.

وخرج المسلمون إلى بدر، وهناك أبلى عبد اللّه بن عبد اللّه أحسن البلاء، وعرض نفسه للموت في كل موضع لعله يكتب صحيفة من صحائف الاستشهاد تَجُبُّ صحيفة أبيه المدنسة بالأوزار، ولكن كتب اللّه له فيها الحياة.

وخرج المسلمون إلى أُحُد، وما وصلوا إليها حتى خَذل عبد اللّه بن أبي الرسولَ وعاد بثلث الناس، وفي قريش كان ابن خالته أبو عامر الفاسق الذي آمن بالرسول قبل مبعثه، فلما بُعِثَ كفر به، فكأن آل أبيّ اجتمعوا على حرب رسول اللّه ما عدا عبد اللّه بن عبد اللّه، فقد شهر سيفه وانقض على أبي عامر ومن معهم من الخزرج قومه فأوسعهم ضرباً وتقتيلاً، واشتد القتال وعبد اللّه بن عبد اللّه صامد فيه حتى أصيب في أنفه، فأمره النبي ﷺ أن يتخذ أنفاً من ذهب. وعاد المسلمون بعد أحُد، وعاد معهم عبد اللّه بن عبد اللّه، وما زالت المأساة بعد تشتعل في صدر الرجل.

وأدرك سيد الأنبياء صلوات اللّه وسلامه عليه تلك المأساة الثائرة المشتعلة في نفس عبد اللّه فقرّبه منه، وأمَّرَه على المدينة في إحدى غزواته.

* * *

وخرج الرسول إلى غزو بني المصطلق، وانتصر عليهم، وازدحم المسلمون على ماء بعد الموقعة، فاختلف أجير لعمر يقود فرساً مع أحد الأنصار، فتماسكا، فصاح الأنصاري: يا معشر الأنصار، وصاح الأجير: يا معشر المهاجرين.

استمع عبد اللّه بن أبي إلى هذا، وكان قد خرج إلى الموقعة طمعاً في الغنيمة، فانتهز تلك الفرصة ليوقع بين المسلمين، وليشفي ما في نفسه من حقد وضغينة فقال: «أقد فعلوها قد كاثرونا في بلادنا، أما واللّه لئن رجعنا إلى المدينة، ليخرجنَّ الأَعزُّ منها الأذل. » ثم قال لقومه: «هذا ما فعلتم لأنفسكم، أحللتموهم ببلادكم، وقاسمتموهم أموالكم، ووالله لئن أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير بلادكم».

وسمع زيد بن أرقم هذا فأخبر به رسول الله ﷺ، وكان عمر حاضراً فقال: يا رسول الله، مُرْ به عباد بن بشر فليقتله، فقال الرسول الأعظم: كيف إذ يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه، ولكن أذن بالرحيل، فارتحل ﷺ في ساعة لم يكن يرتحل فيها ليقطع بالناس ما هم فيه، فلقيه أسيد بن حضير فسلم عليه، وقال: يا رسول الله لقد رحلت في ساعة لم تكن ترحل فيها! فقال: أَوَ ما بلغكَ ما قال عبد الله بن أبي؟

ـ ماذا قال؟!

ـ زعم إن رجع إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، فقال أسيد: والله لَتخرجنَّهُ إن شئت، فإنك العزيز وهو الذليل، وسكت ثم قال: يا رسول الله ارفق به فوالله لقد مَنَّ الله بك وإن قومه لينظمون له الخرز ليتوجوه، فإنه لَيرى أنك قد استلبته ملكاً. وعلم عبد الله بن أبي أن أمره قد افتضح فذهب إلى الرسول وأقسم أنه ما قال وما تكلم، وذهب جمع من الصحابة للرسول وقالوا له: يا رسول الله عسى أن يكون الغلام ـ أي زيد بن أرقم ـ قد أوهم. ولكن رسول الله أصر على الرحيل. ووصل عليه الصلاة والسلام إلى المدينة وقد نسي الناس من فرط التعب حديث ابن أبي، ولكن عبد الله بن أبي أقام معهم مُصِرّاً على الإنكار.

وأطل الوحي من أعلى السماء على رسول الله فنزلت سورة «المنافقون» وفيها إثباتٌ لقول زيد بن أرقم: ﴿ هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟ ۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ * يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [المنافقون: ٧ ـ ٨].

وأخذ النبي عليه الصلاة والسلام بعدها بأذن زيد وقال: هذا الذي أوفى الله بأذنه.

واستمع المسلمون إلى تلك الآيات واستمعها عبد الله بن عبد الله بن أبي فعلم أن رسول الله آمرٌ بقتلِ أبيه فسار إليه وقال:

«يا رسول الله هو الذليل وأنت العزيز، يا رسول الله إنْ أَذنتَ لي في قتله قتلته، فإن كنت فاعلاً فَمُرْني به أحمل إليك رأسه. فوالله لقد علمت الخزرج ما كان بها أحد أَبرَّ بوالده مني، ولكن أخشى أن تأمر به رجلاً مسلماً فيقتله، فلا تَدَعْني نفسي أنظر إلى قاتل أبي يمشي على الأرض حياً، حتى أقتله. فأقتل مؤمناً بكافر فأدخل النار».

ولكن رسول الله قال له: «بل نُحْسِنُ صحبته ونترفق به ما صحبنا، ولا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه، ولكن بر أباك وأحسن صحبته».

ولم تسمع الأجيال صحائف من روعة وجلال وتضحية ورحمة أكثر من تلك الصحائف. واستمرت الثورة النفسية في أعماق عبد اللّه بن عبد اللّه حتى مات أبوه، ودعا رسول اللّه إلى الصلاة عليه فصلى ولكن اللّه أنزل ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ﴾ [التوبة: ٨٤].

مات عبد اللّه بن أبي وانتهى أمره. ولكن ما زالت في نفس ابنه عبد اللّه ثورة مشتعلة الأوار على أبيه، ألم يُكتب أبوه في صحائف اللّه رأس المنافقين وتلك الأجيال المتعاقبة من المسلمين ألم تلعنه في كل حين، وازدادت الثورة قوة فكيف السبيل إلى إطفائها؟! خرج إلى كل الغزوات وأنفق معظم ما له للّه، ولكنها ما زالت مستمرة وتعاقبت السنون.

وارتفع اللواء. اللواء الخفاق في اليمامة حيث تقاتل جيوش الخليفة أبي بكر جيوش بني حنيفة، وفر المسلمون أولاً، ثم جمعوا صفوفهم والتحموا مرة أخرى. ولواء رسول اللّه يخفق فوق الرؤوس، وفي مقدمة الصفوف عبد اللّه بن عبد اللّه واخترقت النبال الجسد العظيم فسقط وانتصر المسلمون آخر الأمر، ووقفوا أمام الشهيد الكريم متأملين. لقد هدأت الثورة المشتعلة ـ الخاتمة ـ هدأت حين شربت من كؤوس النعيم ومرحت في رياض الخالدين.

* * *

عكرمة بن أبي جهل

«لقد كان في حياة عكرمة آية للناس ـ آية الضمير المعذب المرهف، فحين انكشفت له الحقائق العليا وآمن، أدرك بروحه الحساس مقدار خطيئاته الماضيات، فأراد أن يعفي على آثارها ما استطاع، فصلى وصام وأنفق وجاهد، ثم بعث نهراً من دمه ودم قومه فانهمر كالأتيّ: فبدد تلك الصخور القاسيات، صخور الخطايا»

وقف رسول اللّه ﷺ بجيشه العظيم أمام مكة. ووقف القرشيون منتظرين سفيرهم أبا سفيان. حتى أقبل ثم صاح: يا معشر قريش ـ هذا محمد قد جاءكم فيما لا قِبَلَ لكم به، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن.

وفزع القرشيون أشد الفزع، وأسرع الكثيرون منهم إلى بيوتهم، ولكن عكرمة بن أبي جهل ـ وقد نذر نفسه لحرب رسول اللّه وخاض كل موقعة ضده، أبى أن يضع السلاح؛ بل ها هو ذا يجمع أصحابه لقتال رسول اللّه. وها هو ذا صاحبه حماس بن خالد الدائلي يقول لامرأته: لآتينك بخادم من أصحاب محمد.

وفي الخندمة وقف عكرمة بن أبي جهل بن هشام سيد بني مخزوم وفارسها على رأس أشد القرشيين بغضاً لرسول اللّه ـ وتحرك الجيش الإسلامي العظيم، وهجم خالد بن الوليد على عكرمة وأصحابه فسحقهم سحقاً، وفر عكرمة ومن معه من المشركين، وعاد حماس بن خالد إلى امرأته، فقابلته مستهزئة قائلة: أين الخادم. فقال:

فـأنـتِ لـو شَهـدتِنـا بـالخنـدمـة ... إذ فَـرَّ صفـوان وفـرَّ عِكـرمـة

وأبـو يـزيـد كـالعجـوز المُـؤتمـة ... لـم تنطقـي فـي اللـوم أدنـى كلمـة

إذْ ضـربتنـا السيـوف المثلمـة ... لهـم زئيـرٌ خلفنـا وغَمغمـة

ودخل المسلمون وعلى رأسهم سيد الرسل مكة فعفا عن أهلها، ما عدا جماعة قليلة على رأسها عكرمة بن أبي جهل.

وكان عكرمة بن أبي جهل قد فر من مكة. هذا سيد بني مخزوم يطوي صحارى العرب مُيَمِّماً نحو اليمن طريداً فاراً من وجه المسلمين، مفكراً فيما فعل في تلك الأعوام الطوال من معاداة لرسول اللّه وحرب اللّه، لا يدفعه إلى هذا إلا خوفه على هذا المجد المؤثل أن يضيع من يده، وهذا الصرح المشمخر من مال ومتاع وسؤدد أن يزول عنه، وقد ذهب كل هذا وانتصر أصحاب محمد رسول اللّه، وأصبح لهم الأمر كما وعدهم نبيهم وكانت العاقبة للّه ـ أما هو فقد انتهى به الأمر إلى مغادرة وطنه شريداً يرهب الموت على يد المسلمين في كل لحظة، فَغَذَّ السيرَ حتى وصل آخر الأمر إلى اليمن، ثم ركب في سفينة تحمله إلى الحبشة، وما سارت السفينة بهم قليلاً حتى أصابتها ريح عاصف وأشرفت على الغرق، فقال أصحابها للركب: أخلصوا فإن آلهتكم لا تغني عنكم شيئاً ها هنا.

فقال عكرمة: إن لم ينجني في البحر إلا الإخلاص فما ينجيني في البر غيره. اللهم لك عليَّ عهد إن أنت عافيتني مما أنا فيه أن آتي محمداً حتى أضع يدي في يده، فلأجدنه عَفُوّاً كبيراً.

وقد أنقذه اللّه حقاً فعادت السفينة إلى البر ثانية سالمة، ولكن كيف العودة إلى رسول اللّه. وقد هم عكرمة إلى البحر ثانية ـ ولكن هذه زوجهُ قد أقبلت من مكة إليه.

أسلمت أم حكيم زوج عكرمة وابنة عمه الحارث بن هشام يوم الفتح ثم استأمنت لزوجها من رسول اللّه فآمنه، فخرجت مع غلام لها رومي للحاق به ـ فراودها العبد عن نفسها فأطمعته ولم تُمَنِّهِ حتى أتت حياً من العرب فاستعانتهم عليه فأوثقوه حتى أدركت عكرمة، فسألها عن أمر قريش، فقالت: جئتك من عند أوصلِ الناس وأكرمهم وقد آمنك. فوافق عكرمة ورجع، وفي أثناء الطريق أخبرته خبر الرومي فقتله قبل أن يسلم.

وكان موقفاً من أدق المواقف مقابلة عكرمة لرسول اللّه، ولكن النبي الأعظم قام إلى عدوه اللدود وعانقه وقال: مرحباً بالراكب المهاجر.

إن عكرمة ليقص بعد ذلك أن عداوته المستعرة زالت في ذلك اليوم حين رأى النبي الظافر القادر. يعفو ويصفح ثم يزيد في مقام الذين حاربوه مقاماً ولا يتخذهم عبيداً أو موضع السخرية والنكاية.

وبهذا انتهت صحيفة ابن أبي جهل السوداء لتبدأ صحيفة من أروع الصفحات.

ما لقريش تنتقل من الكفر إلى النفاق، ويُظهِرُ أهلها المشاركة الوجدانية القلبية لكل من عادى الرسول ـ رسول اللّه ـ ويتهامسون في خاص أحاديثهم بهذا، ما لهم يهزأون بَعْدُ بالإسلام،

وقد كان في يد نبي الإسلام قطع رقابهم، بل كان أيسر هذا عليه، تشفياً بحق وانتقاماً لحوادث جسام لطخوا بها أيديهم. . ولكنه عفا. هذا الحليم الرفيق، لقد نأى عكرمة عن قريش كما نأى سهيل بن عمرو عنها، وعن كثير من البقية المنافقة من مشيخة قريش الضالة. وهذا عكرمة يأتي رسول اللّه فيقول: لا أدع مالاً أنفقت عليك إلا أنفقت في سبيل اللّه مثله، وتأخذ التوبة كل ذرة من روح هذا الرجل وكل مكان من جسمه. فلا يُرى إلا وعيناه لا تفارق المصحف ولا يُلمح إلا ساجداً للّه راكعاً. لكن ما لهؤلاء المسلمين يقولون حين يلمحونه: هذا ابن عدو اللّه أبي جهل. وأسرع عكرمة إلى رسول اللّه فشكا له ـ فجمعهم الرسول وقال لهم: لا تسبوا أباه فإن سَبَّ الميت يؤذي الحي. ونهاهم أن يقولوا: عكرمة بن أبي جهل، ثم استعمله الرسول على هوازن عام حج.

ذهب الرسول إلى الملأ الأعلى. وكادت قريش أن ترتد. لولا رجال أخلصوا للّه إسلامهم كعكرمة وسهيل. وارتدت العرب، ووجهت إليها الجيوش وقاد عكرمة الجيش الذاهب إلى بني حنيفة، وقاتل هناك عكرمة ما شاء اللّه أن يقاتل.

ثم بعثه أبو بكر بجيشه إلى عمان، حيث خاض مواقع هائلة مع أهلها حتى خضع المرتدون ـ ثم اقتحم مهرة وكتب اللّه له فيها النصر.

وانتهت حروب الردة فخرج عكرمة إلى الشام مجاهداً، وكان له في كثير من مواقعها اليد الطولى ـ وقبل أن يخرج إلى الشام خرج أبو بكر ليستعرض الجيوش في الجرف على بعد ميلين من المدينة، فبصر بخباء عظيم حوله ثمانية أفراس ورماح وعدة ظاهرة فانتهى إليه ـ فإذا هو خباء عكرمة، فسلم عليه أبو بكر وجزاه خيراً وعرض عليه المعونة، فقال: لا حاجة لي فيها معي ألف دينار.

فدعا له أبو بكر بخير.

وفي اليرموك. وقف عكرمة يقول: قاتلت رسول اللّه ﷺ في كل موطن وأَفِرُّ منكم اليوم!. ثم نادى: «مَنْ يبايعني على الموت»؟ فبايعه عمه الحارث بن هشام وضرار بن الأزور وابنه عمر بن عكرمة في أربعمائة من وجوه المسلمين وفرسانهم، فقاتلوا أمام فسطاط خالد؛ وكان عكرمة يواجه الأسنة والرماح حتى جُرحت صدره ووجهه فقيل له: اتق اللّه وارفق بنفسك. فقال: كنت أجاهد بنفسي اللات والعزى فأبذلها لها، أفأستبقيها الآن عن اللّه ورسوله لا واللّه أبداً.

وتصافحت السيوف للمرة الأخيرة. لقد مات عكرمة ومن معه ـ ما عدا ضرار بن الأزور.

وحمل عكرمة وابنه عمر إلى خالد، فوضع رأس عكرمة على فخذه، ورأس عمر على ساقيه. وقطر في حلوقهما الماء. وهما ابنا عمه. ثم قال:

زعم ابن الحنتمة (أي عمر) أنّا لا نستشهد وكيف؟ ألم يدفع بنو مخزوم هذا الثمن العظيم دم عكرمة وابنه وعمه.

* * *

وفي بيت رسول اللّه في المدينة جلست أم سلمة تحدث عن رسول اللّه، فقالت: قال رسول اللّه ﷺ: «رأيت لأبي جهل عذقاً في الجنة، فلما أسلم عكرمة قال: يا أم سلمة هذا هو».

* * *

ونادى المنادي في المدينة: استشهد عكرمة واستشهد ابنه عمر وعمه الحارث.

وصمت الناس.

لقد كان في حياة عكرمة آية للناس، آية الضمير المعذب المرهف، فحين انكشفت له الحقائق العليا وآمن. أدرك بروحه الحساس مقدار خطيئاته الماضيات. فأراد أن يعفي عن آثارها ما استطاع فصلى وصام وأنفق وجاهد، ثم بعث نهراً من دمه ودم قومه فانهمر كالأتيّ. مبدداً تلك الصخور القاسيات. صخور الخطايا.

وهكذا نام ابن أبي جهل مطمئناً آخر الأمر. نام مع الصديقين والشهداء.

* * *

مكتبة الرمحي أحمد

فهرست

الموضوع	الصفحة
مقدمة	٥
آل ياسر	٧
شهداء بدر	١٢
سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب	١٥
مصعب بن عمير	٢٥
الطلل الخالي	٣٠
الأوفياء	٣٦
١ ـ تحت اللواء ـ آل نسيبة بنت كعب .	٤٠
٢ ـ تحت اللواء ـ أشراف بني سلمة	٤٨ .
٣ ـ تحت اللواء ـ سعد بن الربيع	٥٤
أنس بن النضر	٥٨ .
٤ ـ تحت اللواء ـ (١) صور من أهل أحد	٦٠
٥ ـ تحت اللواء ـ (٢) صور من أهل أحد بعد التولية	٦٥
غسيل الملائكة	٦٨ .
حبر اليهود	٦٩ .
السيد القرشي	٧٠
سعد بن معاذ .	٧٢
الأمراء ـ زيد بن حارثة	٧٩ .
جعفر بن أبي طالب	٨٣
عبد الله بن رواحة .	٨٥
على ماء الرجيع	٨٩ .
أولاد أبي أحيحة .	٩٥

سعد بن عبيد عالم الإسلام العظيم ١٠٨.
شهداء اليمامة الفارسان ١١٢
سالم مولى أبي حذيفة ١١٥
شهيد نهاوند الأكبر أمير مزينة ١١٧
بطل نهاوند . . ١١٩.
الطفيل بن عمرو الدوسي ١٢٥
أبو حذيفة بن عتبة . ١٣١
فارس الخزرج ١٣٩.
فتنة الأشراف . ١٤٢
عبد الله بن عبد الله بن أبي ١٤٩.
عكرمة بن أبي جهل . ١٥٤
فهرست . ١٥٩.

* * *

للمزيد والجديد من الكتب والروايات زوروا صفحتنا على فيسبوك

مكتبة الرمحي أحمد

@ktabpdf تيليجرام

شهداء الإسلام
في عهد النبوة

مكتبة الرمحي أحمد

https://t.me/ktabpdf

دار عمار للنشر والتوزيع
عمان - ساحة الجامع الحسيني - شوق البراء - عمارة الحجيري
للفاكس ٤٦٥٢٤٢٧ - ص.ب ٩٢١٦٩١ عمان ١١١٩٢ الأردن